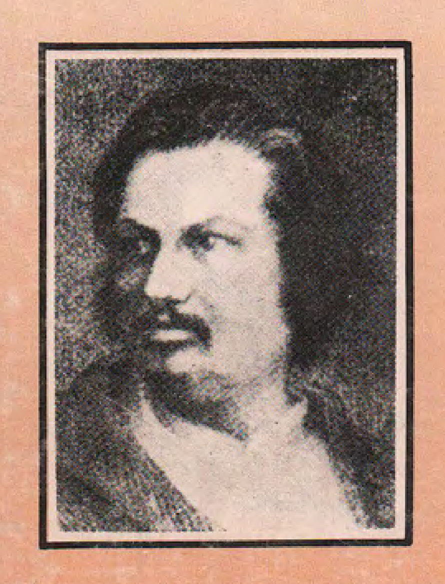
بلزاك

الملهاة الانسانية



العازبون

الرّواية الأولى

بييريت

دراسات طبائع

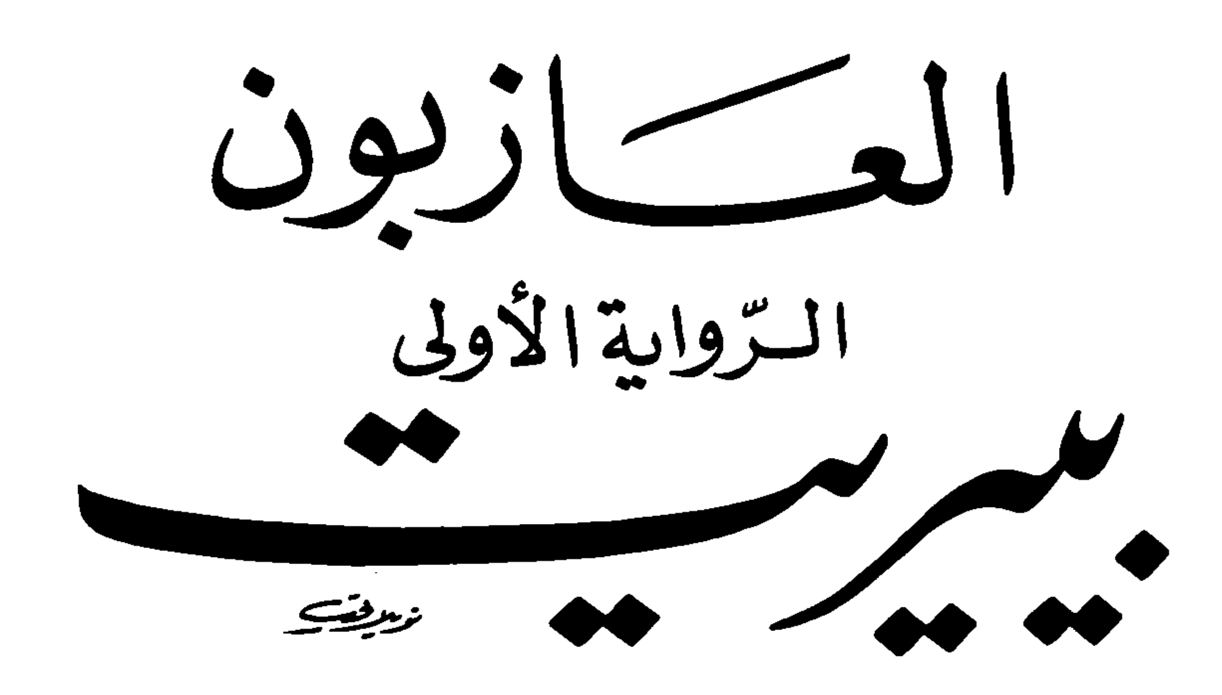
مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

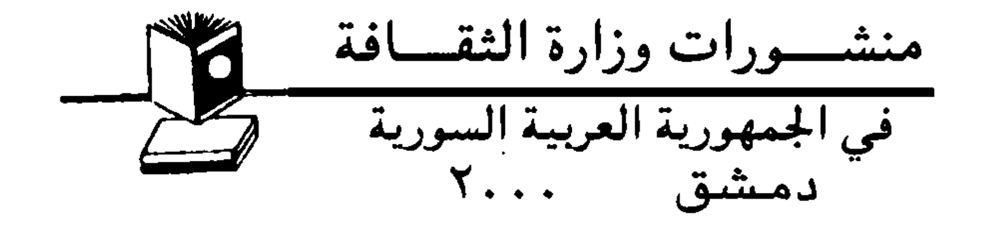
روايات بلزاك ٢٨

بـلزاك
الملهـــاة الإنسانية



دراسات طبائع
مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة
ميشيل خوري


منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب

BALZAC

La Comédie humaine

LES CÉLIBATAIRES

Première histoire

PIERRETTE

Etudes de Moeurs

Scènes de la vie de Province

الملهاة الإنسانية = La Comédie humaine/ بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - [٣ج]؛ ٢٤ سم. - (روايات بلزاك؛ ٢٨-٣٠).

المحتوى: العازبون. - الرواية الأولى: بييريت، الرواية الثانية: كاهن تور، الرواية الثالثة: المتصيدة.

١ - ٨٤٣ ف   ب ل ز   م   ٢- العنوان الأول   ٣- العنوان الموازي

٤- العنوان الثاني   ٥- العنوان الثالث   ٦- العنوان الرابع

٧- العنوان الخامس   ٨- بلزاك   ٩- خوري

١٠- السلسلة   مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٤٠٤ / ٨ / ٢٠٠٠

روايات بلزاك

« ٢٨ »

مقدمة الطبعة الأولى

١٨٤٠

العزوبية حالة ضارة بالمجتمع، وقد فكرت الجمعية التأسيسية في فترة ما، بإخضاع العازبين لضريبة هي ضعف تلك المترتبة على أمثالهم من المتزوجين. وهذه الفكرة من أكثر الأفكار المالية إنصافاً، وأسهلها تنفيذاً. ولنر كم تكسب خزينة الدولة من مثل هذه الغرامة الصغيرة المتصورة؟

- مضاعفة الضرائب المباشرة مهما كانت طبيعتها إن كان المكلف عازباً، وطيلة مدة بقائه دون زواج.

إن وجد في فرنسة مليون عازب، نسبة مساهمة كل منهم في الضرائب وسطياًعشرة فرنكات، فهذا يعني أن الحصيلة ستزداد عشرة ملايين فرنك.

وستثير هذه الضريبة المضاعفة ضحك الفتيات المؤهلات للزواج، خاصة وأن هذه الزيادة لن تنالهن.

وسيقهقه المتزوجون إنشراحاً.

وستكتم المدرستان السويسرية والإنكليزية، اللتان تريدان إعطاءنا دورساً في الأخلاق، ضحكتهما وهما تطبقان شفاههما الرقيقة على أسنانهما الصفراء.

ولن يستطيع الجباة أن يمتنعوا عن الإبتسام وهم يسجلون في مربعاتهم الصغيرة من الأوراق اللازوردية، والصفراء، والرمادية، والمخضرة، والحمراء. قيمة الضرائب التي تسدد دائماً مع تكاليفها الإضافية.

وسيكون الضحك شاملاً.

إن نشر هذه الفكرة المقتبسة من مداولات الجمعية التأسيسية بالغة الجرأة، خاصة وأن من يثيرها عازب، لكن هناك حالات يجب أن تتغلب فيها المصالح الاجتماعية على المصلحة الشخصية.

وهذا ينطلق من مبدأ: هو كره المؤلف العميق لكل كائن غير منتج؛ للعازبين والعوانس، والكهول دون زواج، هؤلاء اليعاسيب في خلية النحل!.

وهكذا ففي الرسم الطويل والكامل للطبائع، وهي أشكال وأفعال وحركات المجتمع الحديث، صمم الرسام على ملاحقة العازبين، مستثنياً مع ذلك بعض الحالات النبيلة الشهمة: الكهنة والجنود، وبعض التضحيات النادرة.

المؤلف الأول الذي تناول هذا الصف من الفقاريات عُنونَ خطأً: **العازبين** وسيسمى من الآن فصاعداً: **الراهب تروبير**[1] وقد وضعت فيه أربع صور مختلفة، تبين كفاية مساوئ وفضائل العازب، لكن هذا مؤشر فقط.

وبييريت هي استمرار رسم العازب، الكنز الغني بالوجوه، الذي يجب أن يقدم فيه أكثر من نموذج: الفارس دي ڤالوا في **العانس**، والفارس دسبار في **التحريم**، والوجه الصامت، الممسوح، دي مارسي في عدة مشاهد. وخاصة في **الفتاة ذات العينين الذهبيتين**، وفي **زهرة البسلاء**[2] إلخ...

أما شسنل هذا الموثّق الكهل المخلص في حجرة **العاديات القديمة**، وبوارية والانسة ميشونو في **الأب غوريو** فليسوا حتى الوقت الحاضر من الوجوه الرئيسة، تلك التي تحمل على الجبين معنى اجتماعياً أو فلسفياً، إنما هم من الطوارئ.

أحد أرهب عزابنا وهو مكسيم دي تراي سيتزوج، وسينعقد هذا الزواج في

---

(١) لكن العنوان تغير في العام ١٨٤٣ إلى «كاهن تور».

(٢) رواية، سيطلق عليها بلزاك فيما بعد عنوان «عقد الزواج».

انتخاب في المقاطعات[1] وهو مشهد يتخذ وضعاً مريحاً بين اثنتين من مقاصير الأكاجو التي تحوي المشاهد غير المنشورة، التي تشبه إلى حد ما كواليس المسرح. نعم هذه الرواية يجب أن تنشر لمصلحة العائلات التي تتجمهر بين آلاف صفحات هذا المؤلف الطويل وينتابها الذعر إن عرفت أن مكسيم مايزال جائعاً. **يجب هذا!** قال المؤلف وهو يلتف بمبذله في حركة جميلة مماثلة لحركة أودري[2] وهو ينهض قائلاً هذه العبارة المماثلة لـ **فاتوم**[3] القدماء.

يجب هذا! ماذا تريدون! وترتفع ألف تهمة ضد متأنقي **دراسات طبائع**. فهناك نقد أحمق، جبان حاقد على مكسيم دي تراي! تتناوله الصحف، تزعم أنه عديم الأخلاق، وأنه قدوة سيئة، بل يصل الأمر إلى إنكار وجوده! لذلك قرر والده لينهي الموضوع تزويجه. وما يزال الصراخ مستمراً، إذ يصرخ في فرنسة بمناسبة كل شيء، بمناسبة الخير، وبمناسبة الشر؛ لكن أخيراً ما أن يتزوج مكسيم دي تراي، ويغدو أباً لعدة أولاد، وينضم بإخلاص إلىٰ مناصري الملكية الجديدة، ويستخدم من قبلها، حتى يكون له مدافعون عنه، زد على أنه سيغتني، ويمكنه أن يدفع لبعض المتملقين، وسيسدد اشتراكات دون شك لبعض المحررين، فهذا أكثر فائدةبالتأكيد من الإشتراك ببعض الصحف.

ستصيح عدة نساء: كيف! ستزوّج هذا الوحش الذي سبَّب لنا كثيراً من الأذى الذي أغوى السيدة دي رستو وتخلى عنها، الذي لَهَا ما دام اللهو قائماً، وتجعله سعيداً، ورب عائلة؟ سيكون ذلك مثلاً رهيباً! يجب أن تكون نهايته سيئةجداً، كنهاية فاوست، أو دون جوان، وكجميع الكهول العزاب الذين سببوا الآلام الرهيبة لخليلاتهم فانتهوا إلى المعاناة العصابية، أو السكتة الدماغية أو الشلل.

---

(١) هي رواية «نائب ارسي» وقد بقيت غير تامة.

(٢) أودري: (١٧٨١-١٨٥٣) ممثل فرنسي في مسرح المنوعات، كان مختصاً بالأدوار المضحكة.

(٣) فاتوم Fatum : كلمة لاتينية تعني «انه القدر» (المترجم).

ويرد المؤلف: «ماذا تريدون، هذا الشيطان مكسيم ذو صحة جيدة، ثم أين الخطر؟ وهل يكذب المثل القائل: العشب السيِّء ينمو دائماً؟ ألا تريدون للمسيحية أن تكون أحياناً على حق. ويلجأ إليها بعض الخطأة نادمين؟».

هؤلاء النسوة المتمتعات بالنباهة فهمن وأيدن زواج مكسيم دي تراي. هذا الزواج لايكلف إلا وعداً من المخصصات الحكومية، وهو أمر يسهل الحصول عليه؛ فرئيس الوزراء سيمنح مكاناً لائقاً لدى تراي الذي سيغدو نائباً ممتازاً.

سترون هذا المشهد من طبائعنا السياسية خلال بضعة أشهر: فالزيجات والانتخابات تتم بشكل أسرع من الحديث عنها.

لقد غفر للمؤلف الصورة التي أعطاها عن دي مارسي، إنما بسبب اليقين بأن دي مارسي قد مات. كما أنه كان مفيداً جداً لبلاده، فقد كان رئيس وزراء وحقق منجزات كبيرة أو كانت لديه على الأقل الرغبة بتحقيقها. وألقابه هي دلالة تقدير وطنه له، وتكفير عن أخطاء شبابه، وحياته الجميلة بكاملها مدونة في مشاهد من الحياة السياسية، وهذه المشاهد الشهيرة جداً ماتزال للأسف بين مقاصير الأكاجو حيث ترقد كثير من العرائس المتلهفات للانطلاق إلى حياة قاعةالقراءة. أما راستينياك فكان وكيل وزارة، وهو صاحب مبدأ، مع بعض تحذلق، فالسياسة دفعته إلى الإعجاب بنفسه، لكنه إنتهى إلى الزواج من الآنسة دي نوسنجن، وانتقدت الصحف المحلية والبلاط، والمدينة كثيراً هذا الزواج، إذ راجت شائعات كثيرة خلال عهد الملكية الثانية عن علاقات حميمة بين راستينياك ودلفين زوجة نوسنجن، لكنه تمكن من أن يدفع الناس إلى القول عنه: إنه شريف، مرهف العقل، أظهر نبلاً كبيراً حيث تشوش كثير من البوراجوازيين. أضف إلى أنه يقول: إن كثيراً من الحموات فعلن مثل ذلك، ومكّنه ذكاؤه من تسمية أخيه الراهب غابرييل دي راستينياك مطراناً[1] وهكذا يسَّر للسيدة دي نوسنجن أن تستقبل في البلاط.

---

(١) يتغير تاريخ وصول هذا الراهب إلى المطرانية باختلاف الروايات فهو العام ١٨٣٣ في «إبنة لحواء» وهو قبل العام ١٨٣٩ في «نائب ارسي» وهو ١٩٨٤ في «كاهن القرية».

إن صودف عازبون في عالم **دراسات طبائع**، فانسبوهم إلى تلك الضرورة التي نخضع لها جميعاً في أن نبقى كذلك في سن العشرين، أما العازبون الجديون، سارقو الحضارة دون أن يعيدوا لها شيئاً، فقد عزم المؤلف عزماً أكيداً على أن يذوي نضارتهم، بتثبيتهم في القطن، تحت الزجاج، في خانة متحفه كما تثبت الحشرات النادرة المثيرة للفضول. وستكون رواية بييريت ناتج هذا المنهج من التشهير الاجتماعي، والسياسي، والديني، والأدبي.

لاتلوموا أبداً المؤلف على قرار اتخذه بمهاجمة هؤلاء الأشخاص بضراوة، فهو ليس عدو العزاب؛ وإحدى الحماقات الأكثر حقداً، وحسداً، وسخافة، من بين جميع الحماقات التي يواجهها ويتعرض لها هي إثارة الظن بأن لديه أفكاراً مطلقة، وكرهاً ثابتاً، لايتجزأ ضد بعض الفئات في المجتمع؛ ضد الموثقين، والتجار، والمرابين، والبورجوازيين، والملاكين، والصحفيين، والصرافين الخ...

إنه أولاً يحبهم كما يحب المركيز دي فالنسيانا[1] أراضيه العزيزة التي تقدم له سنوياً سبائكه الذهبية.

ثم إنني علي يقين وثقة أنكم ستدهشون تماماً، عندما ينتهي هذا الرسم الجداري الأدبي الذي يتحرك فيه كل هذا العدد من الأشخاص، و يتهيأ لكم تأمله في صورته الكاملة، وستستغربون من كميةالتفاهات والحماقات، والأحكام الخاطئة، والتفاحات الفاسدة، وأحياناً الفجة التي قُذف بها المؤلف بينما كان قلمه يجري على الجدار، وهو على منصاته، غير المأمونة كثيراً، يرسم، ويرسم، ويرسم!.

ستشاهدون أنه عندما اضطر لرسم بلهاء أمثال آل روغرون. رسم أيضاً بائع الخرداوات بيلرو، وعندما صور ملامح كلابارون، وضع إلى جانبه صورة غوديسار، وبوبينو الصغير (الذي غدا الآن عمدة إحدى دوائر باريس، ويحمل

---

(١) أوبرغون، مركيز دي فالنسيانا، أحدأكبر ملاكي مناجم الفضةفي المكسيك، وبلزاك المهتم دائماً بالمناجم الشهيرة لم تفته الأخبار المتداولة عن هذه الشخصية التي يقال أنها اشتهرت في أوروبة إذ أن اسم «فالنسيانيت»أطلق على الفلدسبات الموجود في مناجم فالنسيانا.

وسام جوقة الشرف، وهو على صلة طيبة بالعرش، ومحاط بمؤسسات مواطنيّة) ألا يعوّض المركيز دسبار في التحريم عن دوتيه؟ ألا يتباين سيزار بيروتو مع البارون دي نوسنجن.

لكن المؤلف لايريد أن يكرر في مقدماته مالم يكرره في مؤلفاته، وها قد مرت ست سنوات على رده، في مقدمة لطبعة الأب غوريو[1] على اتهامات خاطئة، معادية، كاذبة، شرسة، غير مشروعة، وقحة، دنيئة، حمقاء، لاأساس لها، فظة، سخيفة، موجهة ضد معشر النساء في العالم الممثل في مؤلفاته. وبوضع قائمة دقيقة لجميع هؤلاء النساء، والفتيات، والأرامل تبين أن عدد الفاضلات منهن يزيد بمقدار الثلث عن أولئك اللواتي يعيَّرن على أمر ما؛ وهي مزية لاتصادف بالتأكيد في العالم الحقيقي.

منذ تلك المقدمة، أخذ حذره، ودعم كتيبة الفضيلة، سواء بين الرجال أو بين النساء، لكن الاتهامات استمرت. فما العمل؟

هل تعرفون الأسس التي ترتكز إليها لا أخلاقيتنا وفسادنا العميق؟ إن مرتكزهما هو الإغراء بالأخطاء، وغفرانها!.

لكن هل كانت ترتكب الأخطاء لولا إغراءاتها الواسعة؟ وهل توجد الفضائل لولا وجود الرذائل؟.

ألا يجب، بنية طيبة، انتظار تصريح كاتب بانتهاء مؤلّفه قبل انتقاده؟

وقبل القول بأن لديه، أو ليس لديه فكرة فلسفية أو مستقبلية، ألا يجب البحث عما إذا كا كان قد أراد أو وجب أن تكون لديه هذه الفكرة؟.

قد تكون فكرته بالفعل تلك المتعلقة بهذا الكل الكبير المتحرك من حولكم؛

---

(١) هي مقدمة الطبعة الأولى المؤرخة في ٦ آذار ١٨٣٥ وهي تنتهي بجدول صنفت فيه النساء الفاضلات والنساء الآثمات اللواتي ابتكرهن بلزاك في مؤلفاته في لائحتين منفصلتين، وفيه يبرهن بلزاك على أن مؤلفاته أكثر غنى بالنساء الفاضلات منها بالنساء السيئات.

إن تحقق له الحظ الطيب، والمصادفة، وهذا الشيء غير المدرك في رسم هذا الكل الكبير بشكل كامل وبأمانة. وفي بعض الرسوم من المتعذر فصل المضمون عن الشكل. بقراءة هذا التاريخ الحي للطبائع الحديثة، إن لم تحبب ياصاحب المتجر، أن تموت كسيزار بيروتو، أو تحيا كبيلرو أكثر من أن تكون دوتيه أو روغن. وأنت أيتها الفتاة إن لم تفضلي أن تكوني بييريت بدلاً من السيدة دي رستو، وأنت أيتها المرأة إن لم تختاري الموت كالسيدة دي مورسوف بدلاً من الحياة كالسيدة دي نوسنجن، وأنت أيها الرجل إن لم تفضل أن تُمدِّن كما فعل بنا سيس بدلاً من أن تعيش خاملاً كروغرون، وأن تكون الكاهن بونه بدلاً من الشاب لوسيان دي روبمبرة، وتنشر السعادة كما الجندي القديم جنستا بدلاً من العيش كفوترن؛ فإن المؤلف يكون قد أخطأ الهدف[1]؛ ولم يتوصل إلى إفهام التطبيقات الفردية لهذه النماذج، ومعنى آلاف الأمثلة التي تشكل هذا التاريخ للطبائع؛ لكن بما أن اللوحة العامة تتألف من فكرة هي أكثر سمواً، ولم يحن الوقت بعد لشرحها، فالمصيبة صغيرة جداً، وستكون **بييريت** إذاً اللوحة الثانية، حيث يشكل العازبون الوجوه الرئيسة؛ وإذا كان روغرون قد تزوج فلا يجب اعتبار زواجه حلاً لحبكة الرواية، وسيبقى روغرن كما كان، ولن يعيش طويلاً، فالزواج سيقتله.

في هذا المؤلف لسوء الحظ، بعض عيوب في التفصيل ستختفي فيما بعد، وسيكون أكثر ارتباطاً مما هو عليه الآن، مع الأقسام السابقة التي يجب أن يقترن بها. وهذا العيب ناتج بالضبط عن الضرورة التي ألزمت المؤلف بنشر الأقسام المختلفة لهذا الكل الكبير مجزأة؛ وقد بين سابقاً بأننا لم نعد في تلك العصور التي يمكن فيها للفنانين أن يحبسوا أنفسهم وأن يعيشوا بطمأنينة على انفراد ويخرجوا من عزلتهم مزودين بمؤلف منجز كلياً، ويمكن نشره كاملاً كمؤلفات جيبون[2]،

---

(١) يتبين هذا المفهوم الجمالي القريب من الكلاسيكيات. مما يؤكد هنا على إرادة بلزاك في إنشاء أدب في التطهير اللاإرادي للنفس. كما أن تعداد الأسماء السابقة هو مظهر تكرر ظهور الشخصيات في الملهاة الإنسانية.

(٢) مؤرخ إنكليزي مشهور (١٧٣٧-١٧٩٤) كتب بالفرنسية: محاولة في دراسة الأدب (١٧٦١) ثم تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها وهومؤلف بدأ به في ١٧٧٦ ولم ينهه إلا في العام ١٧٨٧. وبلزاك يعدد هنا كتاباً انصرفوا باطمئنان إلى التأليف حتى إنهاء المؤلف دون أن تضطرهم ظروف العيش أو تطورات العصر من النشر المجزأ كما هو الحال مع الروائي.

ومونتسكيو، وهيوم إلخ . . . وبدلاً من الحياة لأجل العلم، والفن، والأدب؛ فإننا مضطرون أن نصنع الأدب والفن، والعلم من أجل العيش، وهذا مايعاكس إنتاج أعمال جميلة. وهذا الوضع لن يتغير في ظل حكومة معادية للأدب بشكل رئيس، ولاتخفي كرهها له. وهي ترفض تخصيص تقاعدمعيشي لشعراء يكاد الشقاء يحولهم إلى مجانين. وتهمل التجارة التي يمكن أن تكون الأكثر ازدهاراً في فرنسة، زمن السلم، وهي تسويق **نشر الكتب الحديثة**، لكنها بتراخيهاشجعت القرصنة الأكثر مدعاة لخجل الحق العام في أوروبة وهي التزييف[1]. هذه الحكومة التي تشتت الاعتمادات المخصصة للفنون الجميلة، فتخصص الملايين للأحجار، وترفض عدة آلاف من الفرنكات للأدب. في يوم ما، سيرفع تمثال هذا المسكين لويس الرابع عشر، المنصوب في فناء قصر فرساي ذراعه، ويفتح فمه ويصرخ: «فلتتحول هذه الحجارة إلى إكوات تنفق لتغذية رجال الموهبة بينكم».

ماهو أكثر غرابة هو أن يرى هؤلاء الأشخاص الذين ليس لديهم إلا حس الأشياء المادية أو أعضاؤها، أو مايبدو لي أكثر طرافة، أن يتصدى بعض المتزمتين الحمقى لإتهام الأدب بالمركنتيلية[2] الجشعة: إن المتوحشين أكثر منطقية منهم. ولنقل بشكل أكثر صراحة، إنهم أقل سذاجة، فبمطابقة القول مع الفعل يستحيل التصريح بشكل أكثر وضوحاً لأدب إنه غير مرغوب فيه.

مامن أحد أكثر دراية من المؤلف بعيوب **بييريت**، فهناك بعض أماكن ينبغي التفصيل فيها، وقد أشارت له يد صديقة إلى مواقعها؛ وهنا شيء ما يجب تعديله في المرض المؤدي إلى موت البطلة: وبعض الوجوه تحتاج أيضاً إلى ضربات فرشاة،

(١) ما أن نشرت بييريت سلسلة في صحيفة «القرن LE Siècle» بين١١ و٢٧ كانون الثاني ١٨٤٠ حتى ظهرت خلسة لدى عدة ناشرين بلجيكيين في العام نفسه.

(٢) المركنتيلية Mercantilisme: نظام اقتصادي يقوم على تعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومي الصارم لكامل الاقتصاد الوطني وانتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية. وقد غدت الكلمة على النطاق الفردي تعني الجشع وحب كسب المال (المترجم).

لكن هناك لحظات يفسد التنميق فيها بدلاً من أن يحسن في لوحة، ويجب تركها لطبيعتها إلى أن يهتدي الذوق، ببارقة حكم، لحسن تعديلها. ورغم افتراضات الكثير من الكسالى، والخاملين العاجزين عن كتابة صفحة بالفرنسية، أو خلق دراما، أو تركيب شخصية، أو ابتكار موقف، أو نضح كتاب من رأسهم الخشبي؛ في تصورهم أن الخصوبة تتنافى مع التفكير وحسن العمل. وكأنّ رفاييل، ووالتر سكوت، وفولتير، وتيتيان، وشكسبير، وروبنز وبوفون، واللورد بيرون، وبوكاس، ولساج لايقدمون تكذيبات ساطعة لمزاعمهم البلهاء. وكأن الفكر بسرعة أبحاثه وحركاته، ومدى بعد نظره، لايعطي لزمن المجدين العاملين قياساً غير مايجده البطالون والمغفلون؟ هوذا مايقرب من عشر سنوات، ومغفلون آخرون يتهمون المؤلف بالإعلان عن أعمال لم ينشرها، لكن هل جربتم أن تتحكموا بكل مايطرأ على نفوسكم من حالات؟ ستجدون أنكم مضطرون إلى أن تتآلفوا معها، وهذا مايفعله المؤلف مع جهد قريحته.

روجيه الطيب[١] سيكون ثالث مشهد من حياة المقاطعات يجرب فيه المؤلف أن يرسم التعاسةالتي تنتظر العازبين في شيخوختهم، والموضوع لن يُستَنفد كلياً، لكن هذا يكفي في الوقت الحاضر بالنسبة للعازبين، فالمروج سقيت بما فيه الكفاية[٢]. آه! هناك أيضاً بعض التافهين الآخرين الذين يتهمون المؤلف بالمغالاة في الاعتداد بالنفس. من السهل توجيه انتباههم إلى أن البرهان على التساهل في هذا الاعتداد كامن في نشر مؤلفاته التي تتعرض لكثير من النقدالمعقول.

جاردي، حزيران ١٨٤٠

(١) أحد العناوين التي تصورها بلزاك للرواية التي استقر رأيه أخيراً على إعطائها عنوان «المتصيدة».
(٢) أحد أبيات «الرعويات» (٤٢-٣٩ ق.م) للشاعر اللاتيني فيرجيل (٧٠-١٩ ق.م)



الإهداء

إلى الآنسة أنا دي هانسكا[1]

أيتها الإبنة العزيزة:

وأنت فـــرح بيت بكامله، أنت التي يتطاير وشـــاحـــهـــا الوردي أو الأبيض، صيفاً، على هضاب ڤيير شوفنيا، كتموّج صفحة ماء غدير يتابعها أبوك وأمك بعين حنون؛ كيف يمكن إهداؤك قصة مليئة بالكآبة؟

ألا يجب أن تحدثي عن مصائب لن تعرفها أبداً فتاة معبودة مثلك؛ لكن يديك الجميلتين قد تتمكنان يوماً من مواساتها؟[2]. من الصعب جداً، يا آنا، أن يوجد لك في تاريخ طبائعنا، مغامرة جديدة بأن تمر تحت ناظريك وفات المؤلف أن يختارها لك، لكن ربما ستدركين كم أنت سعيدة بقراءة تلك التي يرسلها لك.

صديقك القديم

دي بلزاك

---

(١) منذ شهر حزيران ١٨٣٩، فكر بلزاك بإهداء أحد مؤلفاته إلى آنا هانسكا، وكانت الفتاة آنذاك في الحادية عشرة من عمرها، ومن المؤكد أن بلزاك رغب أن يكتب لتلك الفتاة الصغيرة مؤلفاً بماء الورد، لكن الظروف جعلته يُعدّل مشاريعه ورغم ذلك بقي الإهداء موجهاً إلى الفتاة ذاتها، مع ملاحظة أنه لم يسجل إلا عند تصحيح المسوّدة لثالث مرة وكان يحمل تاريخ تشرين الثاني ١٨٣٩ وقد حذف منه عند التصحيح الرابع مقطع كامل، كما هومبين أدناه.

(٢) هنا حذف المقطع التالي: «تذكري يا آنا هذه الحصى التي جمعتها على ضفة بحيرة نيوشاتل، بعد أن ألقتها العواصف، ودوّرتها الصدمات، وتلك التي نظمها فوسن بشكل صليب وهي تتحرك أحياناً الآن على جيدك الأبيض. إنها تهمس لك بأرق أفكار البر المسيحي، كذلك تبين لك هذه القصة كم هي قبيحة القلوب المجردة من الإحسان.»

رواية بييريت

في فجرِ يوم من شهر تشرين الأول ١٨٢٧ ، كان شاب في السادسة عشر من العمر تقريباً ، تدل هيئته على مايسميه التشدق الكلامي الحديث ، بسفاهة ، بروليتاريا[١] ! يقف في ساحة صغيرة من أسفل مدينة بروفنس . وكان يمكنه في تلك الساعة أن يتأمل دون أن يلحظه أحد البيوت المختلفة الواقعة على تلك الساحة المربّعة قليلاً . والطواحين الواقعة على أنهار بروِفنس تنقل بخرير تساقط مياهها الأصداء المرددة في أعلى المدينة ، في انسجام مع حركة الهواء ومع جلاء أنوار الصباح تبرز صمت المكان العميق وتمكننا من سماع ضجيج عجلات عربة على بعد فرسخ من الطريق البعيد ، وصفا المنازل الطويلان المفصولان بحواشٍ من الزيزفون يظهران أبنية ساذجة تعبر عن حياة مطمئنة ومحددة للبورجوازيين . ولاّ أثر في ذلك المكان لنشاط تجاري ، وتكاد البوابات العريضة المترفة للأثرياء لاترى ! وإن وجدت فنادراً ماتدور على محاورها باستثناء بوابة السيد مارتز[٢] ، وهو طبيب مضطر لاقتناء عربة واستخدامها . وكانت بعض واجهات المنازل مزينة بعرائش الكرمة وأخرى بشجيرات ورد طويلة الساق تصل حتى الطابق الأول فتعطر بأزهارها النوافذ حيث تنثر باقات من براعمها المتفتحة . وكان أحد أطراف تلك الساحة يصل حتى الشارع الكبير في المدينة الواطئة بينما الطرف الآخر منفتح على شارع مواز للأول تنتشر حدائقه على طول أحد النهرين اللذين يرويان وادي بروفنس[٣] .

---

(١) كان البروليتاري لدى الرومان يعني ذلك الرجل الذي لايملك شيئاً ولايفيد الدولة إلا بنسله ، وتطورت الكلمة في القرن التاسع عشر فغدت تعني من يعيش من عمله فقط ، ويبدو أنها كانت موجودة في الفترة التي كتب فيها بلزاك بييريت إذ وردت في نص آخر للسيد پ . لرو العام ١٨٣٢ ، واستعملها بلزاك أيضاً في طبيب الريف بمعنى القاصرين في الأمة ، لكنها لم تشتهر إلا بعد إصدار البيان الشيوعي العام ١٨٤٧ والذي ورد فيه : «يا بروليتاريي العالم اتحدوا» .

(٢) يؤكد الأخوان غونكور في صحيفتهما وجود طبيب بهذا الاسم في بروفنس .

(٣) بروفنس Provins : بلدة صغيرة في مقاطعة السين ومارن على فولزي رافد نهر السين جنوب شرق باريس والساحة التي يذكرها بلزاك في القسم الأسفل من المدينة موجودة وأطلق عليها الآن اسم : ساحة أونوره دي بلزاك ، ويمكن أن يكون بلزاك قد عرف المدينة أثناء رحلته إلى جنيف في العام ١٨٣٣ ، كما تشير السيدة مينينجه إلى أن بروفنس هي مكان ولادة أنطوان ميشلن صهر السيدة دي برني وله فيها إرث منزلي ، لكن وصف بلزاك للقسم الأعلى من المدينة لا يدل على معرفة دقيقة بها وليس من إشارة إلى إقامة له فيها .

في هذا الطرف الأكثر هدوءاً من الساحة استدل الشاب على المنزل الذي أشير له عليه : واجهة من حجر أبيض مخططة بموازيات تدل على المداميك، تطل منها نوافذ ذات شرفات من حديد مزخرف بوريدات مدهونة بلون أصفر بينما تدلت على النوافذ ستائر رمادية وفوق هذه الواجهة التي تشمل الطابقين الأرضي والأول تظهر ثلاث كوات لسقيفة تمتد تحت سطح مغطى بالآردواز، على إحدى زوايا جملونه يدور مؤشر ريح جديد. يمثل صياداً في وضع التسديد نحو أرنب بري.

ويصعد إلى الباب الهجين بثلاث درجات من حجر، وإلى جانب هذا الباب طرف أنبوب رصاصي يصب المياه المنزلية فوق قناة صغيرة ويشير إلى موقع المطبخ. بينما تبدو من الجهة الأخرى نافذتان مغلقتان بعناية بمصاريع رمادية تخترقها ثقوب بشكل قلوب تسمح للنور بالنفاذ إلى قاعة يخمن أنها قاعة الطعام. وفي النهوض المعوض عنه بالدرجات الثلاث وتحت كل نافذة ترى منافذ الأقبية المغلقة بأبواب صغيرة من صفيح مدهون، تتخلله ثقوب رتبت بعناية متكلفة. كل شيء كان يبدو إذاً جديداً، في هذا البيت المرمَّم، حيث ماتزال حداثة الترَف تتباين مع قدم المظهر الخارجي لجميع البيوت الأخرى، مما يمكن الملاحظ أن يستنتج حالاً الأفكار المشوبة بالحرص، والقناعة الكاملة لتاجر صغير معتزل.

نظر الشاب إلى هذه التفاصيل بتعبير من البهجة المشوبة بالحزن، وانتقلت عيناه من المطبخ إلى السقائف بحركة تدل على التروي. وأظهرت إشعاعات طلوع الشمس الوردية المنسكبة على إحدى نوافذ سقيفة إلى ستارة من الكاليكوت لاوجود لها على الكوات الأخرى. وبدا الإنشراح الكلي على محيا الشاب، وتراجع بضع خطوات، وأسند ظهره إلى جذع شجرة زيزفون، وأنشد بتلك النبرة الفاترة الخاصة بفتيان الغرب تلك الأغنية العاطفية البريتانية المنشورة من قبل بروغيير[1]، وهو مؤلف موسيقي ندين له بألحان لطيفة، منها هذه الأغنية التي يأتي فتيان القرى في بريتانية لإنشادها للعرسان في يوم عرسهم.

---

(١) بروغيير المولود العام ١٧٩٣ في نيم، ألحق بموسيقى الحجرة للملك شارك العاشر، وهذه الأغنية- المذكورة جزئياً من قبل بلزاك نشرت في تنسيق صوتين وعزف على البيانو في هدايا غنائية لرومانييزي وبروغيير وذكرت بأنها تقليد للحن بريتاني قديم.

وفي أغاني وأساطير فالوا لنرفال يرد أيضاً هذا المقطع : أخيراً هوذا أنت / أيتها العروس الجميلة/ أخيراً هوذا أنت / مقيّدة إلى قرينك/ بخيط طويل من ذهب/ لاينقطع إلا بالموت وهكذا فالموضوع ذاته منتشر في عدة مقاطعات فرنسية بأشكال مختلفة.

أتينا نعبر عن أمنياتنا بالرفاه في الزواج
للسيد قرينك
ولك أنت أيضاً
تم تقييدك ياسيدتي العروس
بقيد من ذهب
لاينحل إلا بالموت

لن تذهبي بعد الآن إلى المرقص وإلى لعباتنا الجماعية
ستلزمين البيت .
بينما سننطلق جميعاً

هل أدركت جيداً مدى ما يجب عليك القيام به
لتكوني أمينة لقرينك
ولتحبيه كنفسك

تقبَّلي هذه الباقة التي تحملها يدي إليك
للأسف فعفتك الوهمية
ستزول كهذه الأزهار

هذه الموسيقى الوطنية، وهي بمثل عذوبة تلك التي اقتبسها شاتوبريان لأغنية «**أختي أما زلت تتذكرين**»[1] المنشدة وسط إحدى مدن برِّي الشامبنية الصغيرة،

---

(١) أغنية معروفة تبدأ بهذا البيت: «كم لي من ذكرى لطيفة» وقد نشرت في العام ١٨٠٦، وجمعت في قصة شاتوبريان «**آخر ابن سراج**».

يجب أن تكون بالنسبة لبريتانية موضوع ذكريات ملحة لشدة أمانتها في تلوين التقاليد، والطيبة، والمواقع في تلك البلاد العريقة النبيلة، وتسود فيها كآبة مبهمة مردّها مظهر الحياة الحقيقية المؤثرة بعمق. هذه القدرة على إيقاع عالم من الأشياء الرصينة، والعذبة والحزينة، بنغم مألوف فرح غالباً. هي مزية هذه الأغاني الشعبية التي تعتبر تطيرات الموسيقى، إن أردنا قبول كلمة تطيّر كمعبّر عن كل مايبقى بعد دمار الشعوب ويطفو فوق ثوراتها!.

استمر العامل ينظر إلى ستارة كوة السقيفة وهو ينشد المقطع الأول من أغنيته، وعندما لم يلاحظ أي حركة بدأ في إنشاد المقطع الثاني، وعندها تحركت ستارة الكاليكوت، وما أن وصل إلى: «تقبلي هذه الباقة...»؛ حتى بدا وجه فتاة وفتحت يد بيضاء بحذر النافذة، وحيت الشابة بإشارة من رأسها، المسافر المنشد في اللحظة التي أنهى فيها الفكرة الكئيبة المعبر عنها بهذين البيتين البسيطين

للأسف فعفتك الوهمية

ستزول كهذه الأزهار

وظهر العامل فجأة، وهو يسحب من تحت سترته زهرة صفراء ذهبية شائعة جداً في بريتانية، وقد وجدها على الأرجح في حقول برية، وهي زهرة الجولق(*)، النادرة هناك. همست الفتاة: أهذا أنت يا بريغو؟

- نعم يا بيبريت، إنني في باريس، أقوم بدورتي في فرنسة، لكنني قادر على أن استقر في هذا المكان مادمت موجودة فيه.

في تلك اللحظة سمع صوت انزلاق مزلاج في غرفة الطابق الأول تحت سقيفة بيبريت! وبدرت من البريتانية حركة ذعر شديدة وهي تقول لبريغو: «أهرب! وقفز العامل كضفدع مذعور نحو المنعطف الذي سببته طاحون في ذلك الشارع الجانبي المفضي إلى الشارع الكبير شريان الحي السفلي في المدينة، لكن رغم خفته أحدث حذاؤه الثقيل المحدد بوقعه على بلاط بروفنس صوتاً يسهل تمييزه عن خرير ماء الطاحون ويمكن للشخص الذي فتح النافذة أن يسمعه.

(*) الجولق: Ajone: شجيرات ذات أوراق صغيرة سهمية، أزهارها صفراء ذهبية وتعد من النباتات الطبّية المفيدة في أمراض الكبد والكلي (ملاحظة المترجم)

ذلك الشخص كان امرأة؛ فما من رجل ينتزع نفسه من عذوبة غفوة صباحية ليستمع إلى تروبادور ينشد وهو في سترة، الفتاة وحدها تستيقظ على أغنية حب. وهكذا فذلك الشخص كان فتاة، وفتاة عانساً، نظرت بعد أن أزاحت مغاليق النوافذ بخفة وطواط، في جميع الاتجاهات، ولم تسمع إلا بشكل مبهم خطوات بريغو وهو يهرب. أي شيء أرهب من رؤية ظهور صباحي لعانس دميمة على نافذتها؟ أليس هو الأكثر إزعاجاً من جميع المشاهد الغريبة التي تثير ضحك المسافرين عندما يعبرون المدن الصغيرة؟ إنه منفر كثير الكآبة، لايدفع إلى السخرية. هذه العانس، ذات الأذن المستنفرة، بدت مجردة من أي نوع من الحيل التي تستخدمها لتجميل نفسها، لم يكن على رأسها ذلك الطوق من الشعر المستعار، ولاياقتها المثناة. كانت تعتمر ذلك الكيس الصغير البشع من التفتة السوداء الذي تضعه العجائز على مؤخرة الرأس. فيتجاوز قلنسوة الليل المزاحة بحركات الرقاد. هذه الفوضى تعطي للرأس السحنة المتوعدة التي يضيفها الرسامون على الساحرات. فالصدغان، والأذنان، والرقبة غير المحجوبة إلا قليلاً تكشف للأنظار عن طابعها اليابس الجاف، وتظهر تجاعيدها الفظة بفوارق من الاحمرار لاتسرّ العين، وتبرز أيضا اللون شبه الأبيض لقميص النوم المعقود حول العنق بشريط مدوم وانفراج هذا القميص يظهر صدراً شبيهاً بصدر فلاحة عجوز لاتبالي بدمامتها. والذراع المعروقة تبدو وكانها عصا لفت عليها خرقة قماش.

بدت هذه الآنسة من نافذتها طويلة يسبب اتساع وجهها ومظهر القوة فيه مما يماثل السعة الغريبة لبعض الوجوه السويسرية؛ فسحنتها مشوهة القسمات بعيب في مجموعها، وطابعها الرئيس جفاف في الخطوط، وخشونة في الأسلوب، وفقدان في الحس يشمئز منه العارف بالفراسة، وهذه التعابير الواضحة أنئذ تتعدل عادة بنوع من ابتسامة تجارية، وبتظاهر ببلاهة معبرة عن سذاجة بحيث أن الأشخاص الذين تعاشرهم تلك الآنسة يمكن أن يعتبروها إنسانة طيبة. كانت تمتلك هذا البيت على الشيوع مع أخيها، وكان الأخ ينام بكل هدوء في غرفته، حتى أن أوركسترا الأوبرا لاتوقظه، بالرغم من أن علو الأنغام في تلك الأوركسترا مشهور! مدت العانس رأسها خارج النافذة، ورفعت نحو السقيفة عينيها الصغيرتين الزرقاوين بشحوب وبرود، وبأهداب قصيرة مزروعة على حافة أجفان منتفخة على الدوام

تقريباً؛ وجربت أن ترى بييريت، لكن بعد أن تبين لها عبث هذه المناورة دخلت إلى غرفتها بحركة مماثلة لحركة سلحفاة تخبئ رأسها بعد أن أخرجته من قوقعتها. وأقفلت مغاليق النافذة، ولم يعد يعكر صمت الساحة إلا حركة الفلاحين الوافدين إليها أو الأشخاص المبكرين بالخروج. عندما توجد عانس في بيت، فلا حاجة لكلاب حراسة، إذ لايمكن أن يمر عليه أي طارئ دون أن تراه، أو تعلق عليه، أو تستخلص منه كل النتائج الممكنة. وهكذا فإن هذا الظرف سيطلق العنان إلى افتراضات خطيرة، وسيفتح إحدى هذه المآسي الغامضة التي تمر في الوسط العائلي، ولن يقلل من رهبتها بقاؤها في السر، هذا إن سمحتم مع ذلك، أن يطلق على هذا المشهد البيتي كلمة المأساة.

لم تعد بييريت إلى النوم فوصول بريغو كان حدثاً كبيراً بالنسبة إليها. ففي جنة التعساء هذه كانت تنسى خلال الليل الهموم، الإزعاجات التي كان عليها أن تتحملها خلال النهار. وهي في ذلك شبيهة بطل من أبطال قصيدة لاأدري إن كانت ألمانية أو روسية، وفيها يبدو لها النوم حياة سعيدة في حين يكون النهار حلماً مزعجاً. وبعد ثلاث سنوات، فاجأها لأول مرة استيقاظ هنيء، إذ عادت إليها ذكريات طفولتها تتردد بشاعرية في نفسها. وسمعت المقطع الأول وكأنها في حلم، وأيقظها المقطع الثاني مذعورة، وانتابها الشك عند الثالث، فالتعساء هم من مدرسة القديس توما[1]. وعند المقطع الرابع وصلت في قميص النوم، حافية القدمين، إلى نافذتها، وتعرفت على بريغو، صديق طفولتها، وهو ينشد. آه! هذه هي سترته المربعة، بجيبيها المهتزين على مستوي الحقوين، سترة الجوخ الأزرق الشائعة في بريتانية، والصدار الرواني[2] الخشن، والقميص من قماش يضم قلباً من ذهب

(١) القديس توماً: هو أحد تلامذة المسيح الاثني عشر، وهو الذي قال بعد قيامه إن لم أضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن، وجاءه السيد المسيح وقال له هات إصبعك إلى يدي وهات يدك وضعها في جنبي، ولاتكن غير مؤمن بل مؤمناً. أجاب توما: ربي وإلهي، وقال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا (يوحنا ٢٠-٢٥ حتى ٣٠).

(٢) الرواني: نسبة لمدينة روان: مركز مقاطعة النورماندي، قماش يتميز برسومه الظاهرة.

والياقة العريضة المستديرة، وأقراط الأذنين، والحذاء الضخم، وبنطال الكتان الأزرق غير المبيض، الناصل اللون بشكل غير متساو على طول الخيط، هذه الأشياء البسيطة والقوية تشكل ثياب بريتاني فقير؛ وخفق قلب بييريت لمرأى أزرار القرن الأبيض الكبيرة في الصدار والسترة واغرورقت عيناها بالدموع وهي تشاهد باقة زهر الجولق ثم ضغط رعب هائل في النفس على أزهار ذكرياتها المتفتحة للحظة، وخطر لها أن ابنة خالتها كان يمكن أن تسمعها وهي تستيقظ وتسير نحو النافذة وأحست بحركة هذه العانس، وأشعرت بريغو بذعرها ووجهت إليه إنذاراً انصاع له البريتاني المسكين بإطاعتها دون أن يفهم شيئاً منها، ألا يصور هذا الخضوع الغريزي إحدى هذه الإنفعالات البريئة والمطلقة كما يحدث بين قرن وآخر على هذه الأرض، حيث تزهر شجرات الألوة في إيزولابلا[1] مرتين أو ثلاث مرات كل مئة سنة. لو رأى أحد بريغو يهرب لأعجب بالشجاعة لأكثر تلقائية للعاطفة الأكثر براعة. فجاك بريغو كان جديراً ببييريت لورين التي لم تتجاوز الرابعة عشرة[2]: طفلان! لم تستطع بييريت التغلب على دموعها وهي تراه يقفز بذعر نتيجة الإشارة التي بدرت منها. ثم عادت وجلست على مقعد قميء في مواجهة منضدة صغيرة وضعت فوقها مرآة؛ حيث أسندت مرفقيها، ووضعت رأسها بين يديها، وبقيت هكذا تفكر نحو ساعة، منشغلة باستعادة ذكريات «السبخة» وقصبة بنهويل[3]؛ والرحلات الخطيرة الجارية على مياه مستنقع في زورق أعده من أجلها جاك الصغير من جذع شجرة صفصاف عتيقة، ثم وجهي جدتها وجدها العجوزين، ورأس والدتها المتألم، والهيئة الوسيمة للنقيب بريغو، أخيراً طفولة كاملة بدون هموم! ذلك كان حلمها: أفراح ساطعة على خلفية رمادية. كان شعرها الأشقر الجميل في فوضى تحت قلنسوة صغيرة مدعوكة خلال نومها، قلنسوة صغيرة من البركال ذات

---

(١) إيزولابلا: إحدى الجزر الأربعة المسماة جزر بارومس الواقعة في بحيرة ماجور الإيطالية في الألب على الحدود السويسرية. . والألوة نبات من الفصيلة الصبارية يبدو كالأعمدة المضلعة المتطاولة ويسود الاعتقاد بأنه لايزهر إلا كل مئة سنة.

(٢) هو العمر الذي أعطاه بلزاك للمركيزة دي بسكير وزوجها عندما أعلن ذووهما خطبتهما.

(٣) اسم وهمي أعطاه بلزاك في بياتريس لآنسة، وهو يطلقه هنا على قصبة يحدد مكانها في منطقة السبخات قرب نانت.

كشاكش صنعتها بنفسها : وعلى جانبي صدغيها أفلتت خصلات شعر من ملفاتها الورقية الرمادية، وخلف رأسها جديلة ثخينة مسطحة تتدلى منشورة؛ والبياض الزائد في وجهها يكشف عن أحد هذه الأمراض الخطيرة التي أطلق عليها الطب إسماً لطيفاً هو **الإختضار**[1] وهو يحرم الجسم من ألوانه الطبيعية، ويشوش الشهية، وينبئ عن اضطرابات كبيرة في العضوية؛ فتصطبغ البشرة كلها بلون شمعي، ويكشف العنق والكتفان بشحوبهما العشبي الذاوي عن نحول الذراعين المتدليين والمتصالبين إلى الأمام، بينما بدا القدمان متراخيين أوهنهما المرض. وقميصها غير الواصل إلا لمنتصف ساقيها يظهر أعصاباً متعبة وأوردة مزرقة، وعضلات ضامرة، وصبغت برودة الصباح شفتيها بلون بنفسجي، بينما أبدت الابتسامة الحزينة التي سحبت زاويتي فمها الرقيق عن أسنان بلون العاج الصافي إضافة إلى شكل الارتصاف الدقيق، هي أسنان جميلة شفافة تتوافق مع أذنيها الناعمتين وأنفهاالأقنى الأنيق وملامح وجهها الجذابة رغم استدارته التامة. وكل حيوية هذا الوجه اللطيف توجد في العينين بقزحيتهما كلون تبغ اسبانية الممتزج بنقاط سوداء تلتمع بانعكاسات الذهب حول حدقة عميقة شديدة الحيوية. وجب أن تكون بييريت فرحة، لكنها حزينة. وفرحها المفقود مايزال مرتسماً في حيوية محيط العين، وفي رقة جبينها البريئة، وطيات ذقنها القصيرة. كانت أهدابها الطويلة ترتسم كالفراشي على وجنتين أذبلهما الألم. والبياض الفائق يجعل القسمات وملامح الهيئة في منتهى النقاء. والأذن تحفة فنان صغيرة : تخالها من مرمر. وبييريت تتألم لأسباب عديدة وقد تهمكم قصتها فإليكموها : كانت أم بييريت، ابنة السيد أوفري من بروفنس، أخت غير شقيقة للسيدة روغرون والدة المالكين الحاليين لهذا المنزل.

(١) الاختضار CHLOROSE : ورد في قاموس ليتره : «الاختضار» مرض يصيب الفتيات اليافعات اللواتي غاب طمثهن ويتميز بشحوب زائد وصفرة في الجلد تميل إلى الاخضرار، ورخاوة العضلات وبياض الملتحمة. وهو ناتج عن نقص الكريات الحمر وضعف الخضاب فيها. وغدا الآن نادراً بعد اكتشاف أدوية مركبات الحديد المعالجة له.

لكن موسى لي باونك يشير في بحثه «وصف الأمراض في الإنسانية البلزاكية» إلى أن مرض بييريت شبيه بمرض فرانسوا الثاني.

تزوج السيد أوفري في الثامنة عشر وكان له من هذا الزواج ابنة وحيدة دميمة تقريباً، تزوجت بدورها وهي في السادسةعشر من صاحب نزل في بروفنس اسمه روغرون وتزوج أوفري بعد وفاة زوجته مرة ثانية وهو في التاسعة والستين من العمر وأنجب من هذا الزواج الثاني أبنة أيضاً، لكنها جميلة. وهكذا كان هناك فارق كبير في العمر والحياة بين ابنتي السيدة أوفري، فالأولى وهي السيدة روغرون بلغت الخمسين من عمرها وأم لولدين بالغين، عندما ولدت الابنة الثانية.

تزوجت هذه الابنة الثانية عندما بلغت الثامنةعشر من عمرها عن حب من ضابط بريتاني اسمه لورين، وهو نقيب في الحرس الامبراطوري. لكن الحب يدفع غالباًإلى الطموح، وهذا ما دفع النقيب، الراغب في أن يصل بسرعة إلى رتبة عقيد، للانتقال إلى كتائب ميادين القتال، وبينما كان النقيب لورين وزوجته سعيدين في حياتهما وبما يرفدهما به السيد والسيدة أوفري من معونة، وهما يرتعان في باريس زمن السلم أو يتنقلان في ألمانية زمن المعارك الامبراطورية؛ توفي العجوز أوفري العطار في بروفنس عن ثمانية وثمانين عاماً، دون أن يتسنى له تنظيم أي وصية وتمكن الصهر روغرون بمناورة بارعة أن يستولي مع زوجته على معظم الميراث ولم يتركا للأرملة أوفري إلا بيت المرحوم على الساحة الصغيرة، وبعض أربنتات من الأرض. وهذ الأرملة أم السيدة لورين، كانت في الثامنة والثلاثين من العمر عند وفاة زوجها، وككثيرات من الأرامل خطرت لها الفكرة غير السليمة في الزواج ثانية، فباعت إلى إبنة زوجها السيدة روغرون الأرض والبيت الذين كسبتهما من ميراث زوجها، لتتمكن من الزواج من طبيب شاب اسمه نيرو، التهم ثروتها فماتت حزناً وشقاء بعد سنتين.

أما نصيب السيدة لورين من إرث أوفري فضاع معظمه واختزل إلى ثمانية آلاف فرنك، ومات النقيب لورين في ميدان القتال في مونترو[1]، تاركاً أرملته في الحادية والعشرين من العمر، وفي حضنها طفلة بعمر أربعة عشر شهراً، وما من ثروة إلا تقاعدها كزوجة ضابط شهيد، وماسينالها من إرث والدي زوجها السيد

(١) مونترو: معركة انتصر فيها نابوليون على الحلفاء بتاريخ ١٧ شباط ١٨١٤.

والسيدة لورين التاجرين في بنهويل القصبة الفاندية الواقعة في المنطقة المسماة السبخة النانتية. كان أهل الضابط لورين المتوفي، جداً بييريت لورين، يتاجران بخشب البناء، والأردواز، والقرميد، والآجر، والأنابيب، إلخ... وكانت تجارتهما، سواء عن عجز، أو عن حظ عاثر غير ناجحة، ولاتقدم لهما إلا مايساعد على العيش، وسبب إفلاس مصرف كولينه في نانت نتيجة أحداث ١٨١٤ التي أعقبها انخفاض مفاجئ في واردات المستعمرات، ضياع أربعة وعشرين ألف فرنك أودعاها في ذلك المصرف. وهكذا فقد استقبلا كنتهما الأرملة بالترحاب، إذ أنها أتت ومعها معاش تقاعدي بثمانمئة فرنك وهو مبلغ كبير في بنهويل، كما حصلت على الثمانية آلاف فرنك التي أرسلتها أختها السيدة روغرن بعد إجراءات معقدة نتيجة البعد، فسلمتها إلى آل لورين بعد أن رهنا لها بيتاً صغيراً يملكانه في نانت وهو مؤجر بمئة إكو سنوياً ولايساوي أكثر من عشرة آلاف فرنك.

توفيت السيدة لورين بعد ثلاث سنوات من زواج أمها الثاني المشؤوم وبعدها بقليل في العام ١٨١٩، فابنة أوفري العجوز وزوجته الشابة كانت هزيلة، صغيرة، ضعيفة البنية: ولم يلائم هواء السبخة النانتية صحتها. وأقنعها أهل زوجها من أجل الاحتفاظ بها أنها لن تجد في مكان آخر في العالم موقعاً أكبر إراحة وملائمة للصحة من سبخة نانت، بدلالة مآثر شاريت[١] فيها. ودللت جيداً واعتني بها، ولوطفت، بحيث اعتبرت هذه الميتة شرفاً كبيراً لآل لورين، بينما زعم بعض الناس أن بريغو، الثائر الفاندي السابق أحد هؤلاء الرجال الحديديين الذين خدموا تحت أمرة شاريت ومرسيه والمركيز دي مونتوران والبارون دوغنيك في الحروب ضد الجمهورية[٢]. كان السبب الرئيس في اقتناع الأرملة الشابة السيدة لورين في البقاء، فإن كان الأمر

(١) شاريت (فرانسوا): «١٧٦٣-١٧٩٦» زعيم ڤاندي، ولد في كوفه، قبض عليه الجنرال هوش المكلف من قبل حكومة الجمهورية الأولى بقمع ثورة الملكيين في ڤانده. وأعدمه رمياً بالرصاص في مدينة نانت.

(٢) بيير مرسيه (١٧٧٤-١٨٠٠) الملقب بڤاندي ساعد جورج كادودال في تنظيم ثورة الملكيين، وقبض عليه في العام ١٨٩٤ وسجن في برست، لكنه تمكن من الهرب. إنما قتل بعد ذلك في كمين قرب لودياك أما مونتوران (انظر رواية الثائرين الملكيين) ودوغينيك (انظر خاصة بياتريس) فهما من الشخصيات الخيالية البلزاكية، وفقاً لطريقة بلزاك المحببة في مزج الحقيقة بالخيال.

كذلك. فهو دليل على نفس متفانية في الحب والتضحية؛ والواقع أن كل سكان بنهويل كانوا يرون بريغو، الملقب باحترام الماجور، وهي رتبة حصل عليها في جيش ثوار فانده، يقضي أيامه وأمسياته في صالة أرملة النقيب الامبراطوري؛ مما دفع في الفترة الأخيرة كاهن بنهويل أن يتخذ زمام المبادرة لإقناع حماة الأرملة الشابة بتزويج كنتها لبريغو مع وعد بالحصول له بفضل حماية الفيكونت دي كرجاروه[1] على منصب قاضي صلح بنهويل؛ لكن موت المرأة الشابة جعلت هذا الاقتراح لاغياً.

. بقيت بييريت، بعد موت أمها، لدى جديها المدينين لها بريع سنوي قدره أربعمئة فرنك اعتبراه بالطبع نفقات إعالتها. فهذان العجوزان غير المؤهلين للتجارة، كان لهما منافس نشيط وماهر، يوجهان إليه الشتائم دون محاولة الدفاع عن مصالحهما، خاصة بعد أن توفي الماجور مستشارهما وصديقهما، بعد ستةأشهر من وفاة صديقته، ربما من حزنه عليها، وربما من جراحه: إذ أنه كان مصاباً بسبعة وعشرين منها.

أراد الجار السيء، كتاجر بارع، تدمير منافسيه، ليخنق كل مزاحمة له، فأقرضهما المال لقاء توقيع سندات، مقدراً أنهما لن يتمكنا من السداد، وأجبرهما في أواخر أيامهما على إعلان إفلاسهما؛ وألغي رهن بييريت برهن شرعي لجدتها التي تمسكت بحقوقها لتحتفظ بلقمة العيش لزوجها، وبيع مسكن نانت بتسعة آلاف وخمسمئة فرنك، وترتب عليه ألف وخمسمئة فرنك نفقات، وعادت الثمانية آلاف فرنك الباقية للسيدة لورين العجوز التي وضعتها مجدداً برهن يمكّن العجوزين من العيش في نانت في ديرمترهبات مماثل لسان برين[2] في باريس،

(١) الفيكونت دي كرجاروّه: هو ابن أخ الأميرال دي كرجاروّه، وتزوج جاكلين دي بنهويل ولم يرزق إلا البنات وهو كالبارون دي غينيك من شخصيات بلزاك الخيالية وقد ظهر في رواية بياتريس.

(٢) دير أنشئ في العام ١٨٠١ في شارع شايو لاستقبال العجزة وحوّل في العام ١٨٠٦ إلى ملجأ يتبع مدينة باريس، والمترهبات رهبنة نشأت في هولندة ومنها انتقلت إلى فرنسة وهن يهدفن إلى مساعدة المرضى والعاجزين دون أن يقسمن يمين الترهب لمدى الحياة وقد أطلق عليهم أحياناً اسم أخوات الإحسان، وأحياناً الأخوات الرماديات.

واسمه سان جاك حيث يؤمن المأكل والإقامة لهذين العجوزين بسعر رمزي. وأمام استحالة احتفاظهما بحفيدتهما المفلسة تذكر العجوزان الخالة روغرون وزوجها فكتبا لهما، لكن الموت كان قد حل بدوره بالعجوزين روغرون في بروڤنس. وكان مقدراً لرسالة آل لورين لآل روغرون أن تضيع. لكن إن كان هنا على الأرض مايمكن أن يحل محل القدر فهو بريد الرسائل؟!. فنباهة البريد تفوق بكثير النباهة العامة رغم أنها لاتغلّ الكثير، وهي تتجاوز في الابتكار نباهة أمهر الروائيين؛ فعندما يمتلك البريد رسالة يتراوح ريعها بالنسبة له بين ثلاثة إلى عشرة دراهم، دون أن يجد مباشرة المرسل إليه. فإنه يبدي اهتماماً مالياً لامثيل له إلا لدى الدائنين الأكثر عناداً؛ ويروح ويجيء وينقب في المقاطعات الفرنسية الست والثمانين، وتستثير الصعوبات عبقرية المستخدمين وهم غالباً من رجال الأدب، فيندفعون في البحث عن المجهول بحماس الرياضيين في مكتب قياس درجات الطول؛ ويفتشون كل أنحاء المملكة، وعند أيّة بارقة أمل تتحرك مكاتب باريس. وغالباً ما تنتابكم الدهشة عند النظر إلى الخربشة المخططة على وجه وقفا الرسالة، وهي شهادة مشرّفة على المثابرة الإدارية التي التزم بها البريد. ولو أن شخصاً كلف نفسه بما أداه البريد لأنفق في السفر والوقت والتكاليف مايعادل عشرة آلاف فرنك ليتلقى اثني عشر درهماً. فالبريد يتميز قطعاً بذكاء يفوق ماتحمله رسائله. ورسالة لورين الموجهة إلى روغرون بروفنس، المتوفي منذ نحو سنة أرسلت بالبريد إلى روغرون الابن، العقاد، في باريس ـ شارع سان دنيس. في هذا تتجلى نباهة البريد، فالوارث يخالجه دائماً الشك في جمعه لكامل ميراثه، ويخشى إن كان قد نسي بعض المدينين أو بعض الأسمال، ومالية الدولة تخمن كل شيء حتى السجايا، فرسالة موجهة إلى العجوز روغرون المتوفي في بروفنس، ستثير فضول روغرون الابن في باريس، أو أخته الآنسة روغُرون، وهما الوريثان، وهكذا ستحصل المالية على الستين سنتيم أجرة الرسالة في تنقلها[1].

غدا آل روغرون، وهم من مد إليهم العجوز لورين وزوجته يد الرجاء في

---

(١) كانت أجرة الرسالة قبل ابتكار الطوابع تسدد من قبل المرسل إليه.

قنوطهما وعجزهما عن إعالة حفيدتهما، المتحكمين بمصير بييريت لورين، وبالتالي فمن الضروري أن نشرح سوابقهم وسلوكهم.

كان الاب روغرون، هذا الفندقي الذي تزوج ابنة العجوز أوفري الأولى رجلاً ذا وجه ملتهب، وأنف مورد، ووجنتين ترك عليهما باخوس تدرناته المحمرة المتبرعمة ورغم سمنته، وقصره، وتكرشه، وساقيه الثخينتين، ويديه السميكتين، فقد وهب خفة فندقيي سويسرة الشبيه بهم. ووجهه أشبه بجذع كرمة مجدورة؛ وهو بالتأكيد لايوصف بالوسامة، لكن زوجته لم تكن أجمل منه، ومامن زوجين كانا أكثر توافقاً. وكان روغرون نهماً مغرماً بأن تخدم مائدته الفتيات الجميلات؛ وهو ينتمي إلى فئة الأنانيين ذوي التصرف الخشن، الذين يتعاطون المعاصي ويرتكبونها دون استحياء؛ وكان طماعاً نفعياً، قليل اللياقة، همه السعي إلى نزواته، فالتهم أرباحه حتى اليوم الذي لم تعد له فيه أسنان قادرة على النهش؛ لكن جشعه استمر، وفي أيام شيخوخته باع فندقه، وجمع كما رأينا كل ميرات حميّه، وانسحب إلى المنزل الصغير على الساحة الذي اشتراه بثمن قطعة خبز من أرملة الأب أوفري، جدة بييريت. وكان روغران وزوجته يمتلكان مايدر عليهما دخل ألفي فرنك سنوياً تقريباً، ترد من تأجير سبع وعشرين قطعةأرض حول بروفنس؛ وفوائد عن الفندق المباع بعشرين ألف فرنك، وسكن الفندقيان العجوزان في بيت أوفري، رغم حالته السيئة جداً، وحرصا على ألا يلمساه، كأنه الطاعون؛ فالجرذان العتيقة تحبّ الشقوق والخراب، واستهوت البستنةالفندقي الكهل، فاستغل مدخراته في توسيع الحديقة ومدها حتى ضفة النهر، وجعل منها بستاناً متطاولاً منحصراً بين سورين، ومنتهياً بتحصيبة ذات طبيعة مائيةنشرت غنى نباتاتها كيفما اتفق.

كان آل روغرون قد رزقا ولدين، صبياً وبنتاً، الفارق بينهما سنتان، وككل شيء ينتكس كان الولدان أبشع من ذويهما، ووضعا في الريف لدى مرضعة بسعر بخس، فعاد هذان التعسان بعد نشأة رهيبة في القرية، علا فيها صراخهما غالباً خلف ثدي مرضع تقضي معظم وقتها في الحقول بعد أن تحبسهما في إحدى هذه

الغرف العاتمة الرطبة المنخفضة المستخدمة سكناً للفلاح الفرنسي[١]. على هذا المنوال كبرت قسمات هذين الولدين، وتشوه صوتهما، وخاب بهما اعتزاز الأم، فجربت أن تقوم عاداتهما السيئة بقسوة بدت إلى جانبها فظاظة الأب رقة. وتركا يطوفان في أفناء وزرائب وملحقات الفندق، أو يهرولان في المدينة، وكانا يجلدان أحياناً، ويرسلان إحياناً أخرى إلى جدهما أوفري الذي لايكن لهما كثيراً من الحب. وهذا الجور كان أحد الأسباب التي شجعت آل روغرون على اغتصاب القسم الأعظم من ميراث هذا العجوز الآثم. غير أن الأب روغرون وضع ابنه في المدرسة، واشترى له رجلاً، هو أحد حوذيي عربته قام بالخدمة العسكرية عنه، وما أن بلغت ابنته سيلڤي الثالثة عشر حتى وجهها إلى باريس بصفة متدربة في إحدى البيوت التجارية، وبعد سنتين وجه ابنه جيروم ـ دنيس في ذات الطريق. وعندما كان أصدقاؤه، أو عملاؤه من أصحاب العربة، أو عشراؤه يسألونه عما يهيئه من مستقبل لولديه، كان الأب روغرون يشرح لهم منهجه باختصار يتميز عما يقوله معظم الاباء بما فيه من صراحة بينة.

كان يجيب وهو يشرب كأسه، أو يمسح شفتيه بظاهر يده بعد شربه: «عندما يبلغان العمر الذي يفهمانني به، سأوجه إليهما ركلة بقدمي، أتعلمون أين؟ وأنا أقول لهما: اذهبا واسعيا لرزقكما» ثم ينظر إلى مستمعه وهو يغمز بعينيه ماكراً ويضيف: «هيه! هيه! إنهما لن يكونا أكثر حمقاً مني، وقد وجه لي والدي ثلاث ركلات، ولن أوجه لهما إلا واحدة، ووضع في يدي لويسيّة ذهبية واحدة، وسأضع في يد كل منها عشر لويسيات، فهما إذاً أسعد حظاًمني. هوذا الأسلوب الصحيح، وبَعْد، إن بقي شيء بعد وفاتي، فهو لهما، وسيتمكن كاتبو العدل من تصفيته لهما. أليس من المستغرب أن ينزعج الآباء من أجل أبنائهم؟ . . . إن ولديّ مدينان بالحياة لي، وقد قمت بتغذيتهما، وأنا لا أطالبهما بشيء، رغم أنهما مدينان

---

(١) لم يعط بلزاك أبداً صورة فرحة عن الفلاحين الفرنسيين، وقد وجه إليهم نقداً عنيفاً في روايته: الفلاحين.

لي، أليس كذلك. أيها الجار؟ بدأت حياتي حوذياً، ولم يحل هذا دون زواجي بابنة الأب أوفري، هذا العجوز الأثيم».

أرسلت سيلفي روغرون للتدرب لدى عائلة أحد التجار المولودين في بروفنس لقاء دفع مئة إكو سنوياً كتعويض عن إعالتها. وبعدسنتين، كانت خدماتها تقابل هذه الإعالة، فلم يعد أهلها يدفعون شيئاً لقاء سكنها وإطعامها، وهذا مايسمى بالخدمة بالمقابل في شارع سان دنيس. وبعد سنتين أرسلت لها خلالهما أمها مئة فرنك لنفقاتها النثرية، غدت سيلفي تكسب مئة إكو سنوياً، وهكذا تمتعت الآنسة روغرون منذ سن التاسعة عشر باستقلالها وفي العشرين من عمرها كانت الآنسة الثانية في متجر جوليار تاجر لفّات الحرير في ڤير ـ شينوا، شارع سان دنيس. وكانت سيرة أخيها مماثلة لسيرتها فجيروم ـ دنيس روغرون دخل كصانع لدى أحد أقوى تجار كلف الخياطةفي شارع سان دنيس، بيت غيبن في تروا ـ كنوي، وإذا كانت سيلفي قد غدت في الحادية والعشرين من العمر الآنسةالأولى في متجر جوليار بأجر سنوي مقداره ألف فرنك، فقد كان أخوها جيروم دنيس أوفر حظاً إذ غدا المستخدم الأول لدى آل غيبن من البروفينين الآخرين الموجودين في باريس. وكان الأخ والأخت يجتمعان يوم الأحد، وأيام الأعياد. فيقضيان عطلتهما في تسليات اقتصادية، فيتناولان عشاءهما خارج باريس، أو يذهبان لرؤية سان كلو، وميدون، وبلڤيل، وڤينسين. وفي نهاية العام ١٨١٥ جمعاً مدخراتهما الموفرة بعرق الجبين، وكانت نحوعشرين ألف فرنك واشتريا من السيدة غينه دكان العائلة الشهير، وهو أحد أشهر متاجر المفرق لكلف الخياطة. وكانت الأخت تدير الصندوق والواجهة، والأعمال الكتابية، ويقوم الأخ بدور صاحب المحل والمستخدم الأول فيه. كما اعتبرت سيلفي لفترة من الوقت الآنسة الأولى فيه. وفي العام ١٨٢١، وبعد خمس سنوات من الإستثمار، غدت المنافسة شديدة في هذه التجارة بحيث وجد الأخوان صعوبة في المحافظة على شهرتهما وصيانة

رأسمالهما، وبالرغم من أن سيلفي روغران لم تكن إلا في الأربعين من العمر، فإن دمامتها، وعملها المتواصل، وسحنة تبدي فيهاأوضاع قسماتها والهموم تقطيباً عابساً يجعلها تشبه امرأة في الخمسين. أما جيروم دنيس روغرون فقد بدت عليه وهو في الثامنة والثلاثين من العمر سحنة لم تعرف زبائن متاجر العقارين أكثر حماقة منها: جبين مسطح، غائر من التعب، تقطعه ثلاث تجاعيد جافة، وشعره القليل الرمادي المقصوص قصيراً جداً يعبر عن الحيوانات ذات الدم البارد غير المحدودة؛ ونظرة عينيه الزرقاوين لاتظهر فكراً ولا ألقاً، ووجهه المستدير المستوي لايثير أي تعاطف، حتى ولا الابتسامة على شفاه أولئك المنصرفين لفحص المنوعات لدى الباريسيين، بل يبعث على الكآبة. أخيراً. إن كان كوالده، بديناً وقصيراً، فإن هيئته العارية من تكرش الفندقي تبدي في تفاصيلها انخماصاً يثير السخرية؛ وقد حلَّت محل تلون والده المفرط الدكنةالواهية الخاصة بالأشخاص الذين يعيشون في الأقسام الخلفية من المتاجر غير المتبدلة الهواء، وفي الحجيرات المشبكة خلف الصناديق، يطوون أو ينشرون على الدوام الأقمشة، ويدفعون أو يقبضون، ينكدون على مستخدميهم أو يكررون العبارات ذاتها على زبائنهم.

وماكان يتمتع به الأخ والأخت من ذكاء قليل استنفد كلياً برتابة تجارتهما، ومالهما وماعليهما، وبحفظ القوانين الخاصة بالساحة الباريسية وأعرافها. وبالخيوط والإبر، والأشرطةوالدبابيس والأزرار، ومستلزمات الخياطين، أخيراً طغت على ذاكرتهما الكميةالواسعة من الخرداوات التي تشكل هذا الصنف من التجارة، واستهلكت قدرتهما الرسائل التي يجب توجيهها أو الإجابة عليها، والفواتير، والجرد والمراجعة، فهما خارج عملهما لايعرفان شيئاً، وهما يجهلان حتى باريس، فباريس بالنسبة إليهما هي شيء مامنبسط حول شارع سان دنيس؛ ومزاجهما المحدود لايتعدى في أفقه متجرهما، فهما يعرفان ببراعة إرباك مستخدميهما وعاملاتهما والكشف عن أخطائهم، وسعادتهما تتجلى في أن يريا جميع الأيدي

تتحرك في الواجهات كقوائم النمل ترتب البضائع أو تفردها للزبائن؛ وعندما يسمعان سبعة أو ثمانية أصوات تصدر عن آنسات أو شباب يرددون العبارات الخاصة التي يجيب بها المستخدمون على ملاحظات المشترين، فاليوم طيب والطقس رائع! وعندما تزهو سماء باريس بزرقة لازوردية وينطلق الباريسيون في نزهات لايبالون فيها بما يرتدون، يردد المعلم الأحمق: «طقس سيء للمبيع!». والمعرفة الواسعة التي جعلت روغرون موضع إعجاب صنّاعه هي فنه في ربط وفك وإعادة ربط وتجهيز الرزم. فروغرون قادر على إعداد رزمة وهو ينظر مايحدث في الشارع، أو وهو يرقب مخزنه حتى أقصى زاوية فيه؛ ويكون قد رأى كل شيء عندما يقدم هذه الصرة المتقنة للزبونة وهو يقول: «هي ذي يا سيدتي، ألا يلزمك شيء آخر؟». لكن لولا أخته لحل الإفلاس بهذا القميء؛ فسيلڤي كانت تمتلك الحس السليم في المبيع وعبقريته، فهي توجه أخاها في مشترياته من المصانع وترسله دون شفقة إلى أقصى فرنسا إن اقتضى ربح فلس في إحدى تلك المواد. ولئن كان الدهاء الذي تمتلكه كل امرأة تقريباً يوظف لأغراض قلبها، فهو عند سيلڤي موظف للمضاربة. رأس مال يجب دفعه! هذه الفكرة هي المكبس الذي يسير هذه الماكنة ويمنحها نشاطاً هائلاً. أما جيروم روغرون فبقي مستخدماً أولاً، فهو لايلم بمجمل أعماله؛ فالمصلحة الشخصية، الحافز الأكبر للفكر لم تقدمه خطوة إلى الأمام. وكان يبقى غالباً منذهلاً عندما تأمر أخته ببيع سلعة بخسارة متوقعة انتهاء موضتها؛ لكنه ينظر بعد ذلك باعجاب أبله إلى أخته سيلڤي. لم يكن يستدل على الصحيح أو الخاطئ، فقد كان عاجزاً عن المحاكمة. لكن كانت له حجته في الخضوع لأخته، وهو يخضع لها لاعتبار خارج عن التجارة كان يقول: «إنها أختي البكر». ولعل حياة العزلة باستمرار، المقتصرة على إشباع الحاجات الضرورية، المجردةمن المال والمسرات في مرحلة الشباب، تفسر للفيزيولوجيين والمفكرين التعبير الفظ في هذا الوجه، وضعف التفكير، والموقف الأبله لهذا العقاد. وقد منعته أخته باستمرار من

الزواج خشية أن تفقد تأثيرها في البيت على الأرجح؛ ورؤيتها سبب تبذير وإفلاس في امرأة هي بالتأكيد أكثر شباباً ودون أدنى شك أقل دمامة منها. وللحماقة أسلوبان في التصرف: فهي إما أن تصمت أو أن تتكلم. والحماقة الصامتة يمكن تحملها. لكن حماقة روغرون كانت ناطقة؛ فتاجر المفرق تعود أن يؤنب مستخدميه، ويشرح لهم دقائق تجارة نصف الجملة في لوازم الخياطة، ويزخرفها بفكاهات تافهة تشكل **تفاصح** الدكاكين. لكن هذه الكلمة التي كانت تشكل سابقاًروح الرد السريع المفتقر للأصالة عزلت وحلت محلها الكلمة الجندوية **سماجة** وكان عالم الخدم الصغير ينصت لروغرون على مضض، مما دفع روغرون المنشرح من نفسه ليتشدق بعبارات خاصة به، فهذا الثرثار خال نفسه خطيباً. فالضرورة في شرح مايريد الزبائن، وسبر رغباتهم، وترغيبهم بأشياء لايريدونها، تطلق لسان بائع المفرق؛ وينتهي هذا التاجر الصغير إلى اكتساب القدرة على التلفظ بجمل لاتمثل الكلمات فيهاأي فكرة رغم ماتلاقيه من نجاح؛ فهو أخيراً يشرح للزبائن طرقاً قل أن يدروا بها ومن هنا يحس بشيء من التفوق المؤقت على زبائنه، لكن ما أن يخرج عن نطاق ألف شرح وشرح تتطلبهاألف سلعة وسلعة لديه، حتى يغدو بالنسبة للفكر كسمكة على حصير في الشمس. فروغرون وسيلفي، هذان الشخصان الآليان المتحركان بالتدليس، ليس فيهما لا أصلاًولا فعلاً، الأحاسيس التي تمنح القلب حياته الخاصة. وهكذا كانت هاتان الطبيعتان جافتين، غامضتين إلى حد بعيد، صلبهما العمل والحرمان، وذكرى آلامهما خلال تدرب طويل قاس. لم يكن أي منهما يحس بالتعاسة وهما غير شرسين، إنما لايلينان بالنسبة لضيق الناس أو ارتباكهم؛ فالفضيلة والشرف، والاستقامة، وجميع العواطف الإنسانية، بالنسبة إليهما، تقوم على تسديد استحقاقاتهما بانتظام. نكدان دون روح، وبشح منفر، وسمعة رهيبة في وسط شارع سان دنيس التجاري. ولولا علاقتهما ببروڤنس، حيث يذهبان ثلاث مرات في السنة في فترات يمكنهما بهاإغلاق متجرهما ليومين أو

ثلاثة، لنقص المستخدمون والعاملات في المتجر؛ لكن الأب روغرون كان يرسل لولديه جميع التعساء الذين يرغب ذووهم في تأهيلهم للأعمال التجارية، وهو يقوم بالنسبة إليهما كوسيط للمتدربين والمتدربات في بروفنس؛ حيث يتبجح بزهو بثروة ولديه. وكل من يجذبه الإغراء والرغبة في تدريب جيد ورقابة صارمة لابنه أو ابنته، ويراوده الأمل في أن يغدو ابنه يوماً كابن روغرون، يرسل الولد المزعج في البيت الأبوي، إلى هذا المتجر المدار من قبل هذين العازبين لكن ما أن يجد المتدرب أو المتدربة، بعد دفع المئة إكو، وسيلة لترك هذا السجن الشاق، حتى يهرب بسعادة تزيد من شهرة آل روغرون. لكن الفندقي الجلود كان يحظى لولديه دائماً بضحايا جديدة. ومنذسن الخامسة عشر تعودت سيلفي روغرون أن تتصنع في المبيع، وبذلك غدت ذات وجهين: وجه البائعة المتودد، والوجه الطبيعي للعوانس المتغضنات المسحوقات. سحنتهاالأولى المكتسبة كانت ذات إيمائية مدهشة: كل شيء فيها باسم، وصوتها الناعم المتملق يقطر عذوبةتجارية للزبائن. أما وجهها الحقيقي فهو الذي يظهر بين انفراج مغلقي نافذة فيدفع إلى الهرب، الأكثر حزماً من قوزاق ١٨١٥[١] رغم محبتهم لكل صنف من الفرنسيات.

عندما وصلت رسالة لورين كان الأخوان روغرون في حداد على والدهما، وقدر ورثا عنه البيت الذي يعتبر مسروقاً تقريباً من جدة بييريت، ثم قطع أراض تملكها الفندقي السابق؛ وبعض أموال وردت من قروض ربوية مضمونة برهونات على فلاحين، أَمِلَ السكير العجوز نزع ملكيتهم. وبانتهاء الجرد السنوي وتسديد مستحقات متجر «أخت العائلة» تبين أن الأخوين روغرون يمتلكان زهاء ستين ألف فرنك بضائع في المخزن، وأربعين ألف فرنك في الصندوق أو بين أيديهم، عدا عن قيمة المتجر ذاته.

كان الأخوان يتداولان حول رغباتهما، وهما يجلسان على مقعد من مخمل أو ترخت الأخضر المخطط بأشرطة موحدة، وهومثبت في فرجة مربعة خلف

---

(١) تلميح إلى احتلال فرنسة من قبل قوات الحلفاء عند هزيمة نابليون.

مبسط، يقابله مبسط آخر مماثل للآنسة الأولى في المتجر. إنهما يملكان الآن إن باعا المتجر مئةوخمسين ألف فرنك، دون الأخذبالحسبان الميراث الأبوي، وكل تاجر يتوق للبورجوازية. فإن وضعا رأس المال المتوفر لديهما في سندات الدين العام يحصل كل منهما على دخل سنوي يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف فرنك؛ حتى لو خصصا قيمة متجرهما الذي سيدفع لهما عيناً لترميم المنزل الأبوي، ويمكنهما إذاً أن يذهبا للعيش معاً في بروفنس في بيت خاص بهما. كانت الآنسة الأولى العاملة لديهما ابنة مزارع غني من دوغماري(١)، يعيل تسعة أولاد، ويسعى ليؤمن لكل منهم مركزاً مناسباً، إذ أن ثروته إن قسمت إلى تسعة أقسام لن تفيد أحداً منهم بشيء. لكن هذا المزارع فقد خلال خمس سنوات سبعاً من أولاده، فغدت هذه الآنسة الأولى كائناً يثير اهتمام روغرون الذي جرب التقرب إليها على أمل أن تغدو زوجته؛ إنما عبثاً فقدكانت تبدي لمعلمها نفوراً يفشل كل مناورة، كما أن الآنسة سيلفي لم تبد اهتماماً لهذا الأمر، فهي تعارض حتى زواج أخيها حالياً، وتريد تأجيله إلى مابعد استقرارهما في بروڤنس حيث تجد له فتاة ذات دهاء يجعلها أهلاً لميراثهما.

ما من أحد من المارة يمكن أن يفهم دوافع هذه الدكاكين المنطويةعلى ذاتها. كانوا ينظرون إليها ويتساءلون: علام هذا؟ ولماذا يعيشون؟ ما مصيرهم؟ من أين هم آتون؟ ويضيع المتسائل في متاهة شرح كل هذه الأمور، فلكي نكتشف البقية الباقية من شاعرية ماتزال في رؤوسهم لتبعث هذه الوجودات المنطويةعلى ذاتها، كان من الضروري أن نعمق فهمنا لشخصياتهم وعندها نعثر على الشطر الصلب الذي تقوم عليه حيواتهم، فصاحب الدكان الباريسي يداعبه أمل قد يكون قابلاً للتحقيق في زمن قريب أو بعيد، ودونه سيهلك بداهة: فهذا يحلم بأن يبني مسرحاً أو يتولى إدارته، وذاك يتطلع إلى شرف الحظوة بمنصب العمدة. أحدهم يفكر ببيت في الريف على بعد ثلاثة فراسخ من باريس، بيت يحيط به منتزه يقيم فيه تماثيل من جص ملون، أو ينشئ نوافير مياه يندفع دفقها كالسهم، أياً كانت المبالغ التي ينفقها

(١) هي دوغماري - آن - مونتوا، مركز منطقة بروفنس.

لهذا الغرض. وآخر يحلم بالقيادة العليا للحرس الوطني[١]. أما تاجر خرداوات الخياطة وأخته فكانت بروفنس، تلك الجنة الأرضية تثير فيهما ذلك التعصب الذي توحي به كل مدن فرنسة الجميلة لسكانها. ولنقل لمجد شامبانية: إن هذا الحب مشروع، . فبروفنس إحدى أجمل مدن فرنسا تنافس فرنجستان ووادي كشمير[٢]، فهي لاتحتوي فقط على أشعار سعدي، هوميروس الفرس[٣]، لكنها أيضاً تقدم أفضالاً صيدلانية للعلوم الطبية، فقد حمل الصليبيون ورود أريحا[٤] إلى ذلك الوادي اللطيف، حيث اكتسبت بالمصادفة مزايا جديدة دون أن تخسر ألوانها. فبروفنس ليست فقط بلاد فارس الفرنسية، إنما هي أيضاً بادن، وإكس، وباث [٥] فهي تحتوي على مياه معدنية! وهو ذا المنظر المرئي سنةبعدسنة، والذي كان يظهر بين وقت وآخر للعقادين على بلاط شارع سان دنيس الموحل.

بعد اجتياز السهول الرمادية الموجودة بين فرتة ـ غوشه وبروفنس، وهي صحراء، حقيقية، لكنها منتجة، صحراء قمح، تصلون إلى هضبة. وفجأة ترون عند إقدامكم مدينة يسقيها نهران: في أسفل الشير الصخري يمتد واد أخضر ممتلئ بالخطوط النضرة، بآفاق متباعدة، فإن كنتم وافدين من جهة باريس فستأخذون بروفنس بالاتجاه الطولي وسيكون أمامكم ذلك الطريق الخالد، طريق فرنسة المار من أسفل السفح وهو يقطعه وقد وُهِب أعماه، وشحاذوه الذين يرافقونكم بأصواتهم المثيرة

---

(١) سخرية من بلزاك، فنزاعه مع الحرس الوطني معروف، وفي ٢٤كانون ثاني ١٨٣٩ سجن في سيقر لتخلفه عن الحرس الوطني.

(٢) فرنجستان، هي بلاد الفرنجة، أي أوروبة الغربية، بالنسبة للشرقيين، ولاشك أن الأمر التبس على بلزاك فاعتبرها لوقع الاسم، إحدى المقاطعات الشرقيةأو منطقةفي بلاد فارس، ووادي كشمير اشتهر بجمال طبيعته ولطف مناخه وانتاجه للورود والأزاهير.

(٣) سعدي: (شرف الدين) (١١٨٤-١٢٩٣) شاعر فارسي، ولد في شيراز. له ديوان «البستان» أو «حدائق الورود»

(٤) وفقاً لأسطورة شائعة، فإن كونت شامبانية تيبو الرابع جلب من فلسطين «وردة أريحا» إلى بروفنس وتأقلمت هذه الوردة في بلاد «بري» حيث أطلق عليها وردة فرنسة أو وردة بروفنس.

(٥) بادن، مدينة في ألمانيا، و(إكس لي ـ بان): مدينة في السافوا في فرنسة، وباث: مدينة في انكلترا والمدن الثلاث تشتهر بمياهها المعدنيةالتي تقصد للاستشفاء.

للشفقة عندما تفكرون بتأمل هذا المنظر الساحر غير المتوقع لتلك البلاد. أما إذا كنتم وافدين من تروا فستدخلون منطقة مسطحة، وسيبدو لكم القصر والمدينة القديمة وأسوارها العتيقة متدرجة على الهضبة، بينما تمتد المدينة الجديدة في الأسفل منحدرة بمظاهر جميلة، تحيط بها طرقات محفرة ومخددة، تحف بها أشجار الجوز التي تخرق بأثلامها حرف الهضبة الحاد؛ مدينة صامتة، شديدة النظافة، فخمة المظهر، تهيمن عليها بقايا القصر المهيبة. ثم مدينة ذات طواحين يسقيها القولزي والدورتن، نهرا منطقة بري الصغيران والبطيئان والعميقان، وهي مدينة ذات فنادق، وتجارة، يسكنها بورجوازيون متقاعدون، وتدرج فيها العربات الكبيرة والصغيرة ومختلف وسائل النقل. وهاتان المدينتان أو هذه المدينة بذكرياتها التاريخية، وكآبة أطلالها، وبهجة واديها، وعذوبة مسيلاتها المليئة بالأسيجة المفعمة بالأزهار، ونهرهاالمجزأ بالحدائق، تثير ولَهَ أبنائها، فيتصرفون كما يتصرف أهل أوفرني والسافوا وفرنسا عامة: إن خرجوا من بروڤنس سعياً وراء الثروة، فإنهم يعودون إليها دائماً فالمثل القائل: «الموت في الوطن مبدأ الأرانب والأوفياء» هو شعار أهل بروڤنس أيضاً. وهكذا فجيروم روغرون وأخته لايفكران إلا ببروفنس مدينتهم العزيزة! فالأخ وهو يبيع الخيوط تتراءى له المدينة العليا، وهو يرتب الأوراق المليئة بالأزرار يتأمل الوادي، وهو يلف أو يكر أشرطة مشاقات الحرير يتتبع مجرى النهر اللماع الصقيل، وهو يتأمل خزن أدراجه يخيل إليه أنه يصعد الدروب الوعرة، حيث كان يهرب سابقاً من غضب أبيه إلى حيث يتسنى له أكل الجوز، وقطاف توت العليق. وكانت ساحة بروفنس الصغيرة تشغل دائماً تفكيره: يجول في خاطره تجميل منزله، ويحلم بالواجهة التي يريد إعادة بنائها، وبالغرف، والصالة، وقاعة البليار، وقاعة الطعام، وبستان الخضرة الذي يرغب بتحويله إلى حديقة انكليزية، بفسحاتها المعشوشبة، ومغائرها، ونوافير مائها، وتماثيلها إلخ...
كانت الغرفتان اللتان ينام فيهما الأخ والأخت في الطابق الثاني من البيت ذي الطوابق الستة والنوافذالثلاثة، المتميز بلونه الأصفر وعلوه، كأكثر بيوت شارع سان دنيس، لاتحويان من الأثاث إلا الضروري جدا. لكن ما من إنسان في باريس يحلم بأثاث مترف وثير كهذا العقّاد. فعند ذهابه إلى المدينة، كان يقف بذهول كالحشاش

ينظر إلى الأثاث الجميل المعروض، ويتأمل السجف التي يريد أن يملأ بها بيته. وعند العودة يقول لأخته: «رأيت في المتجر الفلاني، قطعة الأثاث الفلانية الملائمة لصالتنا». وفي اليوم التالي يفكر بشراء شيء آخر؛ وهكذا على الدوام! والشهر الحالي يطفح بأثاث الشهر السابق، وميزانيته تكاد لاتسدد التعديلات الهندسية: إنه يريد كل شيء، ويفضل دائماً آخر الابتكارات. وعندما يتأمل شرفات البيوت المبنيةحديثاً، ويدرس المحاولات المتهيبة في الزخرفة الخارجية، كان يجد بروزات الزينةوالنحت والرسوم غير مناسبة ويقول في نفسه «آه! هذه الأشياء الجميلة تناسب بروفنس أكثر من هذا المكان!»، وعندما كان يجلس بعد الغداء، على عتبة بابه، ليهضم وجبته مستنداً إلى واجهة متجره والعين ذاهلة، فإنه كان يسرح بعين الخيال إلى البيت الخيالي المذهب بشمس أحلامه، يتنزه في حديقته، ويستمع إلى نوافير مياهه وهي تلقي دررها اللماعة على مائدة مستديرة من المرمر. ويلعب على مائدة البليار، ويزرع الأزهار!

أما أخته، والريشة في يدها، فإن فكرت ناسية المستخدمين وتوبيخهم، فإنها تتخيل نفسها في استقبال بورجوازيي بروفنس، أو وهي تتأمَّل نفسها متزينة بقبعات رائعة في مرايا صالتها.

هكذا بدأ الأخوان يجدان جو شارع سان دنيس ملوَّثاً، ورائحةوحل الهال ترغبهم بعطر ورود بروفنس. كان يخالجهما في آن واحد توق، وهوس تعاكسهما ضرورة بيع آخر بقايا خيوطهماوبكراتها الحريرية، وأزرارهما؛ فأرض وادي بروفنس الموعودة تجذب مواطنيها بقدر آلامهم الطويلة، واجتيازهم بعناء الصحاري الرملية في بيع خردوات الخياطة.

وصلت رسالة لورين وسط تأملات يوحيها هذا المستقبل الزاهر؛ والعقادان يكادان لايعرفان شيئاً عن نسيبتهما بييريت لورين. وقضية ميراث أوفري المعالج منذ مدة طويلة من قبل الفندقي العجوز، تم خلال استقرارهما في باريس، والأب روغرون لم يكن يتحدث إلا نادراً عن رأسماله. والأخ والأخت، وقد أرسلا باكراً

إلى باريس، يكادان لايتذكران خالتهما لورين ولزمتهما ساعة من المناقشات المتعلقة بالأنساب ليستعيدا ذكرى خالتهما ابنة جدّهما أوفري من زوجته الثانية، والأخت غير الشقيقة لأمهما، وعرفا في السيدة نيرو المتوفاة حزناً والدة للسيدة لورين، وحكما عند ذاك على أن الزواج الثاني لجدهما كان بالنسبة لهما شيئاً مشؤوماً، إذ أن نتيجته كانت انقسام إرث أوفري بين الزوجتين أضف إلى أنهما كانا قد سمعا بعض الاتهامات من والدهما الفندقي الساخر دائماً. وفحص العقادان رسالة لورين عبر هذه الذكريات غير الملائمة كثيراً لقضية بييريت. أن يتكفلا بيتيمة، فتاة نسيبة لهما، ستكون رغم كل شيء وريثتهما إن لم يتزوج أي منهما، هذا موضوع يستحق المناقشة. ودرست القضية من جميع وجوهها، فهما لم يريا أبداً بييريت، ثم إن في رعاية فتاة شابة بعض المضايقة لهما. ألا يشكل هذا التزاماً بها من قبلهما؟ وسيتعذر عليهما طردها إن لم تلائمهما. أخيراً ألا يجب تزويجها؟ وإن وجد روغرون حذاء على قياس قدمه من بين وارثات بروفنس، أليس من الأفضل أن يحتفظ بكامل ثروتهما لأولاده؟ وبالنسبة لسيلڤي، فالحذاء الملائم لقدم أخيها هو فتاة غبية، وغنية، ودميمة، تخضع لإرادتها. وقرر التاجران الرفض؛ وتكلفت سيلڤي بالجواب: لكن مجرى الأحداث كان على قدر من الأهمية بحيث أخر هذه الرسالة التي لم تبد لهما عاجلة، والتي لم تعد تفكر بها العانس. منذ أن بدأت الآنسة الأولى لديهما تفاوض على شراء متجر **أخت العائلة**.

انتقلت سيلڤي روغرون وأخوها إلى بروفنس قبل أربع سنوات من اليوم الذي جاء فيه ريغو ليدبَّ في حياة بييريت كل هذا الاهتمام. لكن أعمال هذين الشخصين في المقاطعة تتطلب تسليط النور عليها بمثل الضرورة التي اقتضتها حياتهما في باريس. ذلك أن بروفنس لن تكون أقل شؤماً على بييريت من السوابق التجارية لأنسبائها.

عندما يعود التاجر الصغير، الوافد من المقاطعات، من باريس إلى مقاطعته فإنه يحمل إليها دائماً بعض الأفكار، ثم يفقدها من جراء الحياة في المقاطعة التي ينخرط فيها، حيث تتلاشى طيوف التجديد. من هنا، هذه التغيرات الصغيرة

البطيئة المتتابعة التي تنتهي بها باريس إلى خدش بسيط سطحي في حياة مدن المقاطعات، وهو يتجلى في تحول صاحب الدكان السابق إلى ريفي معزز. هذا التحول يشكل مرضاً حقيقياً. ما من تاجر مفرق ينتقل طوعاً من ثرثرته المتواصلة إلى التزام الصمت، ومن نشاطه الباريسي إلى خموله الريفي. وعندما يكون هؤلاء الأشخاص الشجعان قد جمعوا بعض الثروة، فإنهم ينفقون قسماً منها على أهوائهم الكامنة منذ زمن بعيد، ويصبون فيها أواخر المتأرجحات من حركة لاتعرف التوقف إرادياً. وأولئك الذين لم تستهوهم فكرة مسيطرة يسافرون، أو ينخرطون في المشاغل السياسية المحلية، وبعضهم يتلهى بالصيد البري أو المائي، أو بإزعاج مزارعيه أو مستأجريه. وآخرون يغدون مرابين كالأب روغرون، أو مساهمين كالعديد من المجهولين. أما موضوع سيلفي وجيروم، فأنتم تعرفونه، فهما يريدان إشباع نزوتهما الملكية في تحريك المسجّة[1]، وترميم بيتهما الظريف. هذه الفكرة الثابتة منحت ساحة بروفنس السفلى الواجهة التي سبق أن تأملها بريغو، والتوزيعات الداخلية في ذلك المنزل، وأثاثه الفخم. وكان المتعهد لايدق مسماراً دون أن يستشير روغرون وأخته، بل ويأخذتوقيعهما على المخططات والتصاميم، ويشرح لهما مطولاً وبالتفصيل طبيعة الغرض موضوع المناقشة، ومكان صنعه، وأسعاره المختلفة. أما الأشياء الهامة والخارجة عن المألوف فمما سبق استخدامه لدى السيد تيفين، أو لدى السيدة جوليار الشابة، أو لدى العمدة السيد غارسلان، فالشبه مع ماتم لدى أحد أغنياء البورجوازيين في بروفنس، ينهي المناقشة دائماًلمصلحة المتعهد.

كانت الآنسة سيلفي روغرون تقول: «مادام السيد غارسلان قد صنع مثل هذا الشيء، فاصنعه؛ إذ يجب أن يكون ملائماً، فهو صاحب ذوق جيد.

وينادي جيروم: سيلفي، إنه يقترح علينا زخارف بيضية في إفريز الممر. مارأيك؟

---

(١) المسجّة: خشبة أو قطعةحديدية مسطحةذات قبضةتطين بها الجدران (المترجم).

ـ أتسمي هذا زخارف بيضية؟

ويجيب المتعهد : نعم يا آنسة .

ـ ولماذا؟ يا للاسم الغريب! لم أسمع به من قبل

ـ ولكن رأيتما مثله؟! .

ـ نعم

ـ هل تعرفان اللاتينية؟

ـ كلا .

ـ وبعد، هذا يعني زخارف بشكل بيوض، إنها بيوض مرصوفة .

ويهتف روغرون : كم أنتم غريبون أيها المهندسون المعماريون، لهذا السبب دون شك، لاتتركون قشور بيوضكم؟

ويستأنف المتعهد : ألا ندهن الممر؟

ـ وتصيح سيلفي : يقيناً لا ، هذا يرتب خمسمئة فرنك إضافية؟

ـ أوه! إن الصالة والدرج جميلان جداً بحيث يجب دهان الممر وزخرفته . ويتوقف المتعهد لحظة ثم يستأنف : «وقد فعلت ذلك السيدة الشابة لسور العام الفائت»

ـ ولكن زوجها وكيل النيابة العامة يمكن أن ينتقل من بروفنس

ـ ويجيب المتعهد : أوه! سيغدو يوماً رئيس المحكمة .

ـ وبعد، ماذا سيكون مصير السيد تيفين إذاً؟

ـ السيد تيفين! إن له امرأة جميلة، ولن ينزعج، سينتقل إلى باريس .

وتسأل سيلفي أخاها : هل ندهن الممر؟

ويجيب جيروم روغرون : نعم، سيشاهد آل لسور على الأقل أننا لانقل شأناً عنهم .

كان الأخوان روغرون في السنة الأولى من استقرارهم في بروفنس منشغلين كلياً بهذه المداولات، وبالمتعة في رؤية عمل العمال، ومايتطلب ذلك من استفهامات وتقصيات من جميع الأصناف وما يعقبه من مدهشات؛ ثم بمحاولاتهما عقد صلات مع العائلات الرئيسة في بروفنس. لم يكن هذان الأخوان قد خبرا الدنيا، إذ لم يخرجا من متجرهما، ولم يكونا يعرفان أحداً في با ريس، وهما متعطشان إلى الاستمتاع بمسرات المجتمع، وعند عودتهما التقى المهاجران أولاً بالسيد والسيدة جوليار أصحاب فيرشينوا وأولادهما وأحفادهما، ثم عائلة غيبن، أو على الأصح شلة غيبن التي مايزال حفيدها يدير متجر تروا ـ كينوا في باريس، وأخيراً السيدة غينه وهي التي باعتهما متجر أخت العائلة وقد تزوجت بناتها الثلاثة في بروفنس.

هذه العائلات الثلاثة: آل جوليار، وآل غيبن، وآل غينه انتشروا في المدينة كما النجيل في مرجة خضراء. فالعمدة السيد غارسلان هو صهر السيد غيبن؛ والكاهن الأب بيرو هو أخ السيدة جوليار فهي ابنة بيرو، ورئيس المحكمة السيد تيفين هو أخ السيدة غينه، وهي ابنة تيفين.

كانت ملكة المدينة السيدة تيفين الشابة الفاتنة. الابنة الوحيدة للسيدة روغن[1] الزوجة الغنية لأحد موثقي باريس السابقين[2]؛ الذي لم يعدالناس يتحدثون عنه؛ وكانت الشابة مرهفة الإحساس، وجميلة، ومرحة خفيفة الظل، وزوجتها أمها في بروڤنس لأنها لاتريدها إلى جانبها، وسحبتها من مدرستها الداخلية قبل زواجها ببضعة أيام فقط، وكانت ملاني روغن تعتبر نفسها في بروفنس كأنها في منفى، وتتصرف فيها بما يكسبها احترام الجميع، ومنحها ذووها دوطة كبيرة عدا عما سينالهامن نصيب محترم من الميراث.

---

(١) في الأساس جعل بلزاك من السيدة تيفين ابنة المحامي المرخص درڤيل، لكن هذا الرجل المتزوج في العام ١٨٢٠ لايمكن أن يصبح جداً في ١٨٢٥ . ، «ملكة هذه المدينة» لاتظهر فقط في بييريت، فقد جعلها بلزاك وهي آنسة تعمل لدى الرسام سرڤن، وكانت الفترة الهامة من حياتها تعبيرها عن آراء كثيرة التحرر، وكانت وسيطةوحي الجمهوريين الذين يخالطون محترف الفنان، أستاذ الرسم، في قصة الثأر (انظر القصة رقم ٤ من منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٢).

(٢) الموثق روغن (انظر رواية سيزار بيروتو) أفلس في العام ١٨٤٩ افلاساً احتيالياً مما أحدث ضجة في الوسط التجاري في باريس، وقد ذكر مراراً في الملهاة الإنسانية (عدا عن **بييريت** يظهر في ربة **وحي المقاطعةوالبورجوازيين الصغار**).

أما السيد تيفين العجوز فقد قدم لابنته البكر السيدة غينه مقدم إرث معتبر، كما منح ابنه رئيس المحكمة أرضاً ذات دخل سنوي يقدر بثمانية آلاف فرنك، وهي على بعد خمسة فراسخ من بروفنس. وهكذا فدخل تيفين رئيس المحكمة يصل إلى عشرين ألف فرنك عدا عن المنزل وراتب المنصب، كما أن من المنتظر أن يناله عشرون ألف فرنك أخرى من الميراث. وهكذا فآل تيفين - كما يقال - ليسوا تعساء أبداً. والمسألة الكبرى الوحيدة أمام السيدةتيفين الفاتنة هي أن توصل زوجها إلى النيابة، ويغدو النائب قاضياً في باريس، ووعدت نفسهاأن تنقله من المحكمة إلى البلاط الملكي سريعاً. وهكذا فقد كانت تساير كل الحساسيات، وتجهد في أن ترضي الجميع؛ وقد نجحت في التغلب على كل صعب؛ فهي تستقبل مرتين في الأسبوع كل بورجوازيي بروفنس في بيتها الجميل أعلى المدينة. ولم تبدر منها، وهي الشابة في الثانية والعشرين من عمرها أي هفوة على هذا المنزلق الذي وضعت نفسها فيه، ترضي جميع المشاعر، وتحترم جميع الأفكار؛ رصينة مع أهل الرصانة، وشابة مع الشابات، أمّ بشكل رئيس مع الأمهات، مرحة مع النساء المرحات، ومستعدة لتقديم خدماتها لهن؛ لطيفة مع الجميع، أخيراً هي درة، كنز، ومفخرة بروفنس. لم تذكر حتى الآن أي كلمة عن هدفها، لكن جميع ناخبي بروفنس كانوا ينتظرون بلوغ رئيس محكمتهم السن المطلوبة ليقدموا له أصواتهم، وكل منهم واثق من مواهبه؛ ويعتبره رجله المؤهل، وراعي مصالحه. آه! إن السيد تيفين سيصل، سيكون يوماً وزيراً للعدل، وسيهتم ببروفنس.

هي ذي الوسائل التي تمكنت بواسطتها السيدةتيفين السعيدة الحظ في أن تسود على هذه المدينة الصغيرة من المقاطعات. بعد أن زوجت السيدة غينه أخت السيد تيفين ابنتها الأولى إلى السيد لسور وكيل النيابة، والثانية إلى السيد مارتنر الطبيب، والثالثة إلى السيد أوفري الموثق. تزوجت بدورها - وهي الأرملة - السيد غالاردون محصل الضرائب، ورأت السيدات لسور ومارتنر وأوفري ووالدتهن السيدة غالاردون في الرئيس تيفين الرجل الأكثر غنى والأكثر قدرة في العائلة. فوكيل النياية والسيد تيفين خال زوجته، له مصلحة كبيرة في أن يدفع هذا الخال إلى

باريس ليغدو رئيس محكمة بروفنس. وهكذا فأولئك السيدات الأربعة (والسيدة غالاردون تعبد أخاها) كن يشكلن بلاطاً ملكياً للسيدة تيفين ويأخذن رأيها ويتقيدن بنصائحها في كل أمر، وكان الابن البكر للسيد جوليار، المتزوج من الابنة الوحيدة لمزارع ثري، قد تملكه هوى ساحر، مفاجئ، خفي، نزيه، لزوجة رئيس المحكمة، تلك الملاك الهابط من السموات الباريسية، وكانت ميلاني الماهرة أبرع من أن يربكها هذا الجوليار. وقادرة جداً على أن تثبته في وضع أماديس[1] وتستثمر حماقته؛ فنصحته بأن يؤسس صحيفة، تعينه فيها كمشيرة؛ وهكذا فمنذسنتين أسس جوليار؛ وقد تضاعف هواه الرومنسي، صحيفة، وتملك عربة عامة خاصة ببروفنس، وسمى صحيفته القفير[2]، صحيفة بروفنس: وهي تنشر مواضيع أدبية، وأثرية وطبية، تعد عائلياً، وكانت إعلانات المنطقة تسدد التكاليف، والمشتركون وعددهم مئتان تشكل اشتراكاتهم الربح. وكانت تبدو في الصحيفة مقاطع شعرية كئيبة، وغير مفهومة في بري، وموجهة **إليها**[3]!!! مع نقاط التعجب الثلاث هذه، وهكذا فعائلة جوليار الشابة، راحت تشيد بمواهب السيدة تيفين، وضمت شلة جوليار إلى شلة غينه. ومنذ ذلك الحين غدت صالة الرئيس هي الأولى في المدينة. وشكلت القلة من الارستقراطيين الموجودة في بروفنس صالة لدى الكونتة دي بروتي.

في الأشهر الستة الأولى من انتقال آل روغرون، وبحكم علاقاتهما السابقة مع آل جوليار، وآل غيبن، وآل غينة، واعتماداً على قرابتهما مع السيد أوفري

---

(١) أماديس: رواية عن الفروسية الاسبانية، نشرها في العام ١٥٠٨ اوردونز وربما كان أصلها برتغالياً من القرن الثالث عشر والبطل فيها أماديس رمز العاشق المخلص الكاتب المنزه عن كل غرض، المكتفي برؤية محبوبته، وهو الفارس التائه.

(٢) القفير La Ruche صحيفة أنشأها بيير فنسار الذي كان يعمل صاحب مكتبة وناشراً واتجه إلى الإنتاج الأدبي، وبدأ يعرف في الفترة التي بدأ بها بلزاك كتابة بييريت.

(٣)«**إليها**» هذا هو العنوان (باستثناء نقاط التعجب) لقصيدة لوسيان دي روبمبره المهداة «بمظهر يشوبه الغرور» إلى السيدة دي بارجتون (**في رواية أوهام ضائعة**).

الموثق أحد أحفاد قريب جدهم، استُقبِل الأخوان أولاً من قبل السيدة تيفين الجميلة؛ وكل يريد أولاً أن يدرس جيروم وسيلفي قبل قبولهما، وكان من الصعب عدم استقبال تاجرين من شارع سان دنيس، ولدا في بروفنس، وهما عائدان لينفقا مدخراتهما ومداخليهما فيها. غير أن هدف كل فئةاجتماعية هو العمل على اندماج أشخاص ذوي ثروة، وثقافة وتقاليد ومعارف وطبائع متشابهة، والواقع أن آل غيبن وآل غينه وآل جوليار هم أشخاص أكثر عراقة وأعلى مستوى من ابني روغرون الفندقي المرابي الذي يلام على سلوكه السابق، وعلى تصرفه بخصوص أوفري، فالموثق أوفري، صهر السيدة غالاردون، ابنة عائلةتيفين مطلع على الموضوع، وهذه القضية جرت لدى سلفه. لذلك وُضِع هذان التاجران السابقان. العائدان منذ اثنتي عشر سنة، قيد الدراسة، واختبار سلوكهما في الحياة، ومدى تلاؤمهما مع طرائق تلك الفئة الاجتماعية في التعامل. وما تضفيه عليها السيدة تيفين من طابع أنيق وبعض برنقة باريسية انسجم معها الجميع وتفاهموا، وعرف كل واحد كيف يتصرف ويتكلم بحيث يرضي الباقين بعدأن اعتاد بعضهم على بعض الآخر وائتلفت طبائعهم. وما أن استقبل الأخوان لدى السيد غارسِلان العمدة، حتى ازدهيا لكونهما قد انخرطا خلال زمن قصير مع صفوة مجتمع المدينة، وتعلمت سيلفي لعبة البوسطن، بينما عجز روغرون عن معرفة مبدأ أي لعبة، وكان يفتل إبهاميه، ويبتلع عباراته عندما يتحدث عن بيته، فتبدو عباراته كالتشخيص الطبي العسير تعذّبه وتشقيه. كان ينهض، وتبدوعليه الرغبة في المشاركة في الحديث، ويخامره الخجل، فيجلس من جديد، وتظهر على شفتيه اختلاجات مضحكة بينما ظهر طبعِ سيلفي بسذاجة في اللعب؛ فهي مزعجة، نواحة دائماً عندما تخسر؛ فرحة، بطِرة عندما تربح؛ مشاكسة، مضايقة، تفقد منافسيها وشركاءها الصبر، فهي آفة المجتمع.

كان روغرون وأخته، والحسدالأحمق الصريح ينهشهما، يخالجهما الطمع في أن يلعبا دوراً في مدينة تمد فيها أثنتا عشرة عائلة شباكها ذات الزرد المتراصة، حيث جميع المصالح، وكل الحساسيات تشكل مايشبه قاعةمحكمة يجب أن يصمد

الوافدون الجددجيداً فيها كي لايقعوا في المشاكل أو لايصدموا. اعتقد الأخوان بإنفاقهما ثلاثين ألف فرنك على ترميم منزلهماو وبحيازتهما على أملاك تدر عليهما عشرة آلاف فرنك دخلاً سنوياً، أنهما أغنياء جداً، وراحا يرهقان ذلك المجتمع بالحديث عن ترفهما المقبل، ويكشفان عن تفاهتهما، وجهلهما المطبق، وغيرتهما الحمقاء. وفي الأمسية التي قدما فيها لزيارة الحسناء السيدة تيفين، التي سبق لها ملاحظتهما لدى السيدة غارسلان، ولدى ابنة حميها غالاردون، ولدى السيدة جوليار الأم؛ أسرت ملكة المدينة لجوليار الابن، عند بقائه لفترة بعد انصراف الجميع، منفرداً معها ومع زوجها رئيس المحكمة: «هل قُدّرَ عليكم جميعاً تحمل هذين الروغرون؟»

قال أماديس بروفنس: بالنسبة لي، فإنهما يزعجان أمي؛ ويرهقان زوجتي، وعندما وضعت الآنسة سيلڤي لدى والدي منذ ثلاثين سنة للتدرب، لم يكن يطيقها.

قالت زوجة رئيس المحكمة وهي تضع قدمها الصغيرة على حافة حاجز رماد مدفأتها: أما أنا فتستبد بي رغبة كبيرة في إفهامهما أنَّ صالتي ليست فندقاً»

رفع جوليار عينيه إلى السقف كأنه يريد أن يقول: «يا إلهي، أي سرعة خاطر، وأي مهارة!».

وتابعت السيدة تيفين: «أريد لمجتمعي أن يبقى من النخبة، وإن قبلت فيه جماعة من آل روغرون فلن تكون هذه من بينهم».

وعلق رئيس المحكمة بالقول: «إنهما دون قلب، لافكر، ولاطرائق. فلو أنهما بعد عشرين سنةمن بيع الخيوط، تشبها بأختي مثلاً...»

وقاطعته زوجته بقولها: يا صديقي، إن أختك كان يمكن أن تقبل في أي صالون.

وتابع رئيس المحكمة: إذا كانت حماقة شخص قد بلغت إلى الاعتقاد بأنه مايزال في متجر لوازم الخياطة، ولايرتفع عن ذلك في مقامه؛ وعندما يجري

الحديث عن كونتات شمبانية، يعتقد أن الأمر يتعلق بفواتير الخمور[1]، كما فعل هذان الأخوان هذا المساء، فالأفضل له أن يبقى في بيته.

قال جوليار: إنهما كريهان، وكأنّ منزلهما هو الوحيد في بروفنس، ويريدان إذلالنا، وهما بعد كل حساب لايملكان أكثر من أسباب عيشهما.

وتابعت السيدة تيفين: لو أن الأخ كان بمفرده لتحملناه، فهو غير مزعج، فبإعطائه لعبة تركيب صينية[2]، يبقى في زاويتة طيلة السهرة هادئاً يحاول فيها، بل ويبقى طيلة الشتاء إن اقتضى الأمر، لكن الآنسة سيلفي ؟؟يا لصوتها كصوت ضبع مزكوم! أي دبيب سرطان بحري! لكن لاتقل شيئاً من هذا يا جوليار.

عندما انصرف جوليار، التفت الزوجة الشابة إلى زوجها قائلة: «يا صديقي، لدي مايكفيني من البلديين الملزمة باستقبالهم، لكن هذين الشخصين الإضافيين يرهقان روحي؛ فإن سمحت سنتجنبهما».

قال رئيس المحكمة: أنت سيدةبيتك، لكننا سنكون عداوات لنا، فال روغرون سيتحولون إلى المعارضة، وهي حتى الآن ليس لها قوام في بروفنس. وهذا الروغرون سينضم إلى البارون غورو والمحامي ڤينه.

قالت ميلاني باسمة: هيه! إنهم يؤدون لك خدمةعند ذاك. فعندما لايوجد أعداء، لاتوجد انتصارات؛ فمكيدة ليبرالية، أو تجمع غير مشروع، أو صراع ما، سيضعك في الواجهة».

نظر رئيس المحكمةإلى امرأته الشابة بنوع من الإعجاب الوجل، وفي اليوم التالي جرى الهمس لدى السيدة غارسلان بأن آل روغرون لم ينجحوا لدى السيدةتيفين، ولاقى تعريضها بالفندق نجاحاً كبيراً، كما أنها لم ترد الزيارة للآنسة سيلڤي إلا بعد شهر، مما يعتبر استهانةمقصودة في المقاطعات. وقد كانت سيلڤي، في لعبة بوسطن لدى السيدة تيفين في موقف غير سار مع السيدة جوليار الأم الموقرة، فبعد خسارة مدهشة سببتها لها معلمتها السابقة قالت عنها بخبث إنها مقصودة.

---

(١) الالتباس حاصل بين Compte فاتورة و Comte كونت.

(٢) هي لعبة يجب ترتيب قطعها وفق تركيب يقتضي مهارة وذكاء.

لم تكن سيلقي، المحبة لإعداد حيل تسخر فيها من الآخرين، تتصور أن تقابل بالمثل، فالسيدة تيفين أعطت المثل بتشكيل مجموعات اللعب قبل وصول الأخوين روغرون، بحيث تبقى سيلقي خارج اللعب، تتيه بين طاولة وأخرى تشاهد لعب الاخرين، وهم يرمقونها بنظرة ساخرة. وراح الساهرون لدى السيدة جوليار الأم يلعبون الويست، وهي لعبة لاتعرفها سيلفي. وانتهت العانس إلى إدراك النيةالمبيتة في وضعها خارج اللعب دون أن تدرك الأسباب. وظنت أنها هدف غيرة الجميع، ولم يعد الأخوان يدعيان إلى أي سهرة، لكنهما استمرا بقضاء أمسياتهما في المدينة، والمزاحون يسخرون منهما، دون حقد، وبمكر من خلال دفعهما إلى التبجح بزخرفات منزلهما البيضوية، وبمحتويات قبو للمشروبات الكحولية لامثيل له في بروفنس، غير أن زخرفة منزل روغرون انتهت وكان طبيعياً أن يقيما بعض حفلات العشاء الفخمة، سواء لمقابلة مجاملة الناس لهما أو لإظهار ترفهما. ودعي إلى المأدبة الأولى أهم الشخصيات، وفي طليعتهم السيد والسيدة تيفين، رغم أن الأخوين روغرون لم يأكلا لديهما ولامرة واحدة، ثم آل جوليار الأم والابن والكنة، والسيد لسور، والسيد الكاهن، والسيد والسيدة غالاردون. كان عشاءاً ريفياً بدأ في الساعةالخامسة، وانتهى في الساعة التاسعة مساء، وفقا لتقليد باريسي أدخلته السيدة تيفين إلى بروفنس، وهو أن يغادر المدعوون صالة المضيف بعد تناول القهوة، عدا عن أنها الآن تريد أن تهرب، فلديها موعد سهرة في منزلها، وتبع الأخوان روغرون رئيس المحكمة وزوجته إلى الشارع، وعندما عادا، وهما مندهشان، لعدم استطاعتهما إقناعهما بالعودة لإتمام السهرة لديهما، شرح باقي المدعويين لهما حسن ذوق السيدة تيفين وانسحبوا بدورهم بسرعة فظة في عرف المقاطعات.

قالت سيلقي: «إنهم لم يروا صالتنا مضاءة، رغم أن هذه الإضاءة هي أروع مافيها من جمال». أراد الأخوان روغرون إعداد مفاجأة لضيوفهم. لكن ما من أحد اهتم بأن يرى هذا البيت. وهكذا فإن جميع رواد صالةالسيدة تيفين انتظروا بفارغ صبر رأيها في عجائب قصر روغر ون.

قالت لها السيدة مارتنر الشابة: «وبعد، ألا تقصين علينا، بعدأن رأيت هذا اللوفر، كل ماشاهدت فيه؟

ـ ردت السيدة تيفين: لكن كل شيء فيه كان كمأدبةالعشاء لايستحق كبير اهتمام.

ـ لكن كيف هو؟.

وراحت السيدة تيفين تصف بالتفصيل: الواقع أن باب المدخل، وهو مايجب أن يثير الإعجاب بعوارضه البرونزية المذهبة، يفضي إلى ممر طويل يقسم البيت بشكل غير متساو، فعلى اليمين لاتوجد إلا نافذة واحدة على الشارع، بينما وجدت اثنتان إلى اليسار. وينتهي هذا الممر من جهة الحديقة بالباب المزجج للدرج الهابط على المرجة الخضراء، وهي مرجة مزخرفة بقاعدة يرتفع عليها إفريز سبارتاكوس من الجبصين المدهون بلون برونزي. وخلف المطبخ، أعد المتعهد تحت قفص الدرج غرفة صغيرة للمؤونة، لم نعف من مشاهدتها، أما الدرج المدهون بلون الرخام الأسود المذهب، فهو بشكل منحدر مفرغ يدور حول نفسه كتلك السلالم التي توصل في المقاهي من الصالة حتى المغاسل في القبو، هذا السلم من خشب الجوز بخفة خطرة ذو درابزين مزخرف بالنحاس، وصف لنا وكأنه إحدى عجائب الدنيا السبع؛ وباب الأقبية في نهايته؛ ومن الجهة الأخرى من الممر، على الشارع، توجد قاعة الطعام التي تتصل بباب ذي مصراعين مع صالة متساوية الأبعاد تطل نوافذها على الحديقة.

قالت السيدة أوفري: هكذا إذاً لاتوجد ردهة؟

ردت السيدة تيفين: الردهة هي دون شك ذلك الممر الطويل بين جناحي المنزل، ولاشك أن الفكرة القومية، قطعاً، والليبرالية، والدستورية، والوطنية، قد دفعت إلى استعمال الأخشاب الفرنسية حصراً. وهكذا فأرضية قاعة الطعام من خشب الجوز حيث رصفت القطع على الترتيب الهنغاري[1]، كما أن الخزائن،

---

(١) الترتيب الهنغاري: رصف القطع الخشبية التي تشكل أرضيةغرفة بشكل مائِل.

والمائدة، والكراسي هي من خشب الجوز أيضاً، والستائر على النوافذ من الكاليكوت الأبيض المؤطر بعصائب حمراء على مشاجب مضخمة، ذات منحنيات مقطعة مذهبةبكمدة تبرز نهايتها بشكل قبعة فطر من أرضيةمحمرة. وهذه الستائر الجميلة تنزلق على قضبان تنتهي بسعيفات غريبة، وهي مثبتة فوقها بواسطة مشابك بشكل مخالب أسد من نحاس مرشم، موضوعة في أعلى كل ثنية، وفوق إحدى الخزائن تشاهد صينية قهوة معلقة بمحفظة من البرونز المذهب، وهي إحدى هذه الأفكار التي يتباهى بهاالأخوان روغرون، وإرادا أن يثيرا إعجابي بهذا الاكتشاف، فلم أجد ماهو أفضل من القول لهما بإنه إذا وجب وضع محفظة حول صينية فإنما يتم ذلك في قاعة الطعام. وكان على هذه الخزانة مصباحان كبيران مماثلان للمصابيح التي تزين بها واجهات المطاعم الشهيرة. وفوق الخزانة الأخرى يوجد مقياس ضغط جوي مزخرف بإفراط ويبدو أنه ذو أهميةكبيرة لآل روغرون، فصاحب المنزل ينظر إليه بهيام كأنه ينظر لخطيبته. وبين النافذتين وضع منظم المنزل مدفأة من القيشاني الأبيض في كوةمزخرفة بشكل رهيب، وعلى الجدران يلتمع ورق أحمر مذهب، على مثال مايوجد في المطاعم الكبرى، ويبدو أن الأخوين روغرون اختاراه من هناك على الأرجح.

قدم العشاء لنا في أطباق من البورسلين الأبيض المذهب، والتحلية في صحون زرقاء زاهية ذات أزهار خضراء؛ لكن فتحت أمامنا إحدى الخزائن حيث ظهرت أطباق أخرى من صلصال الغليون للاستعمال اليومي، ومقابل كل خزانة دولاب كبير للأغطيةوالفوط. وكل هذا مبرنق، نظيف، جديد، مليء بالفوارق اللونية الصارخة؛ مازلت أقبل قاعة الطعام تلك: فلهاطابعها، أياً كان إزعاجه، فهو يعبر تماماً عن أصحاب البيت. لكن ماهو فوق احتمالي تلك اللوحات السوداء الخمسةالتي يجب على وزارة الداخلية أن تصدر قانوناً بشأنها. وهي تمثل

بونياتوفسكي يقفز في الإلستر، والدفاع عن حاجز كليشي، ونابليون يصوب بنفسه مدفعاً، ولوحتي مازيبا[1]؛ وكلهامؤطرة في أطر مذهبة من طراز مبتذل يتلاءم مع اللوحات القادرة على أن تدفع إلى كره النجاح والشهرة. أوه! كم أفضل لوحات البستل البسيطة لدى السيدة جوليار، الممثلة للثمار، هذه اللوحات الممتازة التي تعود إلى عصر لويس الخامس عشر والمرسومة بأقلام البستل الملونة، المنسجمة مع قاعة الطعام العتيقة، ذات الأخشاب الشهباء المنخورة قليلاً، إنما يبدو عليها بالتأكيد الطابع الإقليمي، وتتلاءم مع فضيات العائلة الموروثة، والآنية الخزفية العتيقة، ومع عاداتنا. فالمقاطعات هي المقاطعات: ومن السخف أن تقلد باريس. ستقولون

---

(١) أظهر الأمير بونياتوفسكي شجاعة كبيرة في المعارك وشارك في الحملة على روسية، وسماه نابليون مرشالا خلال معركة لايبزيغ، لكنه عندما أراد إيقاف العدو على طول نهر الإلستر. خاض بحصانه عباب النهر واستعصى عليه العبور، فغرق في ١٩ تشرين الأول ١٨١٣، وقد صور هوراس فرنه هذا العمل البطولي في لوحة منع عرضها في صالون ١٨٢٢.

- في العام ١٨١٤، دافع المارشال مونسي بجرأة عن حاجز كليشي، ولم يتخل عن موقعه إلا بعد أن وصله نبأ استسلام باريس، وقد رسم هوراس ڤرنه (١٧٨٩-١٨٦٣) لوحة لمونسي، وهو على حصانه بعنوان «الدفاع عن حاجز كليشي».

- «نابليون يصوب مدفعاً» موضوع لم يعد يرى بعد حصار طولون ١٧٩٣، ولاشك أن هذه اللوحة كاللوحتين السابقتين من الصور الشعبية التي كانت تنتجها مدينة «إبينال» في الفوج، والتي انتشرت خاصة بعد سقوط الإمبراطورية.

- كذلك فإن هوراس ڤرنه، عرض في العام ١٨٢٧ لوحتين للبطل القوزاقي مازيبا (١٦٤٤-١٧٠٩) الذي ربط إلى حصان متوحش قاده إلى أوكرانيا حيث انتخب «هتمان» وخدم بطرس الأكبر، ثم انقلب عليه وانضم إلى شارل الثاني عشر ملك السويد، وهذا البطل الأوكراني أوحى قصائد رائعة لبيرون وفيكتور هوغو. أما لوحتا فرنه فكانتا بعنوان «مازيبا والذئاب» و«مازيبا والخيول».

هكذا نرى أن الأخوين روغرون اختارا «لوحات عاديةوشعبيةجداً». وقد سبق لبلزاك أن نقد في مقال له نشر في «السيلويت» بعنوان العطار (٢٢ نيسان ١٨٣٠) هذا النقص في اللياقة فكتب: إننا نرى حالياً عطاراً يقرأ فولتير، ويضع في صالته لوحة «الجندي الحر» أو لوحة «الهجوم على حاجز كليشي».

لي على الأرجح: «إنك صائغ يا سيد جوس»[1] لكنني أفضل هذه الصالة القديمة التي ورثناها عن الأب تيفين وأبقيناها على حالها: بستائرها الثخينة من اللمباس الصيني الأخضر والأبيض، ومدفأتها طراز لويس الخامس عشر. وفرجاتها الملتوية، ومراياها القديمة المصدفة، ومناضد لعبها الجليلة؛ أفضل مزهرياتي من خزف السيفر القديم، بزرقته القديمة، القائمة فوق نحاس قديم، وساعتي الجدارية النوّاسة ذات الأزهار الغريبة، وثريتي الروكوكو، وأثاثي المنجد؛ أفضل كل ذلك على جميع روائع صالتهم.

قال السيد مارتنر وقد أسعده مدح الباريسيةالجميلة اللبق للمقاطعات: ولكن ماهي روائعهم؟

ردت السيدة تيفين: بالنسبة للصالة، لون أحمر جميل، حمرة الآنسة سيلڤي عندما تتكدر لخسارة لعبة بوسطن.

ردد العبارة رئيس المحكمة فذهبت بعد ذلك مثلاً ضمن مفردات بلدة بروفنس: حمرة سيلڤي.

واستأنفت السيدة تيفين: ستائر النوافذ؟... حمراء!... والأثاث؟... أحمر! والمدفأة؟... مرمر أحمر مذهب! والشمعدانات، وساعةالحائط؟ ... مرمر قائمة على غصون ذات أوراق إغريقية. وفي أعلى ساعةالحائط أسد عبل، هو أقرب إلى الشبل، بمظهر أبله ينظر إليكم كنظرة الأخوين روغرون. إنه الأسد المصطلح على تسميته الزينة، وسيسيء زمناً طويلاً إلى الأسود الحقيقية؛ وهذا الأسد يدحرج بين قائمتيه الأماميتين كرة كبيرة، تقليد متبع في تمثال أسد الزخرفة، إنه يقضي حياته ممسكاً بهذه الكرة السوداء، تماماً كأحد نواب اليسار[2].

(١) تلميح يستخدمه بلزاك بكثرة، والعبارة مستمدة هنا من مسرحية هزلية لموليير: «الحب الطبيب - الفصل الأول - القسم الأول - ١٦٦٥».

(٢) نقد لاذع تميز به بلزاك. كانت الكرات السوداء والكرات البيضاء تستخدم في الانتخابات للموافقة على اقتراح (بوضع كرة بيضاء) أو برفضه (بوضع كرة سوداء). وبلزاك هنا يتهكم على نواب اليسار الذين يمثلهم والكرات السوداء في يدهم - أياً كان الاقتراح - مما يدل على إصرارهم على الرفض في معارضةمستمرة.

قد يكون هذا ترهة دستورية! أما إطار هذه الساعة فهو منقوش بحفر غريب، بينما تظهر مرآة المدفأة هذا الإطار ذا الجبلة المطبقة بمظهر شحيح متبذل رغم جدته. لكن عبقرية النجَّاد تظهر في هذه الثنيات المشعة من القماش الأحمر التي تنطلق من زخرفة بشكل وردة قبالة المدفأة، كقصيدة رومنسية نظمت خاصة لأجل الأخوين روغرون اللذين كانا ينتشيان زهواً وهما يعرضانها لضيوفهما. ومن وسط السقف تدلت ثريا غلفت بعناية بكفن من البركالين الأخضر ولسبب: فهي تنم عن ذوق سيء جداً، فالبرونز بمسحة لون حادة تزينه شبكات أكثر رداءة من خيوط مذهبة مصقولة. وتحتها مائدة للشاي مستديرة ذات رخام ذي عروق ذهبية أكثر من كل ما سبقه، وفوقها صينية لماعة متموجة مغدنية تبرق عليها فناجين من القيشاني الملون. ولكن أي ألوان! وهي تحيط بسكرية من الكريستال المحفور بفخر حتى أن فتياتنا اليافعات سيدٍّورن الأعين إعجاباً بهذه الحلقات النحاسية المذهبة التي تؤطرها، وهذه الضلوع النافرة كأنها في صدار يعود إلى العصر الوسيط. وهذا الملقط المعد لتناول قطع السكر، والذي يحتمل ألا يستخدم أبداً. ولهذه الصالة سجف تزيينية من ورق أحمر مماثل للمخمل محاط بمأطورات من قضبان نحاسية مثبتة في الزوايا الأربع بسيعيفات مجسمة، وقد أثقلت كل مأطورة بطباعة حجرية ملونة [1] محاطة بدورها بأطر ذات زخارف إكليلية من معجون جصي يشابه منحوتاتنا الخشبية الجميلة. أما الأثاث فهو من خشب الدردار وقماش الكزيمير الصوفي الناعم ويتشكل كما هو مألوف من ديوانين وأريكتين وستة مقاعد وستة كراسي، وزينت المنضدة الجانبية المزخرفة بمزهرية من الألبستر من طراز مديسيس موضوعة تحت الزجاج، وهذا القبو الرائع من مجموعة مشروبات كحولية معطرة شهيرة، سبق أن أنبئنا كفاية «أن لا مثيل له في بروفنس». وإلى جانب كل فتحة نافذة، حيث تتدلى ستائر رائعة من الحرير الأحمر المبطن بالتول توجد مائدة خضراء للعب. أما السجادة فهي من الأوبيسون، واختارها الأخوان روغرون بأساس أحمر بنجميات زهرية، وهي الأكثر ابتذالاً بين الرسوم الشائعة... تبدو هذه الصالة وكأن ما من

---

(١) طباعة حجرية ملونة Lithochromie: طريقة طباعة حجرية تطبع بواسطتها على القماش أو الورق مخطط إجمالي بالأسود وسطوح بألوان مختلفة بحيث تبدو وكأنها لوحة زيتية.

إنسان يؤمها : فلانرى فيها كتباً أو صوراً، ولا أياً من هذه الأشياء الصغيرة التي تملأ الموائد. قالت هذا ونظرت إلى طاولة صالتها المليئة بأشياء على الطراز الحديث، وألبومات صور، وأشياء جميلة قدمت لها. ثم أستأنفت : لاتوجد أزهار ولا أي من هذه الأشياء التي يجب تجديدها. إنها صالة باردة جافة كالآنسة سيلفي. إن بوفون على حق عندما قال : إن النمط هو الإنسان، وللصالات بالتأكيد نمطها.

تابعت السيدة تيفين وصفها الهجائي، ووفقاً لهذه العينة يمكن لكل إنسان أن يتصور بسهولة المنزل الذي يشغل الأخوان روغرون الطابق الأول فيه، والذي استقبلا فيه ضيوفهما. لكن ما من أحد يمكن أن يكتشف التحريات الحمقاء التي قاد إليها المتعهد الفكه هذين الأخوين : نواتئ الأبواب، والمصاريع الداخلية المشكلة، وجبصين زخرفة الأفاريز، واللوحات الجميلة، والمقابض من النحاس المذهب، والأجراس، والأقسام الداخلية من المدافئ وأنظمة تصريف الدخان، وابتكارات تجنب الرطوبة، ولوحات الترصيع المصورة بالألوان على السلالم، والتزجيج، والأقفال الدقيقة، وأخيراً جميع هذه التوافه التي تزيد من أسعار بناء وتعجب البورجوازيين، وتسرف في التبذير.

لم يرد أحد الذهاب إلى أمسيات الأخوين روغرون، وأجهض تباهيهم. وكانت أسباب الامتناع عن ذلك عديدة : كانوا يستقبلون كل يوم لدى السيدة غارسلان، لدى السيدة غالاردون، لدى السيدتين جوليار، لدى السيدة تيفين، ولدى مدير المنطقة، إلخ. وظن الأخوان أن بإمكانهما تأسيس شلة لهما بإقامة مأدبة عشاء : ولبى دعوتهما شباب ساخر، ومحبو المآدب الموجودون في كل بلدان العالم، لكن الأشخاص الرصينين امتنعوا جميعاً عن زيارتهما. وذعرت سيلڤي لخسارة أربعين ألف فرنك التهمها المنزل الذي تسميه منزلها الغالي دون أي تعويض معنوي أو فائدة مادية، وأرادت أن تسترجع هذا المبلغ بضغط النفقات والشح فامتنعت عن إقامة مآدب عشاء تكلف ثلاثين إلى أربعين فرنكاً عدا عن الخمور ولاتحقق أبداً أملها في أن يكون لها شلة، الهدف الصعب المنال في المقاطعات

كصعوبته في باريس. وهكذا صرفت سيلفي طاهيتها، وعهدت إلى فتاة ريفية بالقيام بأعمال التنظيف والمهام المنزلية الشاقة بين وقت وآخر، بينما قامت بأعمال المطبخ بنفسها «هواية ومتعة.»

وهكذا بعد أربعة عشر شهراً من عودتهما إلى بروفنس، وقع الأخ والأخت في حياة عزلة ودون أي مشاغل، وولّد إبعادهما عن المجتمع في نفس سيلفي حقداً هائلاً على آل تيفين، وجوليار، وأوفري، وغارسلان، أخيراً ضد مجتمع بروفنس الذي تسميه **الطغمة** وغدت علاقاتها معهم بمنتهى البرود.

رغبت جيداً أن تناهضهم بعصبة مقابلة ثانية، لكن البورجوازية الأدنى مؤلفة من تجار صغار، لاوقت فراغ لديهم إلا في الآحاد وأيام الأعياد، أو هم رجال من العهد البائد كالمحامي ڤينه والطبيب نيرو من البونابرتيين المرفوضين كالعميد البارون غورو الذين ارتبط معهم روغرون رغم ذلك دون روية، وحاولت البورجوازية العليا عبثاً تحذيره منهم. وهكذا اضطر الأخ والأخت أن يبقيا إلى قرب مدفأتهم في صالة الطعام، وهم يستعيدان ذكريات أعمالهما، ووجوه زبائنهما، وأشياء أخرى ممتعة، ولم ينقض الشتاء الثاني دون أن يثقل عليهما الملل بشكل مريع، ودون أن يتعرضا لألف عناء في استخدام الوقت خلال اليوم، وعند الذهاب للنوم مساء يقولان: «هوذا يوم آخر ينقضي»؛ ويتباطأان في النهوض صباحاً، ويبقيان في السرير، ويلبسان بتمهل، ويقوم روغرون بنفسه بحلاقة ذقنه صباح كل يوم، ويتأمل وجهه، ويتداول مع أخته في التغيرات التي يخيل إليه أنه لاحظها على صحته، ويتجادل مع الخادمة حول درجة حرارة الماء اللازم له، ويذهب إلى الحديقة ليرى مدى نمو الأزهار التي زرعها؛ ويغامر بالاقتراب من حافة الماء حيث بنى ظلّة؛ ويتأمل خشب المنجورات في المنزل: هل طرأ عليه أي تغير؟ وهل الارتصاص شقق لوحاً ما؟ وهل الدهان مايزال ثابتاً؟ ثم يعود ليتحدث عن مخاوفه إن رأى دجاجة معتلة، أو مكاناً تركت الرطوبة فيه بعض البقع، بينما أخته تظهر الانشغال بترتيب المائدة، أو بالتنكيد على الخادمة. وكان ميزان الضغط الجوي هو الأداة الأكثر فائدة لروغرون فهو يعود إليه دائماً بتأمله دون سبب، ويربّت عليه

برفق كأنه صديق، ثم يقول: «إن الطقس سيء!» وتجيبه أخته: «باه! إنه طقس هذا الفصل» وإن حضر أحد لرؤيته، فإنه يمجّد ميزات هذه الأداة. ويأخذ معهما طعام الإفطار بعض الوقت، يمضغان كل لقمة بأناة وتمهل، وهكذا فهما لايشكوان أبداً من سوء الهضم، ولا يخشيان سرطان المعدة. ويصلان إلى الظهر بقراءة صحيفتي **القفير**، **والدستوري** وكان يتحمل اشتراك الصحيفة الباريسية مثالثة مع المحامي ڤينه والعميد غورو، وكان روغرون يحمل بنفسه الصحف للعميد المقيم على الساحة في منزل السيد مارتنر، وكانت قصصه الطويلة تبعث في نفس روغرون متعة كبيرة تدفعه إلى التساؤل عن سبب اتهام العميد بالخطر، مما جعله يرتكب حماقة التصريح له بالأقاويل التي تشبعها الطغمة عنه وبتحريضها على نبذه من أوساطها؛ ولايعلم إلا الله والعميد الرهيب باستخدام المسدس كرهبته باستخدام السيف كيف أخرس - وهو الذي لايخشى أحداً - ألسنة الفاتنة تيفين وجوليارها، والمتحزبين الحكوميين في أعلى المدينة، الأشخاص الذين باعوا أنفسهم للأجنبي المستعدين لارتكاب أي أمر في سبيل المنصب؛ الذين يقرؤون في الانتخابات على أوراق الإقتراع الأسماء التي تحلو لهم.. إلخ.

في حوالي الساعة الثانية كان روغرون يقوم بنزهة قصيرة، وكان يسعده أن يعترضه صاحب الدكان المجاور لباب منزله قائلاً: «كيف الصحة أيها الأب روغرون؟» فيتحدث معه ويسأله عن أخبار البلدة، ويصغي إلى النمائم والإشاعات السائدة في بروفنس ويبثها، ويصعد حتى القسم الأعلى من المدينة، ويتجول في الطرقات المحفرة وفق الأحوال الجوية السائدة؛ ويصادف أحياناً بعض الكهول الذين يتنزهون مثله، ويعتبر هذه الصدف أحداثاً سارة؛ إذ يوجد في بروفنس أشخاص متقززون من الحياة الباريسية، وعلماء متواضعون يحيون مع كتبهم؛ ولكم أن تحكموا على موقف روغرون وهو يستمع إلى قاض احتياطي اسمه دفوندريل، وهو عالم آثار أكثر منه رجل قانون، عندما يتحدث إلى العجوز الواسع الثقافة السيد مارتنر الأب مشيراً إلى الوادي: «هل تجد تفسيراً للأسباب التي تدفع

البطالين في أوروبة للذهاب إلى سبا[1]» بدلاً من المجيء إلى بروفنس، بينما المياه المعدنية في بروفنس باعتراف الطب الفرنسي أكثر فائدة وتنشيطاً وغنى بالعناصر الجديرة بالخواص الطبية التي اشتهرت عن ورودنا؟.

ويرد الرجل المثقف: ماذا تريد؟! إنها إحدى تقلبات النزوة، الغامضة مثلها فنبيذ بوردو لم يكن معروفاً منذ نحو مئة سنة، إلى أن جاء المارشال ريشيلو[2] أحد أكبر وجوه القرن الماضي، والسيبياد فرنسة[3]؛ المسمى حاكماً لغويان، وكان يشكو من آفة في صدره، يعرف كل العالم سببها[4]! وشفاه خمر البلاد وجدد قواه. وكسبت عند ذلك بوردو دخلاً سنوياً قدره مئةمليون فرنك، ووسع المارشال أراضيها حتى آنغوليم وحتى كاهور، أخيراً إلى محيط دائرة نصف قطرها أربعون فرسخاً! ومن يدري إلى أين ستمتد كروم بوردو؟ ومع ذلك فليس للمارشال تمثال خيال في بوردو هتف عند ذاك السيد دفوندريل: آه!إن جرى مثل هذا الحدث في بروفنس خلال هذا القرن أو غيره، فسيشاهد على الساحة الصغرى في الحيّ الأسفل من المدينة، أو على القصر في الحيّ الأعلى، نقش من مرمر أبيض يمثل رأس السيد أوبوا مرمم مواقع المياه المعدنية في بروفنس[5].

قال السيد مارتنر الأب: سيدي العزيز، ربما كان رد الاعتبار لبروفنس مستحيلاً، فهذه المدينة قد أفلست.

---

(١) سبا SPA: بلدة في بلجيكا قرب لييج تشتهر بمياهها المعدنية.

(٢) المارشال ريشلير (١٦٩٦-١٧٨٨): أحد أنسباء الكردينال ريشيلو، عين حاكماً لغويانا ثم لغاسقونية، كان صديقاً لفولتير، وهو نموذج الرجل الداعر في القرن الثامن عشر.

(٣) ألسيبياد (٤٥٠-٤٠٤ ق.م) قائد أثيني تلميذ سقراط، وزعيم الحزب الديمقراطي. اتهم بخرق حرمة المقدسات.

(٤) تلميح إلى حياة الفسق التي كان المارشال يمارسها.

(٥) كريستوف أوبوا (١٧٤٥-١٨٤٠) صيدلي من مواليد بروفنس؛ كان عضواًمعتدلاً في الجمعية التأسيسية، سمي في عهد الملكية الثانية مديراً للمياه والغابات. ثم مفتشاً عاماً للمياه المعدنية. نشر عدة كتب تتعلق بالمياه المعدنية، والمعادن والآثار والتاريخ والجغرافية العائدة لمنطقة بروفنس حتى أنّه يعتبر بعد كونتات شامبانية من أشهر رجال تلك المدينة.

وهنا فتح روغرون عينيه بذهول وهتف: ولكن كيف؟

- أجاب الشيخ المثقف: كانت في السابق عاصمة تتنافس بنجاح مع باريس في القرن الثاني عشر، و عندما كان لكونتات شامبانية بلاطهم، كما كان للملك رينه بلاطه في مدينة إكس، وفي ذلك العصر لم تكن الحضارة والغبطة، والشعر، والأناقة، والنساء؛ أخيراً جميع المفاتن الاجتماعية، وقفاًعلى باريس فقط، لكن المدن كالمحلات التجارية الكبرى لاتنهض إلا بصعوبة كبيرة من إفلاسها، وهكذا لم يبق لنا من بروفنس إلا عطر مجدهاالتاريخي، وعطر ورودها، ومنطقة إدارية على رأسها مدير برتبةنائب محافظ[1].

قال دفوندريل: آه! لو تمكنت فرنسة أن تحتفظ بكل عواصمها الإقطاعية! فهل كان يمكن لمدراء المناطق أن يحلوا محل هذه السلالة الشاعرية، الغزلة، والمحاربة، الذين جعلوا من بروفنس ماكانت عليه فراري في إيطالية، وماغدت فيه ديمار في ألمانية، وماتتوق إليه الآن ميونيخ[2]؟.

هتف روغرون: وهل كانت بروفنس عاصمة؟

رد دفوندريل العالم الأثري: أو تجهل ذلك، من أين أنت آت إذاً[3]

ضرب القاضي الوكيل عندذلك أرض المدينة العالية بعصاه وهتف: «ألا تعلم أن كل هذا القسم من بروفنس مبني فوق أقبية مدافن؟»

- أقبية مدافن!

---

(١) كانت بروفنس في الواقع عاصمة كونتات شامبانية ومن أشهرهم الشاعر تيبو الرابع (١٢٠١-١٢٥٣) قبل أن تضم إلى فرنسة من قبل فيليب لبل في العام ١٢٨٥، كما كان الملك رينه صاحب بلاط في إكس ـآن ـبروفنس وحامياً للفنون ورجل سياسة قبل وفاته في إكس العام ١٤٨٠ وانضمام مقاطعة بروفنسProvence بدورها إلى فرنسة في العام ١٤٨١.

(٢) ثلاثة مدن تميزت بشهرة الفنون فيها: فراري بسبب أمراء إست(في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) ويمار بفضل وجود غوته، وميونيخ بفضل ملوك بافارية.

(٣) الواقع أن بروفنس أيام تيبو الرابع تعتبر المدينة الثالثة في فرنسة، بعد باريس وروان.

ـ هذا هو الواقع، نعم، أقبية مدافن بارتفاع ومسافات لاتفسير لها. إنها كأجنحة الكاتدرائيات، عدا عن وجود العضادات.

قال مارتنر العجوز وقد رأى القاضي يعود إلى موضوعه المفضل «إن السيد أعد مؤلفاً أثرياً كبيراً يريد أن يشرح فيه هذه الأبنيةالفريدة».

عاد روغرون مبتهجاً لكون منزله مبنياً في الوادي، ولزمه خمسةأوستة أيام لاستكشاف أقبية المدافن التي غدت موضوع محادثة العازبين لعدة أمسيات أخرى. وكان روغرون يطلع دائماً على معلومات جديدة عن بروفنس القديمة[1]؛ وعلى معلومات عن مصاهرات العائلات، أو على أخبار سياسية قديمة يعيد سردها على أخته. وهكذا كان يسأل مئةمرة خلال نزهته، وغالباً عدةمرات الشخص نفسه: «وبعد، ماذا تقول؟ وبعد ماهي الأخبار الجديدة؟»؛ وعند عودته إلى بيته يلقي بنفسه على ديوان في الصالة، مضنى من التعب، كليلاً من ثقل وزنه بالذات، ولايصل إلى موعد العشاء إلا بعد أن يروح ويجيء. عشرين مرة بين الصالة والمطبخ، وهو ينظر إلى الساعة، ويفتح ويغلق الأبواب. إن أمكن للأخ والأخت أن يقضيا السهرة في المدينة فإنهما يصلان براحة إلى ميعاد نومهما، أما عندما يحكم عليهما بالبقاء في منزلهما فالأمسيةتغدو كصحراء قفر يعانيان من اجتيازها، وكم من مرة سمع بعض الأشخاص، عند مرورهم مساء في الساحة الصغيرة، وهم عائدون إلى منازلهم بعد أن قضوا في السهرة في المدينة، صرخاتٍ لدى الأخوين وكأن الأخ يزمع على قتل أخته، فيتعرفون على التثاؤبات الرهيبة لعقاد سابق في ملل شديد؛ فهذان الدولابان الميكانيكيان ليس بينهما ما يطحنانه عبر مسنناتهما

---

(١) يمكن التساؤل أن لم يكن بلزاك قد وجد كل هذه المعلومات عن بروفنس القديمة في مؤلفات أوبوا نفسه وخاصة «بروفنس القديمة» آثار وأصول المدينة العليا (١٨١٦) وكذلك (تاريخ ووصف بروفنس ـ ١٨٢٣) وربما كانت قراءة الأوصاف الأركيولوجية المتعلقة ببروفنس هي أساس خلق شخصية القاضي الأثري دفوندريل. ومما يجدر ذكره أن كريستوف أوبوا قد توفي في العام ١٨٤٠ وفي هذا العام بالذات ألف بلزاك رواية بييريت.

الصدئة فيصدران هذه القرقعة الصاخبة. وتحدث الأخ عن رغبته بالزواج إنما كوسيلة أخيرة؛ فقد شعر أنه شاخ، وتعب: والمرأة ترعبه. وأدركت سيلفي ضرورة وجود طرف ثالث في المنزل، وتذكرت عند ذلك ابنة خالتهما المسكينة التي لم يسألهما عن أخبارها أحد، فكل واحد في بروفنس كان يعتقد أن السيدة الشابة لورين وابنتها قد توفيتا. وسيلفي روغرون لاتضيع شيئاً، فهي بالفعل عانس لايفوتها شيء! وتظاهرت بأنها عثرت صدفة على رسالة آل لورين لتتمكن من التحدث بشكل طبيعي إلى أخيها عن بييريت؛ وبدا الأخ شبه سعيد لإمكان وجود فتاة يافعة في المنزل. وكتبت سيلفي رسالة نصف تجارية، نصف ودية للعجوزين لورين معللة تأخر جوابها بتصفية الأعمال، وعودتهما إلى بروفنس وترتيبات استقرارهما فيها، وأبدت رغبتها في أخذ نسيبتها على عاتقها، ملمحة إلى أن بييريت قد تغدو يوماً وريثة دخل اثنتي عشر ألف فرنك سنوياً إن لم يتزوج السيد روغرون. يجب الوصول إلى مثل حالة نبوخذنصر في البهيمية المتوحشة، والانحباس في قفص في حديقة الحيوانات، دون أي فريسة إلا لحم المجزرة المحمول من قبل الحارس؛ أو إلى وضع التاجر المعتزل دون مستخدم ينكد عليه، لتقدير مدى نفاذ صبر الأخ والأخت وهما ينتظران ابنة خالتهما لورين. وهكذا فبعد ثلاثة أيام من إيداع الرسالة راح الأخوان يتساءلان عن موعد وصول نسيبتهما. واعتبرت سيلفي إحسانها المزعوم لابنة خالتها الفقيرة وسيلة للتقرب من مجتمع بروفنس، وذهبت إلى السيدة تيفين التي حكمت عليها وعلى أخيها بالنبذ وأرادت أن تخلق في بروڤنس مجتمع نخبة لتنبئها بقرب وصول ابنة خالتها بييريت، ابنة العميد لورين، وهي ترثي لتعاستها، وتظهر نفسها امرأة سعيدة لأن لها وريثة جميلة شابة يمكنها أن تقدمها للمجتمع.

ردت عليها السيدة تيفين المتربعة على ديوان قرب المدفأة بلهجة ساخرة: «لكنكما اكتشفتماها متأخرين جداً».

وببعض كلمات قيلت همساً خلال توزيع ورق اللعب، ذكرت السيدة غارسلان قصةميراث العجوز أوفري، وشرح الموثق جور الفندقي.

سأل رئيس المحكمة السيد تيفين بتهذيب: «وأين كانت هذه الفتاة المسكينة؟

رد روغرون: في مقاطعة بريتانية

وقال وكيل النيابة السيد ولسور: ولكن بريتانية كبيرة.

ورد جيروم موجهاً الحديث إلى أخته: كتب إلينا الجد والجدة لورين، متى كان ذلك يا أختي الطيبة؟»

كانت سيلفي منشغلة بسؤال السيدة غارسلان عن المتجر الذي اشترت منه قماش ثوبها، فلم تنتبه لوقع جوابها المتسرع وقالت: «قبل بيع متجرنا.

وهتف الموثق: وأجبتما منذ ثلاثة أيام فقط يا آنسة».

غدت سيلفي متوهجة بحمرة كالجمر اتقاداً، وتابع روغرون الكلام قائلاً: «وجهنا جوابنا إلى مؤسسة سان جاك».

قال أحد القضاة، وكان من قبل قاضياً احتياطياً في نانت: يوجد ملجأ للعجزة بهذا الاسم، لكن لايمكن أن تكون فيه لأنه لايقبل إلا من تجاوز الستين من العمر.

قال روغرون: إنها هناك مع جدتها لورين.

قال الموثق: كان لها ثروة صغيرة، هي ثمانية آلاف فرنك التي تخلى لها والدكما عنها... عفواً أردت أن أقول تركها لها جدكما، وتظاهر بمكر أنه قد أخطأ في التعبير.

هتف روغرون بمظهر أبله دون أن يدرك هذه السخرية المقذعة[1]: آه!.

وسأل الرئيس: أنتما إذاً لاتعرفان شيئاً عن ثروة ووضع ابنة خالتكما.

---

(١) يلمح الموثق إلى مناورات العجوز روغرون ـ والد سيلفي وجيروم ـ دنيس روغرون ـ واستيلائه على كامل ميراث أوفري، لكن جيروم بلغت به البلادة حداً لم يدرك فيه هذه الزلة المقصودة للسخرية من جشع والده.

وعلق القاضي بقسوة: لو عرف السيد ذلك لما ترك نسيبته في مكان هو ملجأ عجزة رغم سمعته الطيبة. أتذكر الآن إنني اطلعت على عملية بيع بنزع الملكية للسيدة والسيد لورين، مع فك رهن الآنسة لورين له، وكنت في حينه مفوض تنظيم في نانت».

تحدث الموثق عند ذلك عن العميد لورين وعن مدى ماكان سيصيبه من دهشة، لو بقي حياً، إن علم أن ابنته تعيش في ملجأ مثل سان جاك.

انسحب عندئذ الأخوان روغرون وهما يقولان في نفسهما إن العالم لايضمر إلا الخبث؛ وأدركت سيلڤي فشل مسعاها في القصد الذي ابتغته من إعلان هذا الخبر: لقد صغرت في خاطر كل واحد، وسيكون محرماً عليها أن تعاشر مجتمع النخبة في بروفنس، واعتباراً من ذلك اليوم، لم يعد الأخوان روغرون يخفيان كرههما لكبار العائلات البورجوازية في بروفنس ومن ينتمي إليها، وأنشد عند ذاك الأخ لأخته كل الأغاني الليبرالية التي تلقنها من العميد غورو والمحامي ڤينه ضد عائلات تيفين وغينه وغارسلان وغيبن وجوليار، وختمها بقوله: «وهكذا، ياسيلفي، لا أرى كيف يمكن للسيدة تيفين أن تتنكر لتجارة شارع سان دنيس، رغم أن الرائحة العطرة التي تصل أنفها تردها منها. فأمها السيدة روغن هي نسيبة آل غيوم أصحاب متجر **القط اللاهي** الذين تنازلوا عن متجرهم لصهرهم جوزيف لبا، وأبوها روغن ذلك الموثق الفاشل الذي سبب الإفلاس لمؤسسة بيروتو[1]، في العام ١٨١٩. وهكذا فإن ثروة السيدة تيفين أملاك مسروقة، إذ من هي زوجة الموثق التي تتخلص بلباقة، وتترك زوجها يتعرض لعملية إفلاس احتيالية؟ هذا الشيء مستنكر! آه! أدركت الآن: لقد زوجت ابنتها في بروفنس من أجل استمرار علاقتها مع المصرفي دوتيه. ويزهو هؤلاء الأشخاص ويتعالون؛ ولكن... أخيراً هذه هي الدنيا.».

---

(١) هذا المقطع يشير إلى قصة «مجد وشقاء» وقصة «سيزار بيروتو» وهذه الملاحظات الموضوعة على لسان روغرون، هي شروح أضافها بلزاك مؤخراً لربط رواية «بييريت» مع المؤلفات الأخرى من الملهاة الإنسانية.

في اليوم الذي بدأ فيه جيروم-دنيس روغرون وأخته سيلفي في ذم الطغمة أصبحا من الشخصيات في غفلة عنهما، وشقا طريقهما لتكوين عصبة، وغدت صالتهما مركز اهتمامات تفتش عن مسرح لها، وهنا أخذ العقاد السابق أبعاداً تاريخية وسياسية، إذ أنه منح دون دراية منه أيضاً القوة والوحدة لعناصر كانت ماتزال مترددة من الحزب الليبرالي في بروفنس. وإليكم التفاصيل: كانت بدايات آل روغرون قد لوحظت باهتمام من قبل العقيد غورو والمحامي ڤينه اللذين قربت بينهما عزلتهما وأفكارهما؛ وكان هذان الرجلان يجاهران بالآراء الوطنية ذاتها للأسباب ذاتها: إنهما يريدان أن يغدوا شخصيتين ولكن إن كانا متهيئين للقيادة فالجنود تنقصهما، وليبراليو بروفنس يتألفون من جندي قديم غدا بائع عصير؛ ومن فندقي، والسيد كورنان الموثق منافس السيد أوفري؛ والطبيب نيرو منافس السيد ماتنر، وبعض أشخاص مستقلين، مزارعين متفرقين في المنطقة، وبعض متكسبين من الأملاك الوطنية. وكان العميد والمحامي سعيدين في اجتذاب أحمقٍ تساعد ثروته على مناوراتهما، ويوقع عند توقيعهما، ويأخذ في بعض الأحيان زمام المبادرة، ويمكن استخدام منزله كمقر للحزب؛ واستفادا من خصومة الأخوين روغرون مع ارستقراطيي المدينة، وكان العميد والمحامي وروغرون مشتركين مثالثة في صحيفة الدستوري مما يشكل بينهم رابطة خفيفة، ستسهل على العميد غورو أن يجعل من العقاد السابق حزبياً ليبرالياً، رغم قلة معرفة روغرون بالسياسة حتى أنه يجهل مأثرة الرقيب مرسيه[1]: وكان يعتقد أنه أحد زملائه في التجارة[2]. وعجل قرب وصول بييريت في سرعة بروز الأفكار الجشعة المستوحاة من جهل وحماقة الأخوين العازبين. فرؤية ضياع كل فرصة محتملة لانخراط سيلفي في جماعة تيفين، تولدت لدى العميد فكرة مسبقة، فالعسكريون القدامى رأوا كثيراً من

---

(١) في ٤ آذار ١٨٢٣ كلّف الرقيب مرسيه بإخراج النائب مانويل من قاعةالمجلس، لكن الرقيب رفض تنفيذ هذا الأمر. وقد سبق لبلزاك أن نوه بهذه الحادثة وبجرأة الرقيب مراراً.

(٢) MERCIER هو اسم العلم لعائلة الرقيب، لكن الكلمة كفكرة تعني تجارة العقادة التي كان يمارسها روغرون، ومن هنا الالتباس الدال على غباء هذا الشخص.

الأهوال في كثير من البلدان، وكثيراً من الجثث العارية وهي تكشر عن بشاعتها في العديد من ميادين القتال بحيث لم تعد ترعبهم أي سحنة، وصوب العميد غورو سهامه إلى ثروة العانس.

كان هذا العميد رجلاً قصيراً بديناً، تزين أذناه أقراط ضخمة، مع أنها مكسوة من قبل بأشعار كثة، وعارضاه المشعثان الأشيبان كانا يسميان في العام ١٧٩٩ زعنفتين؛ ووجهه الثخين المحمر قد اسمرَّ كوجوه جميع الناجين بعد جسر البرزينا[١]؛ وكرشه البارز يرسم تلك الزاوية المستقيمة المميزة لضابط قديم من سلاح الفرسان، وكان غورو قد قاد كتيبة الخيالة الثانية؛ وشارباه الرماديان يخفيان فماً ضخماً ساخراً، وإن جاز لنا استخدام هذه الكلمة العسكرية، الوحيدة التي يمكن أن تصف هذه الهاوية: نقول إنه لايأكل بل يفترس! وقد جدعت ضربة سيف طرف أنفه، فأصبح في كلامه خنة عميقة تصدر عن صوت بهيم كتلك التي تنسب إلى الكبوشيين. ويداه صغيرتان قصيرتان وعريضتان كأنهما تريدان القول للنساء: «هاتان يدا عنصر يشتهر بالرداءة» وتبدو ساقاه نحيلتين تحت جذعه الضخم. في هذا الجسم الخفيف الحركة، يعمل ذهن ثاقب تزود بمختلف تجارب الحياة وأكثرها اكتمالاً وقد احتجبت تحت اللامبالاة الظاهرية للعسكريين. والعميد غورو يحمل وسام جوقة الشرف من درجة ضابط. ويتلقى راتباً تقاعدياً مقداره ألفان وأربعمئة فرنك سنوياً مما يجعل دخله الكامل ألف إكو في العام.

أما ڤينه المحامي المرافع فرجل طويل نحيل، لا موهبة له إلا آراؤه الليبرالية، ولا دخل له إلا موارد مكتبه الضئيلة، ففي بروفنس يرافع المحامون المرخصون بأنفسهم عن قضاياهم أمام المحاكم، عدا عن أن هذه المحاكم لاتستمع كثيراً للسيد ڤينه بسبب آرائه، وهكذا فإن أكثر المزارعين تحرراً يفضلون في قضاياهم توكيل

---

(١) برزينا: نهر في روسية البيضاء، رافد الدنيبر اشتهر باجتياز جيش نابليون له في تشرين ثاني ١٨١٢ عقب فشل حملة روسية وبفضل تضحيات فوج الجنرال إبله (نوه بلزاك بإقامة الجسر مراراً-(أنظر رواية طبيب الريف: مجموعة بلزاك-الأعمال الكاملة رقم ١٤-ترجمة ميشيل خوري-وزارة الثقافة ١٩٩٤).

محام آخر غير السيد ڤينه ممن يحظون بثقة أكبر في قصر العدل. وقد أغوى ڤينه - على مايقال - فتاة غنية من جوار كولوميه، وأرغم بذلك أهلها على تزويجها له؛ وهي تنتمي إلى آل شارجبُف، عائلة نبيلة عريقة من بري، استمدت اسمها من مأثرة مؤسس الأسرة مدرب الفروسية في حملة سان لويس على مصر[1].

تعرضت الفتاة بعد زواجها لغضب ذويها، الذين اتخذوا ترتيباتهم بمعرفة ڤينه، لتوريث كل ثروتهم لابنهم البكر، مع توصيته، دون شك، بأن يمنح قسماً منها لأولاد أخته، وهكذا فإن المحاولة الجشعة الأولى لهذا المحامي باءت بالفشل، وحل به البؤس، وانتابه الخجل لأنه لايستطيع أن يؤمن لزوجته المظهر اللائق، وبذل الجهد دون جدوى للدخول في إحدى وظائف الدولة؛ لكن الفرع الغني من عائلة شارجبف رفض دعمه، فهؤلاء الملكيون، كأشخاص فاضلين، يستهجنون الزواج الاضطراري، كما أن هذا الصهر المزعوم يسمى ڤينه: فكيف يعترفون بقرابة واحد من عامة الشعب؟ وهكذا أبعد المحامي عن مختلف فروع العائلة عندما أراد استخدام زوجته كوسيلة للتقرب من أنسبائها. ولم تجد السيدة ڤينه من يعترف بقرابتها إلا ارملة فقيرة تعيل ابنتها وتسكنان تروا، وبقي استقبال هذه الأرملة من آل شارجبف ذكرى طيبة من بائسة لبائس نبذه العالم أجمع؛ وامتلأ المحامي حقداً على عائلة زوجته، وعلى الحكومة التي لم تقبله في وظيفة، وعلى مجتمع بروفنس الذي لم يرد قبوله، واستسلم لبؤسه. وازدادت ضغينته ومنحته القدرة على المقاومة، وانتمى إلى الليبراليين، وربط مصيره بانتصار المعارضة، وعاش بخمول في بيت صغير رديء في أعلى المدينة لزمته امرأته وعاشت هذه الشابة بعد أن تعللت بالآمال العريضة في عزلة مع ابن لها. فهناك تعاسات تقبل بنبل وتتحمل برضى، لكن ڤينه المعذب بالجشع أحسّ بالخطأ تجاه شابة أغواها، وبات على غضب مكبوت قاتم، وغدا واسع الذمة يرتضي جميع الوسائل للوصول. وتبدل وجهه الشاب حتى

---

(١) تشكل عائلة شارجبف في الملهاة الإنسانية إحدى أعرق عائلات شامبانية، وفي رواية قضية غامضة يذكر بلزاك أن شعارها هو «الآتي هو الأقوى» أما الاسم فقد يكون وارداً من أن مدرب الفروسية قد قتل ثوراً وحمله على كتفيه خلال حملة سان لويس.

أن بعض الأشخاص أخذ ينتابهم الفزع لرؤية رأسه ذي الوجه الأفعوي والفم المشقوق، والعينين البراقتين عبر النظارات، وعند سماعهم صوته الحاد المصرّ، الضارب على الأعصاب. كانت سحنته المشوشة، المليئة بالتغيرات اللونية المرضية الصفراء والخضراء في بعض الأمكنة، تعلن عن جشعه المكظوم، وخيبات أمله المستمرة، وبؤسه المستتر. وكان يعرف الجدل ويتقن الكلام فلا تنقصه الصور ولا البلاغة، وهو مثقف، داهية، ومؤهَّل - وقد تصور كل شيء رغبة في الوصول - ليغدو رجلاً سياسياً، رجلاً لايتراجع أمام شيء، شريطة أن يكون كل شيء متميزاً بالشرعية ومتصفاً بالقوة: ومن هنا جاءت قوة ڤينه. فهذا المرشح لبطولة المناقشات البرلمانية؛ أحد من سيطالبون بملكية بيت أورلئان، سيكون له تأثير رهيب على مصير بيبريت، وهو يريد في الوقت الحاضر أن يؤمن سلاحاً بتأسيسه صحيفة في بروفنس. وبعد أن درس من بعيد وبمساعدة العميد، الأخوين العازبين، انتهى المحامي إلى الإتكال على روغرون، وفي هذه المرة كان اتكاله مع مضيفه العميد على هذين الأخوين، ووجب على بؤسه أن ينتهي بعد سبع سنوات مؤلمة، مرّ عليه فيها أكثر من يوم دون كسرة خبز في بيته.

في اليوم الذي أعلن فيه غورو لڤينه وهما في الساحة الصغيرة أن الأخوين روغرون قطعا علاقاتهما مع الارستقراطية البورجوازية والمتحزبة للحكومة في الحي الأعلى من المدينة، ضغط المحامي على كشح الضابط بمرفقه بحركة معبرة وقال:

«أياً كان وضع المرأة، جميلة أو دميمة، فهذا أمر غير هام بالنسبة إليك. يجب أن تتزوج الآنسة روغرون وبهذا يمكننا أن ننظم أمراً ما هنا...

رد العميد: خطر ذلك ببالي، لكن الأخوين سيأتيان بابنة العميد المسكين لورين، وهي وريثتهما.

- ستحصل على ثروتهما بموجب وصية. آه! سيكون لك بيت بغاية الترتيب.

قال العميد بلهجة ساخرة، وبمكر عميق أظهر لرجل من طينة ڤينه مدى

لامبالاة هذا المرتزق الفظ بفتاة صغيرة: مع ذلك سنرى ماسيكون من أمر هذه الصغيرة».

منذ أن دخل الجدان إلى الملجأ حيث ينهيان حياتهما بكآبة، وبييريت الشابةالأنوف، تتألم ألماً شديداً حيث تعيش على الإحسان، وأحست بالسعادة عندما عرفت أن لها أنسباء أغنياء؛ وعندما علم بريغو، ابن الماجور ورفيق الطفولة بعزمها على الرحيل، وكان قد أصبح صانع نجار في نانت، جاء وقدم لها ستين فرنكاً هي المبلغ الضروري لسفرها بالعربة، وكل ماكان قد جمعه بعناء من إكراميات، وقبلته بييريت بخلو بال الصداقات الحقيقية السامي، الذي يكشف عن أن إبداء الشكر في مثل هذه الحال يعتبر إهانة.

كان بريغو يهرع كل يوم أحد إلى سان جاك ليلعب مع بييريت ويواسيها، وبذلك أتم العامل النشيط تدريباً عذباً على حماية كاملة ومخلصة للفتاة التي اختارتها عاطفته. في أكثر من مرة كان يجلس مع بييريت، يوم الأحد، في زاوية الحديقة يطرزان على شراع المستقبل مشاريعهما الطفولية: وصانع النجار يتخيل نفسه على حصان مسحجه يطوف العالم ليجمع ثروة لبييريت التي تنتظره.

نحو شهر تشرين أول من العام ١٨٢٤، وكانت بييريت في الحادية عشر من عمرها، عهد الجدان العجوزان، والصديق اليافع صانع النجار، وكآبة رهيبة تخيم عليهم جميعاً ببييريت إلى سائق عربة نانت ـ باريس، مع رجاء وضعها في العربة المتوجهة من باريس إلى بروفنس، والإهتمام بتدبير شؤونها. يا لبريغو المسكين! ركض كجروٍ خلف العربة طالما أمكنه أن يرى صديقته العزيزة بييريت، واستمر رغم إشارات وداع الصغيرة البريتانية يركض إلى مسافة فرسخ خارج المدينة، وعندما أنهكه التعب ألقى على بييريت نظرة أخيرة ملأى بالدموع. كانت بييريت بدورها تبكي، ومدت رأسهامن باب العربة عندما لم تشاهد رفيقها يعدو، فوجدته مسمّراً على ساقيه يتطلع إلى العربةالثقيلة وهي تبتعد.

كان الجدان العجوزان لورين وبريغو يجهلون أمور الحياة بحيث لم يكن في

جيب الصغيرة البريتانية فلس واحد عند وصولها إلى باريس، فسدد عنها سائق عربة نانت ـ بعد أن حدثته عن أنسبائها الأغنياء في بروفنس ـ نفقات الفندق في باريس، التي استردها من سائق عربة باريس ـ بروفنس ـ تروا عندما عهد إليه بالفتاة لإيصالها إلى ذويها مؤملاً إياه بإكرامية سخية. وبعد أربعة أيام من انطلاقها من نانت، ونحو الساعة التاسعة من يوم الاثنين، كان سائق عربة عجوز طيب من مكتب السفريات الملكية يقود بييريت من يدها، بينما عربته تنزل ركاب بروفنس ومتاعهم في مكتب الشارع الكبير، ليوصلها إلى ذويها وفق العنوان المعطى له، وليس معها من الأمتعة إلا ثوبان وجوربان وقميصان.

قال السائق للآنسة روغرون عند الوصول إلى المنزل: «لك تحيتي وتحية مكتب السفريات يا سيدتي، هو ذا نسيبتك التي عهد إلي بتوصيلها إليكم، وهي في الواقع لطيفة جداً، ويترتب لي معكم سبعة وأربعون فرنكاً، وبالرغم من أن حمل الصغيرة خفيف فأرجو توقيع هذا الوصل باستلام أمتعتها.

بدت الفرحة والدهشةعلى الآنسة سيلفي وأخيها، وتابع السائق «عفواً إن عربتي تنتظر، أرجو توقيع هذه الورقة، وإعطائي سبعة وأربعين فرنكاً وستين سنتيماً. . . وماتجودان به لحوذي نانت ولي لإعتنائنا بصغيرتكم كأنها ابنة لنا، إذ سددنا أجرة مبيتها، وثمن طعامها وبعض نفقات نثرية عدا أجرة العربة إلى بروفنس.

قالت سيلفي: سبعة وأربعون فرنكاً واثنا عشر فلساً! . . .

هتف الحوذي: هل ستساومين؟ .

قال روغرون: لكن أين الفاتورة؟

ـ الفاتورة؟ أنظر الورقة.

قالت سيلفي لأخيها: عندما تريد إظهار فصاحتك يجب أن تدفع، أنت ترى جيداً أن مامن وسيلة غير ذلك».

ذهب روغرون وأحضر سبعة وأربعين فرنكاً واثني عشر فلساً.

قال الحوذي: «ونحن ورفيقي وأنا ألا نستحق شيئاً؟»

تناولت سيلفي من أعماق كيسها المخملي الممتلئ بالمفاتيح أربعين فلساً. رفض الحوذي أخذها قائلاً: «شكراً، احفظيها لنفسك، إننا نفضل اعتبار عنايتنا بالصغيرة إكراماً لها» وتناول ورقته وخرج قائلاً للخادمة البدينة: «يا للبيت الحقير، ما كنت أعلم أن التماسيح موجودة هكذا في مكان آخر غير مصر!

قالت سيلفي، وقد سمعت هذا التعليق: يا لفظاظة هولاء الأشخاص!

ردت الخادمة آديل وهي تضع يديها على خصرها: لكن، إن كانوا قد اعتنوا بالصغيرة!

قال روغرون: لكن هذا لايعني أنهم سيقاسموننا عيشنا.

قالت الخادمة: أين أوجه لها منامتها؟.

هكذا كان وصول بييريت لورين واستقبالها لدى ابن وابنه خالتها اللذين نظرا إليها كالمخبولين وهي تُرمَى لديهما كأنها رزمة دون أي تمهيد مابين الغرفة الحقيرة في ملجأ سان جاك حيث كانت تعيش مع جديها، وغرفة طعام نسيبيها التي بدت لها كقاعة في قصر، وهي تدخل إليها منذهلة خجلى، ولو أنهاظهرت أمام أي كان غير هذين العقّادين السابقين للقيت كل المحبة والإعجاب كبريتانية يافعة فاتنة في ثوبها الصوفي الخشن الأزرق، ومريلتها البركالين الوردية، وخفيها الثقيلين، وجوربيها الأزرقين، وشال كتفيها الأبيض، وقفازي راحتي يديها الأحمرين المطرزين ببياض، المشتريين من قبل الحوذي، وقلنسوتها البريتانية المنظفة في باريس (بعد أن دعكت خلال الرحلة من نانت)، هذه القلنسوة الوطنية المحيطة بوجهها الصبوح كهالة تستحق وصفاً مفصلاً لبساطتها واتقانها، فهي من قماش قطني رقيق مزخرف بمخرمات مشدودة بثنيات تشبه الأنابيب المسطحة، والنور المتسرب عبر القماش والتخريم ينسكب كظليل ناعم على الوجه، فيمنحه تلك الجاذبية العذرية،

التي يسعى الفنانون لتجسيدها في لوحاتهم، والتي عرف ليوبولد روبير كيف يصورها في الوجه الرفاييلي للمرأة التي تحمل الطفل في لوحة الحصادين[1]. ضمن هذا الإطار المزخرف بالظل والنور، يبرز وجه أبيض ووردي، ساذج، مفعم بعلائم الصحة الأكثر نضارة. ودفعت حرارة الصالة الدم ليمنح وهج النار للأذنين الصغيرتين الجميلتين، والشفتين، وطرف الأنف المستدق، مما يجعل بالمقابل بقية قسمات الوجه أكثر بياضاً.

قالت سيلفي: «وبعد، ألا تحدثينا بشيء؟ أنا ابنة خالتك، وهذا أخي روغرون.

سألها روغرون بدوره: أتريدين أن تأكلي؟

وتابعت سيلفي: متى تركت نانت؟

قال روغرون: يبدو أنها خرساء!

هتفت آديل البدينة وهي تفك صرة الثياب الملفوفة بمنديل العجوز لورين: يا للصغيرة المسكينة، ليس معها إلا الأطمار.

قالت سيلفي: قبلي ابن خالتك».

وقبلت بييريت روغرون.

وقال روغرون: «قبلي ابنة خالتك».

---

(١) ليوبولد روبير (١٧٩٤-١٨٣٥) رسام سويسري، و تلقى دورساً في الرسم من جيراردو ودافيد وغرو، رسم أجمل لوحاته في إيطالية، وكانت شخصياته غالباً من الفلاحين الإيطاليين، نالت لوحة «الحصادين» نجاحاً كبيراً حتى رُسِمَ عنها نسخ عديدة، ولنشر إلى أن الجرد الفني لشارع فورتونه يشير تحت عنوان «صالون الاستقبال» إلى مزهريتين من بورسلين سيفر، ارتفاع كل منهما ١,٢٧م، لون الأساس فيهما «شوكولا» رسم على إحداهما لوحة «الحصادين» وعلى الأخرى لوحة «قطافي العنب» لليوبولد روبير وعلى الوجه الآخر في كل من المزهريتين مدالية من الأزهار. والمزهريتان كثيرتا الزخرفة ومذهبتان. وهكذا فإن إعجاب بلزاك بهذا الرسام له مايبرره.

وقبلت بييريت سيلفي.

قالت آديل: أن هذه الصغيرة متعبة من السفر، وهي بحاجة للنوم على الأرجح.

أحست بييريت فجأة تجاه نسيبتها بنفور لايقاوم وهو شعور لم يوح إليها به أحد حتى الآن، وذهبت سيلفي وخادمتها لإرقاد البريتانية الصغيرة في إحدى غرف الطابق الثاني، حيث لمح بريغو ستارة الكاليكوت البيضاء، وهي غرفة تحتوي على سرير ضيق ذي سهم مدهون بالأزرق تتدلى منه ستارة كاليكوت أيضاً، وصوان ملابس من خشب الجوز دون بلاطة مرمر في أعلاه، ومنضدة صغيرة من الجوز، ومرآة، وخزانة زينة دون باب، وثلاثة كراسي سيئة، والجدران المنحنية السقف من الأمام مبطنة بورق أزرق رديء تنتشر عليه أزهار سوداء، وبلاط الغرفة الملون والمدعوك يجمد القدمين ببرودته، وما من سجادة تفرشه إلا بساط مثبت في طرفي السرير؛ والمدفأة من رخام شائع، تزينها مرآة، وشمعدانان من نحاس مذهب، ووعاء مبتذل من الألبستر تشرب على حافته حمامتان تمثلان عروتيه، وقد كان سابقاً في غرفة سيلفي في باريس.

قالت سيلفي لبييريت: «هل ستكونين مرتاحة هنا، يا صغيرتي؟

أجابت الفتاة بصوتها الفضي الجرس: أوه! إنه مكان جميل جداً.

تمتمت الخادمة البدينة ابنة منطقة بري: «ليست صعبة هذه الصغيرة» ثم سألت سيدتها: «ألا يجب تدفئة سريرها»

أجابت سيلفي نعم، فالشراشف يمكن أن تكون رطبة.

أحضرت آديل مع مدفأة السرير إحدى قلنسوات نومها، وبدت بييريت، وهي التي لم تنم إلا على شراشف من القماش البريتاني الخشن، مندهشة من نعومة ورقة شراشف القطن، وبعد أن استقرت الصغيرة في غرفتها ونامت، نزلت آديل إلى الطابق الأول ولم تستطع إلا أن تهتف: «إن أمتعة الصغيرة، يا آنسة، لاتساوي ثلاثة فرنكات.»

منذ أن اتبعت سيلفي نظام الادخار الاقتصادي، كانت تسمح لخادمتها أن تبقى مساء في قاعة الطعام حتى لاتشعل في البيت إلا ناراً واحدة وإنارة واحدة لكن عندما يأتي العميد غورو والمحامي ڤينه للسهرة تنسحب آديل إلى المطبخ.

في ذلك المساء كان وصول بييريت هو موضوع السهرة.

قالت سيلفي: «يجب منذ نهار غد أن نعد لها جهازاً، فليس لديها شيء.

قالت آديل: ليس لديها إلا حذاؤها الضخم الذي يزن ليبرة.

قال روغرون: هذا هو طراز الأحذية في تلك المنطقة.

واستأنفت آديل: وكم أعجبت بتلك الغرفة، رغم أن حالتها لاتليق بنسيبة لك يا آنسة!

قالت سيلفي: اسكتي، إنها جيدة، ألم تري مبلغ فرحها بها؟.

قالت آديل وهي تفرغ صرة بييريت: يا إلهي، أي قمصان هذه! لاشك أنها تخرش بشرتها، رغم أنها الآن غير صالحة للاستعمال.

قضى سيد المنزل وسيدته والخادمة حتى العاشرة مساءً وهم يبحثون في نوع القماش الذي يجب أن يستخدم لقمصان الصغيرة، وعدد الجوارب اللازمة لها، والتنانير ونوعيتها وتقدير ثمن كل من هذه القطع اللازمة لجهاز بييريت.

قال روغرون لأخته وهو يحفظ بحكم العادة ثمن كل قطعة ويجري حساباته شفهياً: «لن تخرجي من ذلك بأقل من ثلاثمئة فرنك.

هتفت سيلفي: ماذا؟ ثلاثمئة فرنك؟

ـ نعم، ثلاثمئة فرنك!، احسبي.

أعاد الأخوان حساباتهما، ووجد أنها، مع مراعاة البساطة، لن تقل عن ثلاثمئة فرنك.

قالت سيلفي وهي تختم الحديث بالتعبير الجاري مجرى المثل: ثلاثمئة فرنك دفعة واحدة!»

كانت بييريت إحدى الفتيات اللواتي نشأن في أحضان الحب، وقد منحها الحب الحنان والحيوية، والمرح، والنبل، والتضحية، ما من شيء حتى الآن أفسد الرقة شبة البدائية في قلبها أو عكرها. لكن استقبال نسيبيها قهرها بشكل مؤلم. ولئن كانت بريتانية بالنسبة لها مليئة بالبؤس، فقد كانت أيضاً مليئة بالود، ولئن كان العجوزان لورين تاجرين فاشلين، فإنهما كانا أيضاً الجدين الأكثر محبة، وصراحة، وملاطفة في الدنيا، كجميع الأشخاص الطيبي النوايا. ولم تعرف حفيدتهما في بنهويل تعليماً إلا ماتعلمته في الطبيعة، فكانت تنطلق على هواها في زورق فوق مياه البرك المنتشرة في المنطقة، وتجري في الحقول بصحبة رفيق طفولتها جاك بريغو، كما بول وفرجيني [1] تماماً، يستقبلهما ويلاطفهما كل الناس، وكان يركضان حرين كالنسيم وراء متع وتسليات الطفولة، في الصيف يذهبان لرؤية الصيادين، ويجريان وراء الفراشات، ويجمعان باقات الأزهار، ويزرعان بعض البقول؛ وفي الشتاء يعدان زلاقات على الجليد أو يصنعان تماثيل وقصوراً من ثلج أو يتضاربان بكراته مع غيرهم والجميع يرحب بهما ويستقبلهما بالابتسامات. وعندما وصلا إلى سن الدخول في المدرسة حلت بهما الكوارث، فتوفي والد جاك واضطر ذووه لوضعه لدى نجار ليتعلم المهنة، ويتغذى بالإحسان، كما انتقلت بييريت فيما بعد مع جدّيها إلى ملجأ سان جاك؛ ولكن حتى في ذلك المكان الخاص دللت بييريت، لما تميزت به من لطف، ودوعبت وحُميت وتمتعت برعاية جميع الناس، فكانت الصغيرة التي ألفت الود الذي لم تلقه لدى هذين النسيبين اللذين رغبت بهما، ولم تحظ لديهما، على غناهما، بذلك المظهر، والكلمات، والنظرات، وحسن المعاملة التي لقيتها من جميع الناس، حتى الغرباء، وحتى سائقي العربتين اللتين سافرت فيهما؛ وهكذا فإن ذهولها على كبَره تعقد بتغير الجو المعنوي الذي دخلت فيه والقلب كالجسم يحس فجأة بالبرودة والحرارة. وتملكت

---

(١) من المؤكد أن رواية بول وفرجيني اعتبرت إلى حد ما كنموذج لحب بييريت وبريغو البائس والمستحيل، لكن بلزاك الأكثر واقعية من برناردن دي سان بيير وضع بطليه ضمن سياق اجتماعي وسياسي، كما أن بطله لم يمت من الحزن، بل بالعكس تمكن أن يقهر حزنه ويحيا بأنفة وكرامة.

الفتاة، دون أن تدري السبب، رغبة في البكاء: وكانت متعبة فنامت، لكنها! استيقظت، وهي المتعودة على النهوض باكراً كجميع أبناء الريف، قبل نهوض الطاهية بساعتين. وارتدت ثيابها، وتجولت في غرفتها الواقعة فوق غرفة ابنة خالتها، ونظرت إلى الساحة الصغيرة، وجربت أن تنزل، ودهشت لجمال السلم، وتأملته بجميع تفاصيله، رأت المشاجب، والنحاسيات والزخارف، واللوحات، إلخ... ثم نزلت، لكنها لم تستطع فتح باب الحديقة، فصعدت إلى غرفتها مجدداً، وعادت فنزلت عندما أحست باستيقاظ آديل، وقفزت إلى الحديقة، ووجدت المتعة فيها، وركضت حتى النهر، وأذهلها الكشك، فدخلت إليه، وقضت الوقت تتأمل وتعجب مما تشاهده حتى نهوض نسيبتها سيلفي التي قالت لها على مائدة الغداء: «أهو أنت إذاً، يا صغيرتي العزيزة، من كان يقفز منذالفجر على السلم ويحدث كل هذا الضجيج؟ لقد أيقظتني، ولم أستطع معاودة النوم، يجب أن تكوني أكثر هدوءاً ولطفاً، وتتسلين دون جلبة، فابن خالتك لايحب الضجيج.

قال روغرون: كما يجب أن تنتبهي إلى قدميك، فقد دخلت إلى الكشك وحذاؤك ملطخ بالوحل فتركت علائم خطاك على أرضيته، وابنة خالتك تحب النظافة. ألم تكوني نظيفة إذاً في بريتانية؟ ولكن هذا صحيح، عندما ذهبت إليها لأشتري خيوطاً، كانت رؤية هؤلاء المتوحشين تثير الشفقة.

ثم التفت إلى أخته وقال: على كل حال، إن لها شهيةطيبة، لكأنها لم تأكل منذ ثلاثة أيام.»

وهكذا فمنذ اللحظة الأولى، جُرحت بييريت بملاحظات نسيبيها دون أن تدري السبب، فطبيعتها المستقيمة الصريحة التي تركت على فطرتها كانت تجهل التبصر، وقد عجزت عن أن ترى مايخطئها به نسيباها، فكان تأملها هو الموضّح لها تدريجياً.

بعد الغداء، سُعدَ النسيبان باندهاش بييريت فاستعجلا الاستمتاع بذلك فأطلعاها على صالتهما الجميلة ليعلماها احترام مظاهر البذخ فيها. فهذان العازبان

دفعا، نتيجةعزلتهما، بتلك الضرورة المعنوية، للاهتمام بشيء ما، ووصل بهما الأمر إلى أن يستبدلا بالعواطف الطبيعية عواطف متكلفة، فأحبّا الكلاب، والقطط، والعصافير، وخادمتهما أو مدير عملهما. وهكذا وصل روغرون وسيلفي إلى حب مفرط لأثاثهما، ومنزلهما اللذين كلفاهما غالياً، وانتهت سيلفي إلى أن تعين آديل كل صباح، بعد ملاحظة جهلها، في تنظيف الأثاث وفرجنته، والمحافظة على جِدّته فكانت هذه العناية شغلها الشاغل، فهي تريد بدلاً من أن يخسر الأثاث من قِيمته أن تزيده منها باستخدام لايدعكه، ولايوسخه ولايحكُّ خشبه، ولايمحو بريقه، وكان ذلك معضلة غدت بالنسبة للعانس هوساً. واقتنت سيلفي في خزانة قطع قماش صوفية، وشمعاً، وبرنيقاً، وفراجن، اتقنت استعمالها كاتقان أمهر النجارين، وكان لديهامنافض الريش ومماسح الغبار، وأخيراً كانت تفرك بشدة دون أن يتجدد حظّها في أن تجرح[1] فبأسهاشديد، ونظرة عينها الزرقاء، الباردة، القاسية كالفولاذ تنزلق حتى تحت الأثاث حتى قد يكون من الأهون أن يعثر في قلبها على ذرة شفقة من أن يرى تحت أريكة ذرة غبار.

تعذر على سيلفي بعد كل ماصرحت به لدى السيدة تيفين أن تتراجع أمام ثلاثمئة فرنك. وهكذا كانت خلال الأسبوع الأول من مجيء نسيبتها منشغلة كلياً، وبييريت تنتابها الدهشة دون انقطاع بالأثواب التي يجب أن تختارها، أو تجربها، والقمصان والتنانير الواجب تفصيلها وخياطتها من قبل من يعملن بالأجرة، فبييريت لاتعرف الخياطة.

علّق روغرون على عدم خبرتها: «أي تربية نشأت عليها!» والتفت إلى نسيبته يسألها«أنت لاتعرفين القيام بأي عمل إذاً، يا ظبيتي الصغيرة؟».

وكانت بييريت التي لاتعرف إلا أن تحب تقتصر في جوابها على ابتسامة لطيفة تعبر عن كل مافيها من براءة.

---

(١) تلميح إلى إنقطاع طمثها لتقدمها في العمر، وتهيئة لسبب المرض الذي سيصيب بييريت مما سيرد ذكره لاحقاً.

سألها روغرون: «ولكن كيف كنت تقضين أوقاتك في بريتانية؟

أجابت بسذاجة: كنت ألعب، فالجميع يلاعبونني، وجدي وجدتي، كل من جهته، يقصان عليّ الحكايات، آه! كم كنت محبوبة.

رد روغرون: آه! كم كنت منشغلة إذاً!»

لم تفهم بييريت مضمون هذه السخرية الخاصةبشارع سان دنيس فظهرت الدهشةفي عينيها. وقالت سيلفي للآنسة بوران أمهر عاملة خياطة في بروفنس:

«إنها حمقاء كسلةٍ فارغة

ردت الخياطة مبديةإعجابها ببييريت الملتفتة إليها بمحيا طلق: إنها ماتزال طفلة.

كانت بييريت تفضل معاشرة العاملات على محادثة نسيبيها، فهي تتلاطف معهن، وهي ترقب أعمالهن، وتوجه لهن هذه الكلمات العذبة كأزهار الطفولة التي يحول روغرون وسيلفي دون تفتحها بالخوف الذي يرهبان به تابعيهما، بينما تبث بييريت الفرحة بين العائلات، غير أن الجهاز لم يكتمل دون إبداء ملاحظات عديدة.

قالت سيلفي لأخيها: هذه الفتاة ستكلفنا دموع العين!»

وكانت تقول لبييريت عند إجراء قياس لها: اثبتي دون حراك يا صغيرتي! يا للشيطان، هذا العمل لك، وليس لي.

ثم تقول وهي تراها تسأل العاملة الأولى عن شيء ما: «دعي الآنسة بوران تعمل، فلست أنت التي تدفعين لها أجرتها اليومية!»

سألتها الآنسة بوران: «هل يجب إجراء خياط مرتدة يا آنسة؟

ـ نعم، أجري كل مايزيدها متانة، فأنا لا أنوي صنع جهاز جديد كل يوم»

وتصرفا بالنسبة لنسبيتهما كتصرفهما في ترميم البيت، فبييريت يجب أن تكتسي ككسوة ابنة السيدة غارسلان، وأن يكون حذاؤها من الجلد البرونزي، بمثل طراز حذاء ابنة تيفين، ولها جوارب من قطن ناعم جداً، ومشد متين الصنع،

وثوب من الحرير الأزرق، ومعطف جميل مبطن بتفتا بيضاء لتنافس فيه ابنة السيدة جوليار، كما يجب أن تكون ثيابها الداخلية متلائمةمع ما فوقها، فسيلفي تخشى عيون الأمهات المدققة، وهكذا أُعدت لبييريت قمصان جميلة من الدبلان الهندي، وذكرت الآنسة بوران أن بنات مدير المنطقة يرتدين سراويل من البركال المطرز وهو الزي الحديث السائد، فأعدّ لبييريت سراويل ذات حواشي. كما أوصي لها على معطف ذي قلنسوة من المخمل الأزرق مبطن بساتين أبيض مماثل لمعطف ابنة مارتنر، وهكذا غدت بييريت أنعم فتاة في كل بروفنس، مما دفع جميع السيدات، عند الخروج من الكنيسة يوم الأحد، بعد حضور القداس، لتقبيلها، فالسيدات تيفين، وغارسلان، وغلاردون، وأوفري، ولسور، ومارتنر، وغيبن، وجوليار، شغفن بالبريتانية اللطيفة، وهذا الشغف المفتتن أثار زهو سيلفي التي كانت ترى في إحسانها لبييريت وسيلة لانتصار غرورها. غير أن سيلفي انتهت إلى الإنزعاج من نجاحات نسيبتها، وتوجيه الدعوات باستمرار لها بعد استئذان العانس، ولكي تتباهى على هؤلاء السيدات كانت تلبي طلباتهن باستمرار، فيرسلن من يصحب بييريت إليهن حيث تشارك بناتهن في لعبهن وفي حفلاتهن ووجبات طعامهن الخفيفة، ونجحت بييريت في الاختلاط بهذه النخبة أكثر بما لايقاس من نجاح روغرون وأخته. واغتاظت الآنسة سيلفي من رؤية الأخريات يوجهن الدعوات لبييريت دون أن يفكرن بزيارتها، ولم تخف الفتاة البريئةماتلقاه من مسرات لدى السيدات تيفين ومارتنر وغلاردون وجوليار ولسور وأوفري وغارسلان؛ وهن من وجدن ملاطفاتها تتناقض بشكل غريب مع ازعاجات نسيبتها. إن الأم تسعد كثيراً لسعادة ولدها، لكن الأخوين روغرون جاءا ببييريت من أجل نفسيهما لا من أجلها، فعواطفهما بعيدة عن كونها أبوية وهي ملطخة بالأنانية، وبنوع من الاستثمار التجاري.

بدأت تعاسة بييريت مع الجهاز الجميل وأثواب الأحد الأنيقة، وثياب كل الأيام؛ فهي كجميع الأولاد المنطلقين في تسلياتهم، المتعودين على اتباع ايحاءات نزاوتهم، كانت تبلي أحذيتها بسرعة، وأثوابها، وسراويلها ذات الحواشي. والأم

عندما تلوم ولَدها لاتفكر إلا به، وتعاتبه بكلمات رقيقة لاتقسو فيها إلاعند أخطاء الولد، لكن في قضية الكساء الكبرى، فإن إكوات النسيبين هي السبب الأول: فالأمر يتعلق بهما وليس ببيريت. وللأولاد حاسةشم السلالة الكلبية حيال أخطاء من يحكمونهم، فهم يشعرون بشكل باهر إن كانوا محبوبين أو متسامح معهم، والقلوب النقية أكثر تكدراً بالفروق منها بالتناقضات: إن الطفل قبل أن يدرك الشر يشعر بما يمس إحساس الجمال الذي وضعته الطبيعة فيه. والنصائح الموجهة لبيريت نحو انتباه الفتيات المهذبات بالهندام والبساطةوالاقتصاد هي لازمة للموضوع الرئيس: «بيريت تسبب خرابنا!». وهذه التوبيخات بنتائجها المشؤومة على بيريت ردت العازبين إلى عادتهما التجارية السابقة التي ألهتهما عنها إقامتهما في بروفنس، بعد أن تفتحت فيها طبيعتهما وأزدهرت. كانا قد تعودا على الحكم بتسلط، إبداء الملاحظات، وتوجيه الأوامر، وتوبيخ مستخدميهما بعنف؛ فكانا يتلفان لعدم وجود ضحايا، والنفوس الصغيرة تحتاج للاستبداد لتدريب أعصابها، كما تتعطش النفوس الكبيرة للعدالة لإظهار نبل قلبها. والحال أن الأشخاص الضيقي الأفق يتفاخرون بالاضطهاد كما بالإحسان، ويمكنهم أن يبرهنوا على قدرتهم بتسلط غاشم أو إحسان على أحد غيرهم، وهم يذهبون في الاتجاه الذي يدفعهم فيه مزاجهم؛ فإذا أضيف حافز المصلحة يتم الحصول على مفتاح سر معظم القضايا الاجتماعية. ومنذ ذلك الحين غدت بيريت ضرورية جداً لحياة نسيبها. فمنذ وصولها انشغل الأخوان بجهازها، ثم توجّها إلى جدّة معايشتها، وكل شيء جديد، أكان عاطفة وحتى سيطرة له انعطافاته. وقد بدأت سيلفي بمخاطبة بيريت يا صغيرتي، ثم تركت ذلك إلى مناداتها بيريت دون أي إضافة متوددة. كانت التوبيخات في البدء مرة ـ حلوة، فغدت عنيفة قاسية، وما إن سلك الأخوان هذا الطريق، حتى حققا فيه نجاحات سريعة: فهما لايملان أبداً! فليس الأمر إعداد مؤامرة يتجلى فيها الخبث والقسوة وإنما هو غريزة استبداد أحمق. اعتقد الأخوان نفسيهما مفيدين لبيريت، كما اعتقدا سابقاً بفائدتهما للعاملين لديهما. وكانت بيريت بحساسيتها الحقيقية، النبيلة، المرهفة، هي النقيض لفظاظة الأخوين،

وتعرضت لملامات قاسية أثَّرت عليها بشدة حتى أن دمعتين ترقرقتا في عينيها الجميلتين الصافيتين، كان عليها أن تصارع كثيراً قبل أن تكبت حيويتها المحببة التي أعجبت كل من هم خارجاً، وبسطتها بانشراح لدى أمهات صديقاتها الصغيرات، لكنها في المنزل، ونحو نهاية الشهر الأول، بدأت تظهر مستكينة، وسألها روغرون إن كانت مريضة، وعند هذا السؤال الغريب، قفزت إلى طرف الحديقة، لتبكي على ضفة النهر، حيث تساقطت دموعها في تياره، كما ستسقط هي بذاتها ذات يوم في التيار الاجتماعي. وفي يوم رغم حرصها أحدثت شقاً في ثوبها الحريري الجميل لدى السيدة تيفين حيث ذهبت لتلعب خلال صبيحة يوم جميل، ، وأجهشت بالبكاء حالاً متوقعة التوبيخ القاسي الذي ينتظرها في المنزل. وأفلتت منها عند سؤالها عن سبب بكائها بعض كلمات عن معاملة ابنة خالتها الرهيبة، وكان لدى السيدة تيفين الفاتنة قماش مماثل لقماش الثوب فأبدلت لها بنفسها القسم المعطوب من الثوب، ووصل الخبر للآنسة روغرون، فاعتبرت، وفقاً لتعبيرها هذا الأمر لعبة من الفتاة الصغيرة البغيضة للسخرية منها، ومنذ ذلك الوقت منعت بييريت من تلبية دعوة هؤلاء السيدات.

تنقسم حياة بييريت الجديدة في بروفنس إلى ثلاثة أطوار متميزة. بدأ الطور الأول منها بتمتعها ببعض سعادة مختلطة بملاطفات باردة من العازبين وبملامات حادة بالنسبة لها، ودام ثلاثة أشهر، وانتهى بمنعها من الذهاب لزيارة صديقاتها الصغيرات، بحجة الضرورة في أن تبدأ بتعلم كل مايجب أن تعرفه الفتاة الحسنة التربية، وكان هذا الطور هو الفترة الوحيدة التي بدا لها وجودها في بروفنس محتملاً.

هذه الحركات الداخلية التي حدثت لدى آل روغرون نتيجة إقامة بييريت، دُرِسَت من قبل ڤينة والعميد، بحذر الثعالب الراغبة في دخول قنّ، لكنها فوجئت برؤية وافد جديد سبقها إليه؛ وكان كلاهما يقاربان الموضوع من بعيد كي لايسببا الذعر للآنسة سيلفي، ويتطرقان إليه مع روغرون بذرائع مختلفة ويفرضان نفسيهما

بحذر وبطرائق تستحق إعجاب طرطوف الشهير[١]. وكان العميد والمحامي يقضيان السهرة لدى الأخوين روغرون في ذات اليوم الذي رفضت فيه سيلفي وبتعابير شديدة المرارة، أن تسمح لبييريت بتلبية دعوة السيدة تيفين الفاتنة. وبتبليغها خبر هذا الرفض نظر كل من العميد و المحامي إلى الآخر نظرة من يعرف جيداً بروفنس وقال المحامي: «قصدت يقيناً، ار تكاب حماقة تثير سخطك، وسبق منذ مدة أن نبهنا روغرون إلى ما سيحصل لكما، فما من شيء حسن يصدر عن هؤلاء الأشخاص».

هتف العميد وهو يفتل شاربيه ويقاطع المحامي: «وماذا ينتظر من أفراد حزب مضاد للأمة؛ لو سعينا لإبعادكما عنهم لفكرتما أن لدينا أسباباً لكرههم تدفعنا إلى ذلك. ولكن إن كنت يا آنسة، ترغبين بإجراء لعبة بوسطن صغيرة، فلماذا لاتقومين بها مساء لديك؟ هل من المستحيل إذا الاستغناء عن هؤلاء الغلظاء أمثال آل جوليار؟ إنني وفينه نعرف اللعبة وسنجد لك رابعاً، وبإمكان فينه أن يعرفكما على زوجته، إنها سيدة لطيفة، إضافة إلى كونها من عائلة شارجبف، وأنتما لن تتصرفا كهؤلاء القردة سكان حي المدينة العلوي، ولن تتطلبا هندام دوقة أو زينتها من سيدة طيبة ربة منزل ألزمتها مقاطعة عائلتها لها أن تقوم بأعمال بيتها بنفسها وهي تجمع شجاعة الأسد إلى وداعة الحمل».

كشفت سيلفي عن أسنانها البارزة الصفراء وهي تبتسم للعميد الذي تحمل هذه الظاهرة الرهيبة وبدا بمظهر المتملق.

أجابت: «إن اقتصرنا على أربعة فاللعبة لن تتم كل مساء[٢].

رد العميد: «وماذا تريدين من ناقم عتيق مثلي أن يفعل إلا أن يقضي الوقت

---

(١) طرطوف: الشخصية الرئيسة في مسرحية موليير الشهيرة التي تحمل ذات الاسم والتي سمح بعرضها في العام ١٦٦٩ والإشارة هنا تلميح إلى البيتين الشعريين من المشهد الأول من الفصل الأول:

يقيناً، إنه لشيء يثير السخط
أن يرى مجهول من الداخل، يفرض نفسه..

(٢) المقصود أن أحد الأربعة قد يتغيب، أو تمنعه مشاغله عن الحضور فلا تتم اللعبة.

في تبذير معاشه التقاعدي، كما أن المحامي لا عمل له مساءً؛ إضافة إلى أن آخرين سينضمون إلينا، أعدك بذلك، ونطق بعبارته . الأخيرة بشيء من الغموض.

قال فينه: يكفي أن تقفي صراحة ضد أنصار الحكومة وأن تصمدي في معارضتهم، وسترين مدى ماستقابلين به من ود في بروفنس، وسيقبل الناس عليكما، وتغيظان آل تيفين بمنافستهم في فتح صالونكما، وعندها سنسخر من الآخرين إن سخر الآخرون بنا، عدا عن أن الطغمة لم تخجل في الإساءة إليكما!»

ردت سيلفي: كيف؟»

في المقاطعات يوجد أكثر من منفس تتسرب منه الثرثرات بين وسط اجتماعي وآخر. وفينه كان مطلعاً على جميع الأقاويل التي ترددت عن الأخوين روغرون في الصالونات التي أبعد عنها العقادان نهائياً. فقاضي الاحتياط، عالم الآثار دفوندريل لم يكن ينتمي إلى أي حزب، وهذا القاضي، كغيره من بعض الأشخاص المستقلين الآخرين، كان يروي كل ما يسمعه على عادة أهل المقاطعات، واستغل فينه هذه الثرثرات لمصلحته، وسمم هذا المحامي سخريات السيدة تيفين بترديدها، وبكشفه عن المخاتلات التي تعرض لها روغر ون وسيلفي، أثار الغضب وأيقظ روح الانتقام لدى هاتين الطبيعتين الجافتين اللتين تريدان غذاء لأهوائهما الصغيرة.

بعد بضعة أيام، صحب فينه زوجته إلى منزل روغرون، وهي سيدة جمَّة التهذيب، بادية الخجل، ليست بالدميمة ولا الجميلة، لطيفة جداً، وتحس جيداً بتعاستها. كانت السيدة فينه شقراء، تبدو مجهدة بما تقوم به من أعمال منزلية، لكنها تتصرف بلباقة وبساطة فائقة. وما من امرأة يمكن أن ترضي سيلفي مثلها، فهي تتحمل كل نزواتها وتستكين لها كامرأة تعودت على الإستكانة. كان على جبينها المحدب، وخديها المحمرين كوردة البنغال، وفي نظرتها الهادئة العذبة، آثار تلك التأملات العميقة، وتلك الفكرة النافذة، التي تدفنها النساء المتعودات على الألم في صمت مطلق.

اقترن تأثير العميد، وهو يبدي لسيلفي تظارفات مغازلة مقتلعة ظاهراً من خشونته العسكرية، بتأثير فينه البارع، في التسلط على بييريت، المنحبسة في المنزل حيث لم تعد تخرج إلا برفقة ابنة خالتها العانس. وكانت وهي النشطة كسنجاب جميل تتعرض في كل لحظة للقول: «لاتلمسي هذا، يا بييريت!» أو لتلك العظات المتواصلة حول طريقة الوقوف، فبييريت تبرز صدرها وتوتر ظهرها، وتريدها سيلفي أن تقف مستقيمة مثلها، كجندي يقدم سلاحه لعميده، وكانت توجه لها أحياناً نقرات على ظهرها لتخفف من توتره، واضطرت ابنة الماريه الحرة المرحة أن تكبح حركاتها وتقلد إنساناً آلياً.

في إحدى الأمسيات التي تعتبر دلالة على بدء الطور الثاني من حياة بييريت في بروفنس، حضرت الفتاةبعد أن لم يرها ضيوف الصالون الدائمون طيلة تلك السهرة، لتقبل نسيبيها وتحيي الحاضرين قبل أن تذهب للنوم. وأدارت سيلفي خدها ببرود لتلك الفتاة اللطيفة، كأنها تريد أن تتخلص من قبلتها، وكانت الحركة ظاهرة الجفوة، مما دفع الدموع إلى عيني بييريت.

قال لها ڤينه بخبث: «هل أنت مغتاظة، يا صغيرتي بييريت؟

وسألتها سيلفي بقسوة: مادهاك؟

قالت الفتاة المسكينة: لاشيء، وذهبت لتقبل روغرون.

استأنفت سيلفي: لاشيء؟، ما من أحد يبكي دون سبب.

وسألتها السيدة فينه: مالك ياصغيرتي الجميلة؟

- إن ابنة خالتي الغنية لاتعاملني بمثل حنان جدتي الفقيرة... !

ردت سيلفي: إن جدتك أخذت منك ثروتك، وابنة خالتك ستترك لك ثروتها»

تبادل العميد والمحامي النظرات خلسة.. وردت بييريت:

«أفضل أن أكون مسروقة ومحبوبة.

- حسن، سنعيدك إلى المكان الذي أتيت منه.

بييريت - م٦

قالت السيدة فينه: ولكن ماذا فعلت هذه الصغيرة العزيزة؟

ألقى فينه على زوجته تلك النظرة الرهيبة الثابتة والباردة المميزة للأشخاص الذين يمارسون هيمنة مطلقة؛ فاستكانت المسترقة المسكينة[1]، المعاقبة دون انقطاع، لأنها لم تستطع الحصول على الشيء الوحيد الذي أريد منها، وهو الثروة؛ وأمسكت مجدداً بأوراق لعبها.

هتفت سيلفي وهي ترفع رأسها بحركة مفاجئة حتى أن زهرات المنثور الصفراء التي تزين قلنسوتها أخذت تهتز: ماذا فعلت؟ إنها لاتعرف ماذا تبتكر لمعاكستنا: فتحت ساعتي لتعرف آلية حركتها، ولمست دولابها وكسرت نابضها الكبير. والآنسة لاتسمع كلمة وأنا لا أفتأ طيلة اليوم أنبهها للاحتراس من ملامسة أي شيء، وكأنني أكلم هذا المصباح» أحست بييريت بالخجل لتأنيبها بحضور الغرباء، فخرجت برفق.

قال روغرون: «أتساءل كيف يمكن كبح شيطنة هذه الفتاة.

وقالت السيدة فينه: إنها أكبر سناًمن أن ترسل إلى مدرسة داخلية».

فرضت نظرة جديدةمن فينه الصمت على زوجته، وكان قد كتم عنها مخططاته، ومخططات العميد المتعلقة بالأخوين العازبين.

هتف العميد: «هذه نتيجة تحمل عبء أولاد الآخرين، ما يزال أمامكما متسع للإنجاب أنت أو أخيك، فلماذا لايفكر كل منكما بالزواج.

نظرت سيلفي بسرور بالغ إلى العميد: فلأول مرة في حياتها تصادف رجلاً لاتبدو له فكرة زواجها، بعد هذا العمر، غير معقولة.

هتف روغرون: لكن السيدة فينه على صواب، فالتعليم يساعدعلى تهدئة بييريت، وتوظيف معلم لها لايكلف نفقة كبيرة.

---

(١) يلاحظ مثل هذا المشهد في رواية «أوجيني غرانده» وبين فينه وغرانده بعض أوجه الشبه، فبلزاك شبه كل منهما بحيوان ذي دم بارد، كما أن صفة مسترقة أطلقت أيضاً على السيدة غرانده.

كانت كلمة العميد قد شغلت سيلفي عن كل شيء، فلم تجب على ملاحظة أخيها. ورد فينه على روغرون بالقول:

«إن أردت فقط أن تؤمن لنا الكفالة لصحيفة المعارضة التي تحدثنا عنها، فستجد معلماً لنسيبتك الصغيرة في الناشر المسؤول، إذ أنه وهو معلم المدرسة المسكين ضحية غزو رجال الكهنوت، وزوجتي على حق فبييريت ألماسة خام تحتاج إلى صقل.

قالت سيلفي للعميد خلال توزيع ورق اللعب، وبعد استراحة طويلة بدا كل لاعب فيها مستغرقاً في التفكير: «كنت أعتقد أنك حزت على لقب بارون.

ـ نعم لكنني سميت في العام ١٨١٤، وبعد معركة نانجيس[1] التي صنع فيها فوجي العجائب؛ لكن هل لدي المال والحمايات الضرورية لأنفذ شروط وزارة العدل للاحتفال باللقب؟ ستغدو بارونيتي كرتبة اللواء التي حزت عليها في العام ١٨١٥، ويجب حدوث ثورة لتعيدها لي..

رد روغرون أخيراً على طلب فينه: إذا كان بإمكانكم ضمان الكفالة برهن فيمكنني إجراؤها.

عقب فينه بقوله: لكن يمكن ترتيب ذلك مع كوزنان، والصحيفة ستؤمن انتصار العميد، وستجعل صالونك أكثر قوة من صالون آل تيفين وطغمتهم.

سألت سيلفي: كيف يتم ذلك؟».

راح المحامي بينما كانت زوجته توزع ورق اللعب يشرح ما سيحظى به روغرون وهوشخصيا من مكانة عندنشر صحيفة مستقلة في منطقة بروفنس.

في أثناء ذلك كانت بييريت في غرفتها تجهش بالبكاء، فعاطفتها وتفكيرها كانا على وفاق: إنها تجد ابنة خالتها أكثر خطأ منها. فإبنة الماريه تدرك غريزياً كم

---

(١) نانجيس: بلدة في مقاطعةالسين ومارن انتصر فيها المارشال كليرمن أحد قادة نابليون على الروس في العام ١٨١٤.

يجب أن يكون البر والإحسان مطلقين. لقد كرهت أثوابها الجميلة، وكل ما صنع لأجلها. إن هذه الإنعامات تباع لها غالية جداً. وبكت من الغيظ لسماحها النيل من كرامتها، وعزمت على أن تجابه نسيبيها وتلزمهما بالصمت. يا للفتاةالمسكينة! . فكرت كم كان بريغو كبيراً عندما منحها مدخراته. أحست بأن تعاستها بلغت حدها الأقصى، ولم تدر أن مصيبة أخرى تعد لها في الصالون في تلك اللحظة.

بعد عدة أيام في الواقع، عين معلم لبيريت، ووجب عليها أن تتعلم القراءة، والكتابة والحساب، وقد أحدثت هذه العملية التربوية أضراراً كبيرة في بيت روغرون؛ فانتشرت بقع الحبر على المناضد، والأثاث، والملبوسات، وانتشرت الدفاتر والأقلام في كل مكان، والذرور على الأقمشة، وتمزقت الكتب، والتفت زواياها أثناء مراجعتها لدروسها. وحُدِّثت منذ البدء عن ضرورة كسبها لخبز يومها، وألا تكون عالة على أحد، إنما بأي تعابير! وأحست بييريت بسماع هذه الآراء الرهيبة بالألم في حلقها: وانتابها تشنج رهيب، وكان قلبها يخفق بضربات متسارعة، واضطرت أن تحبس دموعها إذ أنهاكانت تعتبر إهانة لطيبة نسيبيها الكريمين، وعرف روغرون أسلوب الحياة المناسب له: فكان يؤنب بييريت كتأنيبه السابق لمستخدميه، ويذهب للبحث عنها أثناء لعبها ليلزمها بالدراسة، ويراجع لها دروسها، ويقيم نفسه مراقباً شرساً لمواظبة تلك الفتاة المسكينة على الاجتهاد. ووجدت سيلفي من جهتها أن الواجب يقتضيها أن تعلم بييريت القليل من أعمال شغل الأبرة الذي تعرفه. ولم يكن لروغرون أو أخته رقة الطبع؛ فتفكيرهما الضيق جعلهما يحسان بمتعة حقيقية في التنكيد على تلك الصغيرة المسكينة، ونقلها لاشعورياً من الملاطفة إلى القسوة الأكثر شدة، وتعللا في قسوتهما بعدم الرغبة المزعومة لهذه الفتاة في التعلم، بينما جعلت بدايتها المتأخرة في التعلم فهمها بطيئاً، كما أن معلميها يجهلون فن إعطاء الدروس بالشكل الملائم لذكاء التلميذ، وهو ما يميز التعليم العام عن التعليم الخاص، وهكذا فليس الخطأ خطأ بييريت بقدر ما هو خطأ نسيبيها؛ وهذا ما جعلها تقضي وقتاً طويلاً في تعلم

المبادئ، وأمام أتفه الأشياء تعتبر بلهاء، وحمقاء، وتوصف بالبهيمية والرعونة، وإلى جانب هذه الكلمات المهينة التي لاتنقطع، لا تلقى من نسيبيها إلا النظرات الباردة. وبدت كأنها نعجة مخبولة: لاتجرؤ على القيام بأي عمل لرؤية كل تصرفاتها وقد أسيء فهمها واستقبالها والحكم عليها، وهي تنتظر في كل شيء أوامر ابنة خالتها، ونظرة رضاها، وتحتفظ بأفكارها لنفسها، مقتصرة على إذعان خانع، وبدأت نضارتها البراقة تخبو. وراحت تشكو أحياناً من الألم، وعندما تسألها سيلفي: «أين؟» تجيب الصغيرة المسكينة، وهي تشعر بآلام عامة: «في كل مكان» وتجيب سيلفي: هل من المعقول التألم في كل مكان؟ لو أن هذا صحيح لحل بك الموت! ويعلق روغرون الناقد: يمكن أن يكون الألم في الصدر، أو في الأسنان، أو في الرأس أو الرجلين، أو البطن، ولكن لايحدث أبداً ألم في كل مكان! ماهذا الكل مكان؟ الألم في كل مكان يعني لاوجود للألم، هل تعلمين ماذا تفعلين؟ إنك تنطقين بكلام لامعنى له».

وتلجأ بييريت للصمت عندما ترى ملاحظاتها البريئة كفتاة، وهي زهرات عقلها المتفتح، تُستَقبلُ بأفكار مبتذلة يشير حسهاالسليم إلى سخافتها.

كان روغرون يقول لها: «تشكين، ولك شهية راهب!»

كانت آديل الخادمة البدينة هي الشخص الوحيد الذي لايجرح أبداً شعورتلك الزهرة العزيزة المرهفة الإحساس؛ وكانت تدفئ لها فراشها، إنما خفيةمنذذلك المساء الذي أنبتها فيه سيلفي بعد أن ضبطتها تقوم بهذه المبادرة اللطيفة لوريثة سيديها الشابة. قالت سيلفي: «يجب تعويد الأولاد على أن يخشوشنوا، لنخلق فيهم الطباع القوية. هذا مانشأنا عليه أنا وأخي، ولسنا في حالة سيئة. إنك تجعلين من بييريت فتاة «طرية». كانت هذه الكلمة الأخيرة من مفردات روغرون وهي تعني في نظره الأشخاص النواحين، مدعي السقم.

كانت التعابير الملاطفة لذلك الملاك تستقبل بالاستهجان والتكشير، فورود المودة التي تنمو نضرة، ناعمة في تلك الروح الشابة وتريد التفتح خارجاً تُسحق

دون رحمة وتتلقى بييريت الضربات الأكثر قسوة في المواضع الأكثر رقة من قلبها؛ وأن جربت أن تلطف هاتين الطبيعتين الضاريتين بالمداهنات، كانت تتهم بأنها تتودد بدافع مصلحةما، ويهتف روغرون بفظاظة: «ألا تذكرين بسرعة ما تريدين، فأنت بالتأكيد لاتتلاطفين دون هدف تريدين تحقيقه». فلا الأخ، ولا الأخت يرتضيان المودة، وبييريت فطرت على ود كلي. والعميد غورو الحريص على رضى الآنسة روغرون يوافقها في كل مايتعلق بييريت، وفينه يدعم بدوره النسيبين في كل مايقولانه ضد بييريت، وينسب كل الآثام المزعومة لذلك الملاك إلى عناد الطبع البريتاني، ويدعي أن مامن قوة أو إرادة تتمكن من تليينه، وهذان المتملقان يداهنان روغرون وأخته بدهاء بالغ، وقد انتهيا إلى الحصول من روغرون على كفالة صحيفة «أبناء بروفنس» ومن سيلفي على خمسة آلاف فرنك ثمن أسهم، وبدأ العميد والمحامي حملتهما. ووضعا مئة سهم بقيمة خمسئة فرنك للسهم بين الناخبين الحائزين على الأملاك الوطنية، التي أثارت صحف الأحرار مخاوفهم، وبين المزارعين والأشخاص المعتبرين من المستقلين؛ بل وتوصلا إلى مد تشعباتهما في المنطقة وبعض النواحي المجاورة لها، وطبيعي أن كل مساهم يعتبر مشتركاً، كما أن الإعلانات القضائية وغيرها وزعت بين «القفير» و«الأنباء»؛ وتضمن العدد الأول مديحاً مفخماً لروغرون؛ وقدم روغرون وكأنه لافيت[1] بروفنس. وكان من السهل أن يرى، بعد وجود صحيفة موجّهة للرأي العام، أن المنافسة في الانتخابات القادمة ستكون حادة. وبدت السيدةتيفين الفاتنة في غاية القنوط.

قالت وهي تقرأ مقالاً موجهاً ضدها وضد جوليار: «نسيت للأسف أن محتالاً يوجد دائماً غير بعيد من غرّ مغفل، وأن الحماقة تجذب دائماً رجلاً ذكياً من فصيلة الثعالب». ما أن انتشرت الصحيفة ضمن منطقة نصف قطرها عشرون فرسخاً، حتى ظهر فينه بمعطف جديد، وجزمة، وصدار وبنطال لائقين، واعتمر قبعة الأحرار الرمادية الشهيرة، وأظهر تحسن وضعه، ووظفت زوجته خادمة،

(١) لافيت (جاك): (١٧٦٧-١٨٤٤): مالي فرنسي، ولد في بايون، لعب دوراً بارزاً في ثورة ١٨٣٠ وشكل أول وزارة بعد ملكية تموز.

وبدت بالأناقة التي تتطلبها زوجة رجل ذي مقام كبير، فأكثرت من قلنسواتها الجميلة، وبدا فينه، وفقاً لخطةمتعمدة، معترفاً بفضل روغرون، فالمحامي وصديقه كورنان موثق الأحرار، ومنافس أوفري أصبحا مستشاري الأخوين روغرون، وأديا لهما خدمتين كبيرتين، فالإيجارات المجراة من قبل روغرون الأب في العام ١٨١٥ في ظروف مضطربةأشرفت على انتهاء مدتها؛ و البستنة وزراعة البقول عرفت تطورات واسعة حول بروفنس مما مكن المحامي والموثق من زيادة كراء الأرض بمقدار ألف وأربعمئة فرنك سنوياً؛ كما ربح فينه لروغرون قضيتين تتعلقان بغراسة الأشجار ضد قريتين، وهما تتعلقان بغرس خمسمئةشجرة حور، واستغل مال الحور ومدخرات الأخوين روغرون البالغة ستة آلاف فرنك سنوياً والموضوعة منذ ثلاث سنوات بفائدة ذات معدل كبير، في شراء عدة قطع أرض محصورة بمهارة فائقة، وتمكن فينه من نزع ملكية بعض الفلاحين المدينين لروغرون الأب الذين جهدوا في زراعة وتحسين أرضهم ليتمكنوا من سداد ديونهم أنما عجزوا عن ذلك؛ وهكذا استعاد الأخوان روغرون كل مانقص من رأسمالهما نتيجة ترميم منزلهما. وكانت أملاكهما الواقعة حول بروفنس قد اختيرت من قبل أب يعرف كجميع أصحاب الفنادق كيف يحسن الاختيار، وهي مقسمة إلى إراض زراعية صغيرة، لاتتجاوز مساحة أكبرها خمسةأربنتات، ومؤجرة إلى أشخاص مليئين تماماً، جميعهم تقريباً ممن يملكون قطع أرض أخرى، وضمن الإيجار بموجب رهن، وقد أغل خلال شهر تشرين ثاني ١٨٢٦، يوم عيد سان مارتن[1] خمسة آلاف فرنك. وكانت الضرائب على عاتق المزارعين، ولايوجد أي بناء يحتاج إلى ترميم أو تأمين ضد الحريق. وكان كل من الأخ والأخت يملك سندات على الخزينة بمبلغ أربعة آلاف وستمئة فرنك من ذات الخمسةبالمئة، وبما أن هذه السندات قد تجاوزت قيمتها الإسمية نصحهما المحامي باستبدالها بأراض زراعية مع وعد من كاتب العدل ألا يخسروا فلساً واخداًمن الفوائد خلال عملية الاستبدال.

(١) كان استحقاق إيجار الأراضي في معظم المقاطعات لفرنسية يحدد بيوم عيد سان ميشيل أب ٢٩أيلول وقد حدده المؤلف هنا بعيد سان مارتن في ١١ تشرين ثاني. وسان مارتن هو شفيع مدينة تور مسقط رأس بلزاك.

في نهاية هذا الطور الثاني غدت الحياة شديدةالقسوة على بييريت، فلا مبالاة المترددين على المنزل، وانعدام مودةنسيبيها، والحماقة المسببةللتأنيب، غدت كلها لاذعة إلى حد شعرت فيه الفتاة بأن برودةالقبر الرطبة تنفخ من حولها حتى راودتها فكرة جريئةبالذهاب سيراً على الأقدام، ودون دراهم إلى بريتانية للإلتحاق بجديها لورين. لكن حدثين منعاها من ذلك، إذ توفي الجد لورين، وسمي روغرون ولياً لنسيبته في مجلس عائلة عقد في بروفنس. ولو أن الجدة توفيت أولاً، لأمكن الاعتقاد بأن روغرون كان سيطالب، بناء على نصيحة فينه بمبلغ الثمانيةآلاف فرنك دافعاً بالجد إلى الفاقة.

قال له فينه بابتسامة مروعة: «لكن يمكنك أن ترث من بييريت. إذ ليس من المعروف من سيموت أولاً ومن سيبقى على قيد الحياة.»

بناء على هذا الرأي، لم يدع روغرون الأرملة لورين المدينة لحفيدتها تخلد إلى الراحة إلا بعد أن ضمنت لبييريت الملكية الصافية للثمانية آلاف فرنك بوثيقة هبة بين الأحياء سدد روغرون تكاليفها.

فوجئت بييريت بذهول غريب بوفاة جدها، وفي الفترة التي تلقت فيها هذه الضربة الموجعة، كان قد أثير موضوع مناولتها الأولى: وهو أمر آخر تستلزم فروضه بقاء بييريت في بروفنس. وهذه المناسبة الضرورية على بساطتها سببت تغيرات كبيرة لدى الأخوين روغرون، فقد علمت سيلفي أن الكاهن بيرو يثقف دينياً بنات جوليار، ولسور وغارسلان وغيرهن، فلذعتها الغيرة وسعت أن يكون مرشد بييريت النائب الأسقفي الذي يتبع له الأب بيرو، الوكيل الأسقفي هابر، المشرف على الأبرشية والمتحمس لمصالح الكنيسة، وممن يسببون الخشية في بروفنس فهو يخفي طموحاً كبيراً يحتجب تحت قسوة مبادئ مطلقة. وكانت أخت هذا الكاهن تدير مدرسة داخلية للآنسات في المدينة، والأخ والأخت متشابهان: فالاثنان نحيلا الجسم، شاحبا الوجه، بشعر أسود، ومزاج سوداوي وفتحت بييريت قلبها وأذنيها لهذا الكاهن المهيب، كبريتانية نشأت على ممارسة

الشعائر المسيحية والتغني بها. والآلام تهيئ للورع وكل الفتيات تقريباً يملن إلى التصوف، وهو الجانب العميق في الدين، مدفوعات بحنان غريزي. وهكذا وضع الكاهن بذرة الإنجيل ومبادئ الكنيسة في تربة ممتازة، وبدل كلياً ترتيبات بييريت، وأحبت بييريت يسوع المسيح الذي يقدم في المناولة للفتيات كخطيب سماوي، وغدا لآلامها الجسدية والمعنوية معنى، فقد وجهت لترى في كل شيء إصبع الله، ولجأت روحها المضطهدة بقسوة في ذلك المنزل دون أن تستطيع اتهام ذوي قرباها إلى ذلك الجو الذي يتسامى إليه جميع التعساء مرفوعين بأجنحة الفضائل الإلهية الثلاثة[1]. وتخلت بذلك عن أفكار الهرب. ودهشت سيلفي لما أحدثه الأب هابر من تحول في تصرفات بييريت، وانتابها الفضول لتستمع إلى إرشاداته وهو يوجه بييريت ويعدُّها لمناولتها الأولى، وعندها ضم الكاهن إلى رعية الله روحاً ضالة، وتحولت الآنسة سيلفي بدورها إلى التقوى. لكن اليسوعي المفترض لم يستطع أن يؤثر على دنيس روغرون لأن توجيهات صاحبة الجلالة الصحيفة المتحررة «الدستوري الأول»[2] كانت أقوى على بعض البلهاء من توجيهات الكنيسة، وبقي دنيس مخلصاً للعميد غورو والمحامي فينه ولمبادئ المتحررين.

كان بديهياً أن تتعرف الآنسة روغرون على الآنسة هابر وتأنس إليها كلياً، وتحابت الفتاتان كأختين، وعرضت الآنسة هابر أن تأخذ بييريت إلى مدرستها الداخلية فتتجنب سيلفي همو م وإرباكات التربية والتعليم لكن الأخوين أدعيا أن غياب بييريت سيخلق لهما فراغاً كبيراً في المنزل، وبدا تعلق الأخوين روغرون بنسيبتهما الصغيرة مفرطاً. وبرؤية دخول الآنسة هابر إلى الساحة نسب العميد غورو والمحامي فينه للوكيل الأسقفي الطموح، ولمصلحة أخته الخطة الزواجيةالتي خشي منها العميد.

---

(١) هذه الفضائل هي الإيمان، والرجاء، والمحبة (ملاحظةالمترجم).

(٢) الدستوري: صحيفة حزب الأحرار تأسست في العام ١٨١٥، وكانت لسان حال بورجوزاية اليسار، تجاوز عدد مشتركيها في العام ١٨٣٠ عشرين ألف مشترك لكنه هبط في الفترة التي كتب فيها بلزاك بييريت (١٨٣٩) إلى ٤٠٠٠ مشترك، وفقدت كثيراً من حدتها. إنما استمرت بعد ذلك إلى العام ١٩١٥.

قال المحامي للعقاد السابق: «إن أختك تريد تزويجك.

رد روغرون: مع من؟ أو ضد من؟

هتف العميد السابق وهو يداعب شاربيه الرماديين: مع تلك المتكهنة العانس المعلمة.

أجاب روغرون بسذاجة: لم تذكر لي شيئاً عن ذلك»

إن فتاة حازمة كسيلفي يمكن أن تحقق تقدماً على طريق الاهتداء الديني، وقد زاد تأثير الكاهن في ذلك المنزل، مدعوماً من قبل سيلفي المتحكمة بأخيها، وارتاع المتحرران بحق، إذ أدركا أن الكاهن في حال تصميمه على تزويج أخته وروغرون، وهوزواج قابل للتحقيق بما لايقاس من قران العميد وسيلفي، فإنه سيدفع هذه الأخيرة إلى المزيد من الممارسات الدينية وسيدخل بييريت إلى الدير، وهكذا سيخسران ثمرة ثمانيةعشر شهراً من جهود متواصلة، ونذالة وتملّق وتملكهما حقد خفي مريع ضد الكاهن وأخته، غير أنهما أحسا بضرورة التعايش بوئام معهما، ليتمكنا من متابعتهما خطوة، خطوة. وكان السيد والآنسة هابر يعرفان لعبتي الوست والبوسطن فأمسيا من المداومين على السهر لدى الأخوين روغرون، وأثارت مثابرة هؤلاء انتظام مجيء أولئك، فقد أحس المحامي والعميد أنهما يجابهان خصمين بمثل قوتهما. وهو شعور أحس بمثله الكاهن وأخته. هذا الشعور المتبادل كان بمثابة معركة. وكما أن العميد كان يعمل على أن تتذوق سيلفي الحلاوات غير المؤملة في سعي للزواج منها، إذ أنها انتهت إلى رؤية غورو رجلاً جديراً بها كذلك فإن الآنسة هابر أحاطت العقّاد السابق بنعم مجاملاتها وعباراتها ونظراتها. لم يكن أي من الفريقين يستطيع أن يقول لنفسه هذه الكلمة الكبيرة السائدة في السياسية العليا: «ألا نتقاسم؟» إذ أن كل جهة تريد أن تنفرد بالغنيمة. زد على أن ثعلبي المعارضة البروفنسية الماكرين، وهي معارضة كانت تتنامى، حسبا نفسيهما - خطأ أشد قوة من الكهنوت: وفتحا النار أولاً، فقد أيقظت أصابع المصلحةالشخصية العقفاء عرفان فينه بالجميل، فذهب يسعى نحوالآنسة شارجبف وأمها، فهاتان المرأتان اللتان تحصلان على دخل ألفي فرنك سنوياً، تعيشان في

تروا بمشقة. وكانت الآنسة باتيلد دي شارجبف إحدى هذه المخلوقات الرائعة اللواتي يؤمن بالزواج عن حب، لكنهن يغيرن رأيهن عندما يصلن إلى سن الخامسة والعشرين وهن مايزلن فتيات. وعرف فينه كيف يقنع السيدة شارجبف بأن تضم الألفي فرنك التي لها مع الثلاثة آلاف التي يكسبها الآن من عمله في الصحيفة وتآتي مع ابنتها إلى بروفنس حيث يمكنهم جميعاً العيش كعائلة واحدة، وحيث يمكن لباتيلد أن تتزوج أحد الحمقى المسمى روغرون، ويتهيأ لها - وهي المرهفة العقل، وفقاً لقوله - أن تنافس السيدة تيفين الفاتنة. وأعطى انضمام السيدةوالآنسةشارجبف إلى عائلة فينه وإلى أفكاره قوةأكبر لحزب الأحرار. وروع هذا الانضمام ارستقراطيي بروفنس وحزب آل تيفين؛ ورجت السيدة دي بروتي المنزعجة من رؤية سيدتين نبيلتين خائبتي الرجاء أن تأتيا إليها. وأسفت للأخطاء المرتكبة من قبل الملكيين، واغتاظت من أولئك الموجودين في تروا عندما اطلعت على وضع الام والابنة.

قالت: «كيف؟ألم يعثر على أحد النبلاء الريفيين القدماء ليتزوج هذه الصغيرةالعزيزة المؤهَّلة لتكون سيدة قصر؟ وتركوها تعنس لتلقي بنفسها على رأس روغرون». وحركَت جميع المنطقة دون أن تستطيع الإهتداء إلى نبيل واحد قادر أن يتزوج ابنة أم لاتمتلك إلا دخل ألفي فرنك سنوياً. كما شارك حزب تيفين ومدير المنطقة في البحث عن هذا المجهول إنما دون جدوى. ووجهت السيدة دي بروتي اتهامات رهيبة للأنانية التي تُضني فرنسة، نتيجةالمادية والقوة التي منحتها القوانين للمال: فالنبالة لم تعد شيئاً، والجمال لاشيء، وأمثال روغرون، وفينه يجابهون ملك فرنسة!

لم تقتصر باتيلد دي شارجبف في تفوقها الصريح على منافستها أخت الكاهن من ناحيةالجمال فقط وإنما بالتزين أيضاً، فهي تتميز ببياض ناصع، كما أن قوامها، وهي في الخامسةوالعشرين قد اتخذ امتلاء رائعاً، وعَرُض كتفاها، واستدار عنقها، وبدا كل شيء فيها متناسقاً: نضارة في ارتباطات المفاصل، وغنى في الشعر الأشقر الأنيق، وسحر في الابتسامة، وشكل مهيب في الرأس، وكمال في هيئة الوجه والقسمات وجمال في العينين المنتظمتين تحت جبين وضاح، وقامة

مشيقة ويد ساحرة، وقدم صغيرة، وحركات نبيلة تتوافق مع حسن تصرفها. وربما بدت في صحتها العارمة بهيئة فتاة فندق جميلة، مما دفع السيدة تيفين الفاتنة إلى القول: «لن يكون هذا عيباً في نظر روغرون».

بدت الآنسة شارجبف لأول مرة في هندام بسيط تقريباً، فثوبها من صوف المرينوس الداكن، المكشكش بتطريزة خضراء، كان عريض التقويرة، لكن خماراً من التول المشدود بأشرطة داخلية يغطي كتفيها وظهرها وصدارها ينفرج مع ذلك من الأمام رغم أن دبوساً من طراز سفينيه[1] يضم طرفي الخمار؛ تحت هذه الشبكة المرهفة، تجلت محاسن باتيلد أكثر غنجاً وفتنة، عندما خلعت قبعتها المخمليّة وشالها بعد وصولها فبدا قرطان متدليان من ذهب يزينان أذنيها الجميلتين، وصليب صغير معلق بشريطة مخملية سوداء يلتمع على صدرها كتلك الحلقة السوداء التي تنهي بها الطبيعةالعجيبة ذنب أرنب «الأنكورا» الناصع البياض. كانت تعرف جميع حيل الفتيات الساعيات إلى الزواج: راحت تحرك يديها وهي ترفعهما إلى الأعلى لتزيح خصلات شعر تتماوج بعناية عندما ترفع رأسها، ثم كشفت عن معصميها ورجت بدلع من روغرون أن يزرر لها كم الصدار المنحل فجأة من عروته، مما أربك هذا الأحمق التعس فرفض بفظاظة مخفياً انفعاله بلا مبالاة كاذبة، فبدا حياء الحب الوحيد الذي أحس به هذا العقاد في حياته كمظهر كره، وأساءت سيلفي كما سلست هابر الظن بالفتاة المغناج، لكن المحامي أعجبته سرعة بديهتها وكان الرجل الذَكي في هذه المجموعة البلهاء، ومامن منافس له إلا الكاهن إذ أن العميد حليفه منذ أمد طويل.

منذ ذلك الحين أخذ العميد من جهته، يتصرف تجاه سيلفي كتصرف باتيلد تجاه روغرون، فيأتي بقميص أبيض كل مساء، يبرز جِّيداً وجهه العسكري من خلال ياقته التي يرتفع طرفاها عبر الطوق المخملي لسترته، واختار صداره من

---

(١) تذكر صحف ومجلات ذلك العصر أن الدبوس الأكثر استعمالاً والأكثر أناقة كان هذا الدبوس الحامل لاسم سفينيه، (كما أكد على ذلك ج. غريماس في أطروحة دكتوراه بعنوان: الموضة السائدة في العام ١٨٣٠).

قماش مضلع أبيض أيضاً، بينما بدا بمعطف جديد من الجوخ الأزرق تلتمع على صدره وريدة وسام جوقة الشرف الحمراء، وكل هذه الأناقة تحت ذريعة الاحتفاء بقدوم باتيلد الحسناء. وكان ينقطع عن التدخين بعد الساعةالثانية، وشعره الرمادي يرتد كموجات على قحف رأسه الأصفر، وأخذ أخيراً مظهر وموقف رئيس الحزب، والرجل الذي يتهيأ ليجابه أعداء فرنسة، البوربونيين أخيراً، بكل صلابة.

لعب المحامي الشيطاني والعميد الماكر ضد السيد والآنسة هابر دوراً آخر أكثر فظاظة من إحضار الآنسة شارجبف التي أشيع عنها في حزب الأحرار ولدى آل بروتي أنها أكثر جمالاً بما لايقاس من السيدة تيفين الفاتنة، ودفع هذان الرجلان السياسيان الكبيران الناس في المدينة الصغيرة إلى الاعتقاد تدريجياً بأن السيد هابر يؤيدهما في جميع أفكارهما، وراحت بروفنس سريعاً تتحدث عنه كاهناً موالياً للأحرار، مما اضطره بعد أن استدعي سريعاً للمطرانية أن يمتنع عن السهر لدى آل روغرون، لكن أخته لم تنقطع عن ذلك، مما جعل صالون الأخوين أحد مراكز القوة في المدينة.

وهكذا فحوالي منتصف تلك السنة لم تكن الدسائس السياسية في صالة الأخوين روغرون أقل حدة من الدسائس الزواجية، وإذا كانت المصالح الخفية المتوارية تشن معارك ضارية، فإن الصراع العام تميز بشهرة مشؤومة، وكل واحد يعرف أن وزارة ڤيليل قد أسقطت في انتخابات العام ١٨٢٦[1]. وفي دائرة بروفنس الانتخابية، وكاد فينه مرشح الأحرار - بعد أن أمن له كورنان حق الانتخاب باقتناء ملكية بالدين - أن يتغلب على تيفين، إذ لم ينجح رئيس المحكمة إلا بأغلبية صوتين فقط.

كان ينضم إلى السيدتين فينه وشارجبف، وإلى فينه والعميد، أحياناً السيد

---

(١) الكونت دي فيليل (١٧٧٣-١٨٥٤) زعيم الحزب الملكي المتطرف تولى رئاسة الوزارة في العام ١٨٢٢ عمل على سن قوانين رجعية وخاصة قانون تخصيص مليار فرنك تعويضاً للنبلاء المهجرين مما سبب سقوط وزارته بعد انتخابات تشرين الثاني ١٨٢٧، وليس ١٨٢٦ كما ذكر بلزاك خطأ.

كورنان وزوجته ثم الطبيب نيرو، وهو رجل قضى شباباً عاصفاً، ولكنه كان ينظر إلى الحياة بجد، وأخلد على مايقال، إلى الدراسة، وهو يتفّوق، وفقاً لما يذكره الأحرار السيد مارتنر في وسائله. وهكذا فإن الأخوين روغرون لم يستوعبا انتصارهما، كما لم يفهما إبعادهما سابقاً.

أظهرت الآنسة باتيلد شارجبف لبييريت، وقد صوَّرها فينه عدوة لها، كرهاً رهيباً، فالمصلحة العامة تقتضي إذلال هذه الضحية المسكينة، ولم تستطع السيدة فينه أن تفعل شيئاً لتلك الصغيرة المسحوقة بين المصالح الشرسة التي انتهت أخيراً إلى فهمها، ولولا إرادة زوجها المتسلطة لانقطعت عن زيارة الأخوين روغرون، فهي تتألم كثيراً من إساءة معاملة هذه المخلوقة الصغيرة الجميلة التي تلتصق بهاوهي تشعر قربها بحماية خفية وتطلب منها أن تعلمها هذه القطبة أو تلك من أشغال الأبرة وترشدها في أعمال التطريز، وهكذا بينت بييريت، أنها عند معاملتها برفق تفهم وتنجح بشكل رائع. لكن الشلة لم تعد بحاجة إلى السيدة فينه فانقطعت عن المجيء. ورأت سيلفي بعد أن داعبتها فكرة الزواج، أن بييريت غدت عقبة لها، وكانت الفتاة قد قاربت الرابعة عشر من عمرها، وبدت في بياضها المرضي، الذي أهملت تلك العانس الجاهلة أعراضه، رائعة الجمال. وخطر لسيلفي أن تعوض النفقات التي تسببها بييريت بتشغيلها خادمة، ففينه باعتباره خلف آل شارجبف، والآنسة هابر وغورو، وجميع الرواد المتنفذين دفعوا سيلفي لصرف أديل الخادمة البدينة. ألا يمكن لبييريت أن تقوم بأعمال المطبخ وترتيب البيت؟، وفي حال الضرورة يمكنها أن تستعين بخادمة العميد، وهي امرأة خبيرة جداً، ومن أمهر طاهيات بروفنس. وعلى بييريت أن تعرف الطهي، ومسح الغرف، والكنس، وكما يقول المحامي وجه الشؤم، المحافظة على نظافة المنزل، والذهاب للتسوق، ومعرفة ثمن الأشياء. وقد أبدت الفتاة المسكينة، وإخلاصها لايقل عن مروءتها، استعدادها لهذه الأعمال وهي سعيدة بتسديد ثمن الخبز الجاف الذي تأكله في ذلك المنزل، وصرفت أديل، وفقدت بييريت بذلك الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه على الأرجح أن يحميها. ورغم قوتها الواهنة، أُرهقت منذ تلك اللحظة جسدياً

وروحياً، فهذان العازبان كانا أقل مراعاة لها كخادمة، فهي تابعة لهما، توبخ لأتفه الأشياء، لمرأى بقية غبار على مرمر المدفأة، أو على كرة زجاجية، فغدت هذه الأشياء المترفة التي طالما أعجبت بها، كريهة ممقوتة في نظرها، ورغم رغبتها في أن تحسن عملها، كانت نسيبتها القاسية تجد لها دائماً سبباً لتعيد ما أنجزته. ولم تلق بييريت خلال سنتين أي ثناء، ولم تسمع كلمةمتوددة، وكانت كل سعادتهاألا توبّخ، وكانت تتحمل بصبر ملائكي المزاج الصعب لهذين العقّادين اللذين يجهلان كلياً العواطف الحلوة، والذين يجعلانها كل يوم تشعر بتبعيتها لهما. هذه الحياة بين هذين العقّادين زادت من مرض الفتاة المنضغطة كأنها بين فكي كماشة، فأحست باضطرابات داخلية عنيفة، وأحزان خفية مفاجئة في تفجّراتها حتى أن عوامل نموها وجدت متعاكسة بشكل لايعوض وهكذا وصلت بييريت ببطء إلى الآلام الرهيبة، إنما المكتومة، وإلى الحالة التي رآها فيها صديق طفولتها عندما حياها من الساحة الصغيرة بالأغنيةالعاطفية البريتانية.

قبل الدخول في المأساة البيتية التي أحدثها مجيء بريغو في بيت روغرون، من الضروري، لعدم الابتعاد عنها، شرح إقامة البريتاني في بروفنس، إذ أنه كان شخصيةصامتة في هذا المشهد، فبريغو عند هربه لم يذعر فقط من حركة بييريت فقط، وإنما من التغير الذي طرأ على صديقته الشابة أيضاً: إذ كاد لايعرفها لولا الصوت والعينين والحركات التي ذكرته برفيقته الصغيرة بحيويتها ومرحها وعلى الأقل بحنانها وعندما ابتعد عن البيت، ارتعشت ساقاه، وأحس بالحرارة في ظهره! فقد رأى شبح بييريت وليس بييريت، وصعد نحو الحي الأعلى في المدينة، مفكراً قلقاً، إلى أن وجد مكاناً يمكنه أن يرى منه الساحة وبيت بييريت وراح يتأملهما متأملاً تائهاً في أفكار لامتناهية، كمن تحل به مصيبة فلا يعرف متى ينتهي منها. فبييريت تتعذب وهي ليست سعيدة، وهي تأسف على بريتانية! فماذا حل بها؟ مرت كل هذه الأسئلة وتكرر مرورها في فؤاد بريغو حتى كادت أن تمزقه، وكشفت له مدى مايكنه من مودةلأخته الصغيرة بالاختيار. من النادر جداً أن تستمر العواطف الرابطة بين طفلين من جنسين مختلفين، ورواية بول وفرجيني الجذابة كرواية بييريت وبريغو لاتحسم المشكلة التي تثيرها هذه القضية المعنوية بما فيها من غرابة.

والتاريخ الحديث لايقدم إلا القصة الاستثنائية الشهيرة للسيدة الساميةالمركيزة دي بسكير وزوجها[1]، اللذين وجه أحدهما للآخر من قبل ذويهما وهما في الرابعة عشر من العمر، فتحابا وتزوجا، وكان قرانهما مضرب مثل في القرن السادس عشر عن حب زوجي لامتناه في إخلاصه ودون أي أكدار. وغدت المركيزة الجميلةالمرهفة الإحساس، المحبوبة كلياً، أرملة وهي في الرابعة والثلاثين من العمر، فرفضت الملوك، ودفنت نفسها في دير لاترى ولاتسمع إلا الراهبات. هذا الحب الكامل نما فجأة في قلب العامل البريتاني المسكين؛ فقد كان هو وبييريت يحمي كل منهما الآخر، وكان مسروراً جداً عندما قدم لها المال اللازم لسفرها، وكاد يموت وهو يركض لاحقاً العربة، دون أن تعرف بييريت عن ذلك شيئاً! وهذه الذكرى غالباً ما بثت الدفء في الساعات الباردة من حياته الشاقة خلال تلك السنوات الثلاثة المنصرمة، فأتقن عمله من أجل بييريت، وكوَّن نفسه من أجل بييريت، وجاء إلى باريس من أجل بييريت، وبعد أن وعد نفسه بجمع ثروة من أجلها لم يستطع مقاومة الرغبة في رؤيتها، فمشى منذ مساء السبت حتى صباح ذلك الاثنين، وكان يزمع العودة إلى باريس، لكن ظهور صديقته الصغيرة المؤثِّر سمره في بروفنس؛ فقد أثرت عليه دون علمه: مغناطيسية غريبة، ماتزال موضع جدل، رغم البراهين العديدة عليها، وترقرقت الدموع في عينيه، بينما كانت دموع مماثلة تُقتِّم الرؤية في عيني بييريت. فلئن كان بريغو بالنسبة لبييريت يمثل بريتانية وأسعد أيام طفولتها، فإن بييريت بالنسبة له تمثل الحياة! ولم يكن بريغو وهو في السادسةعشر يعرف أن يرسم أو يثبت إفريزاً، وهو يجهل كثيراً من

---

(١) المركيزة دي بسكير: ابنة فابريس كولونا القائد الأكبر لجيش نابولي، خطبت وهي في سن اليفاع للمركيز دي بسكارا، فرانسوا دافالوس. وفي العام ١٥٢٥، وفي معركة بافيا جرح جرحاً خطيراًتوفي على أثره. ورفضت أرملته، الحائزة على إعجاب الجميع بتربيتها، وجمالها، وثقافتها، أن تتزوج حرصاً على أمانتها لزوجها. وقد نظمت قصائد طبعت عدة مرات في القرن السادس عشر، وحتى في القرن التاسع عشر. وفي العام ١٥٣١ لجأت إلى الدير حيث عاشت حتى وفاتها بعد ستة عشر عاماً من ذلك. وقد ترملت المركيزة وهي في سن الخامسة والثلاثين من عمرها، وليس في الرابعة والثلاثين كما ذكر بلزاك.

الأشياء، لكن بما يعرف صنعه من قطع يمكنه أن يربح أربعة إلى خمسة فرنكات يومياً؛ وهذا مايمكنه من العيش في بروفنس، حيث يكون على مقربة من بييريت، ويمكنه أن ينهي تعلم مهنته باختياره أفضل نجاري المدينة معلماً له، ويسهر على بييريت، وفي لحظة، اتخذ بريغو قراره، وهرع إلى باريس فصفى حساباته، واستعاد سجله ومتاعه وأدواته، وبعد ثلاثة أيام، كان صانعاً لدى السيد فرابيه أمهر نجاري بروفنس، وكان العمال النشيطون، العقلاء، أعداء الضجيج والحانات، قد غدوا من الندرة بحيث يتمسك المعلمون بشاب مثل بريغو. ولإنهاء قصة البريتاني من هذه الناحية، نذكر أنه خلال خمسة عشر يوماً غدا معلماًمساعداً لفرابيه الذي قدم له السكن والطعام وعلمه الحساب والرسم الخطي. وكان هذا النجار يسكن على الشارع الكبير على بعد مئة خطوة من الساحة الصغيرة المتطاولة التي يقع في طرفها منزل الأخوين روغرون. ودفن بريغو حبه في قلبه، ولم يفش سره لأحد. وقصت عليه السيدة فرابيه تاريخ آل روغرون والطريقة التي لجأ إليها الفندقي السابق للاستيلاء على ميراث أوفري. وحصل بريغو على معلومات عن طبع العقاد روغرون وأخته. وفاجأ بييريت في السوق مع ابنة خالتها صباحاً وهي تحمل سلة ممتلئة بالمؤن. وذهب ليرى بييريت مجدداً يوم الأحد في الكنيسة، حيث بدت البريتانية بكامل زينتها، وهناك ولأول مرة بدت بييريت لبريغو بصفتها الآنسة لورين. ولاحظت بييريت وجود صديقها لكنها وجهت إليه إشارة غامضة تحضه فيها على البقاء متخفياً. كان في هذه الإشارة عالم من الأشياء الغريبة، كتلك التي بدرت منها منذ خمسة عشر يوماً طالبة منه الفرار. أي ثروة يجب عليه أن يجمعهاخلال عشر سنوات ليستطيع الزواج من صديقة طفولته الصغيرة، من سيترك لها الأخوان روغرون بيتاً، ومئة أربنت من الأرض، وإثني عشر ألف فرنك دخلاًسنوياً، عدا عن مدخراتهما. والبريتاني الدؤوب لايريد المغامرة سعياً وراء الثروة قبل اكتساب المعارف التي تنقصه، وقبل تعلمها في باريس أو في بروفنس، وما دام الأمر لايتعدى الناحية النظرية، فإنه يفضل البقاء في بروفنس قريباًمن بييريت، التي يريد مع ذلك أن يشرح لها مشاريعه، ونوع الحمايةالتي يمكنهاالاعتماد عليه فيها. أخيراً فهو لايريد أن يتركها دون أن ينفذ إلى سر هذا الشحوب الذي يبدو

في عينيها، وهما آخر الأعضاء التي تهجرها الحياة؛ ودون أن يعرف مصدر هذه الآلام التي تخلع عليها مظهر فتاة محنية بمقضب[١] الموت وتوشك أن تسقط تحته.

هاتان الإشارتان المؤثرتان المتضمنتان كل التحفظ، إنما غير المتنكرتين للصداقة رمتا الرعب في نفس البريتاني. وبديهي أن بييريت أمرته بالانتظار وألا يسعى لرؤيتها لما يشكل ذلك من خطر عليها. لكنها تمكنت عند الخروج من الكنيسة إن توجه إليه نظرة رأى بريغو من خلالها أن عيني بييريت ممتلئتان بالدموع. لكن كان حرياً بالبريتاني أن يهتدي إلى تربيع الدائرة قبل أن يخمن ما حدث في بيت الأخوين روغرون منذ وصول بييريت إليه.

لم تغادر بييريت غرفتها دون تخوفات شديدة ذلك الصباح الذي تجلى فيه بريغو أثناء حلمها الصباحي، كأنه حلم آخر. فلاشك أن الآنسة روغرون قد سمعت هذا الغناء، وهذه الكلمات المثيرة للشبهة في أذني عانس، مما دفعها للنهوض، وفتح النافذة. لكن بييريت كانت تجهل الأحداث التي دفعت إبنة خالتها لمثل هذا التنبه، إذ أن دوافع قوية كانت تدفع سيلفي للنهوض والهروع إلى نافذتها؛ ومنذ ثمانية أيام تقريباً، وأحداث سرية غريبة، وعواطف قاسية تهز الشخصيات الرئيسة في صالون الأخوين روغرون. فهذه الأحداث المجهولة، المكتومة من جهة وأخرى بعناية، ستسقط كهيار[٢] بارد على بييريت. وهذا العالم من الأشياء الغامضة، والتي قد يكون من الأجدر تسميتها أدران القلب البشري، تكمن في قاعدة أكبر الثورات السياسية، أو الاجتماعية، أو البيتية، لكن بالتطرق إليها، ربما كان من المفيد جداً أن نبين أن تفسيرها الرياضي رغم صحته غير أمين من ناحية الشكل. فهذه الحسابات العميقة لاتتكلم عنها بمثل الفظاظة التي يعبر عنها التاريخ. فمحاولة إبراز المواربة، والتحفظات الخطابية، والمحادثات الطويلة، حيث الفكر يعتم عن قصد على النور المحمول فيها، وحيث الكلام المعسول يحلّ سموم بعض النوايا، هو محاولة لوضع كتاب بمثل ضخامة القصيدة الرائعة المسماة كلاريس

---

(١) مقضب: منجل، أو حاصدة، وسيف مقضب: شديد القطع (المترجم).

(١) الهيار: ما ينهار ويسقط (المترجم).

هارلو[1]. فالآنسة هابير والآنسة سيلفي لديهما رغبة متساوية في الزواج لكن أحداهما أصغر بعشر سنوات من الأخرى، والاحتمالات تسمح لسلست هابير أن تفكر بأن أولادها سيحصلون على ثروة الأخوين روغرون كلها، فسيلفي وصلت إلى الثانية والأربعين من العمر، وهو مرحلة يمكن أن يتضمن فيها الزواج أخطاراً[2]، وبتبادل الرأي بينهما، لحصول كل منهما على تأييد الأخرى، وضحت سلست هابير، مدفوعة من قبل الكاهن الحقود، لسيلفي الأخطار المزعومة لحالتها. فالعَميد رجل عنيف، ذو صحة عسكرية، عازب عتيق في الخامسة والأربعين من العمر سيطبق عليها كل مبادئ حكايات الجن: «كانوا سعداء، وأنجبوا كثيراً من الأولاد». ودبّت هذه السعادة الذعر في نفس سيلفي، فخشيت أن تموت، وهي خشية تقلب رأساً على عقب أفكار العازبين. لكن وزارة مارتينياك[3]، هذا الانتصار الثاني للمجلس التشريعي الذي أطاح بوزارة فيليل، كانت قد سميت. ، وحزب فينه يمشي مرفوع الرأس في بروفنس، وفينه، وهو الآن المحامي الأول في بري، يربح كل ما يريد، ووفقاً للقول السائد. لقد غدا شخصية، والأحرار يتنبؤون عن ارتقائه فسيغدو بالتأكيد نائباً في المجلس، أو نائباً عاماً في القضاء، أما العميد فسينتخب عمدة بروفنس. آه! أن تسود كما سادت السيدة غارسلان، أن تغدو زوجة العمدة أمل لاتستطيع سيلفي أن تحتمل فقدانه. وأرادت أن تستشير طبيباً بالرغم من أن مثل هذه الاستشارة تسبب السخرية منها. وابتكرت الفتاتان وإحداهما متفوقة على الأخرى وواثقة من فرض إرادتها عليها، إحدى هذه الحيل التي تجيد تدبيرها النساء الموجهات بنصائح أحد رجال الدين. لكن استشارة الطبيب نيرو المعتمد من قبل

(١) كلاريس هارلو: رواية ظهرت في العام ١٧٤٨، من تأليف الكاتب الانكليزي ريكاردسون، استشهد بها بلزاك مراراً.

(٢) في قصة «العانس» أيضاً، تخشى الآنسة كورمون، وقد وصلت إلى سن الثانية والأربعين، هذه المرحلة المشؤومة، ويبدو أن بلزاك يعتبر هذا العمر حرجاً.

(٣) انقضت مدة طويلة بين الانتخابات التي أطاحت بوزارة فيليل (تشرين ثاني ١٨٢٧) ووصول مارتينياك إلى السلطة. إذ أن الأزمة الداخلية لم تحل إلا في شهر أيار ١٨٢٨.

الأحرار ومنافس السيد مارتنر، أمر خاطئ. واقترحت سلست هابر على سيلفي أن تخبئها في حجرة حمامها، وأن تستشير بالنيابة عنها، حول هذا الموضوع، السيد مارتنر طبيب مدرستها الداخلية، وسواء أكان السيد مارتنر متواطئاً، أم لا مع سلست. فقد أجاب زبونته بأن الخطر قائم، رغم ضعفه، لدى فتاة في الثلاثين من العمر. ثم أضاف: «لكن بنيتك القوية تسمح لك بأن تكوني مطمئنة ودون خوف».

وسألت الآنسة هابر: «وماذا يكون الأمر بالنسبة لامرأة تجاوزت الأربعين.

- المرأة في الأربعين، المتزوجة، وأم أولاد، لاخطر البتة عليها.

- لكن فتاة عاقلة، بل كثيرة التعقل كالآنسة روغرون مثلاً؟.

رد السيد مارتنر: عاقلة! مامن شك أن الخطر قائم، وسيكون حملها وولادتها إحدى العجائب التي يسمح بها الخالق، لكن فيما ندر.

- لكن لماذا؟.»

وراح الطبيب يشرح في وصف باتولوجي مريع كيف تضعف المرونة التي تمنحها الطبيعة للعضلات والعظام في سن الشباب، وخاصة لدى النساء اللواتي اضطرتهن أعمالهن السابقة إلى الجلوس وعدم الحركة مدة طويلة كالآنسة روغرون.

ردت الآنسة هابر: «هكذا إذاً، على الفتاة الفاضلة التي تتجاوز سن الأربعين أن تبقى دون زواج؟.

أجاب الطبيب: أو أن تنتظر تجاوز تلك السن، لكن ذلك لن يكون عندها زواجاً، إنما هو توافق مصالح: وإلا ماذا يمكن تسميته؟».

أخيراً نتج عن هذه الاستشارة، بوضوح، ورزانة، وتعقل، وتحليل علمي، أن الفتاة الفاضلة المتجاوزة سن الأربعين يجب أن تخشى الزواج.

بعد ذهاب السيد مارتنر، وجدت الآنسةسلست هابر الآنسةروغرون قابعة في مخبئها مخضرة، شاحبة، وقد توسعت حدقتاها، أخيراً كانت في حالة مريعة.

سألتها: «ألهذا الحد تحبين العميد؟.

أجابت العانس: كنت آمل ذلك.

هتفت الآنسة هابر برياء وهي تعلم أن الزمن سيغير فكر العميد: الواقع ماعليك إلا الانتظار» غير أن أخلاقية هذا الزواج معرضة للشكوك، وذهبت سيلفي تطمئن وجدانها في الاعتراف للكاهن، لكن الموجه الديني القاسي شرح لها آراء الكنيسةالتي لاترى في الزواج إلا استمرار الخليقة، وتستهجن الزواج الثاني، وتنبذ الأهواء دون هدف اجتماعي. وكانت حيرة سيلفي روغرون كبيرة جداً. فهذه الصراعات الداخلية تمنح الهوى قوة غريبة وتكسبه الجاذبية المبهمة التي تغري بها الأشياء المحرّمة النساء خاصة منذ عهد حواء. ولم يخف اضطراب الآنسة روغرون على عين المحامي النفاذة، وفي إحدى الأمسيات، وبعد انتهاء جولة لعب الورق اقترب فينه من صديقته العزيزة سيلفي، وأمسك بيدها وصحبها للجلوس على إحدى الأرائك. همس في أذنها: «شيء ما يشغل تفكيرك؟»

أحنت رأسها بالايجاب بشكل كئيب. وانتظر المحامي ابتعاد روغرون، وبقي مع العانس يستنطقها إلى أن انتزع سرها.

هتف المحامي في دخيلة نفسه، بعد أن استمع إلى جميع الاستشارات السرية التي أجرتها سيلفي وكانت الأخيرة منها مروعة فعلاً: «أي لعبة ماهرة، أيها الكاهن، لكنها لمصلحتي». هذا الثعلب القضائي الخبيث كان أكثر رهبة من الطبيب في شروحه، فنصحها بأن تتزوج إنما بعد نحو عشر سنين على الأقل زيادة في الإطمئنان. وأقسم المحامي في نفسه بأن تكون كل ثروة الأخوين روغرون لباتيلد، وفرك يديه سروراً، وراقت سحنته، وأسرع للحاق بالسيدة والآنسةشارجبف اللتين تركهما تذهبان مع خادمتهما التي تنير لهما الطريق بمصباح تحمله. وهكذا فالتأثير

الذي مارسه الكاهن هابر طبيب الروح، هزئ به ووازنه تماماً فينه طبيب المحفظة. فروغرون قليل الورع، ورجل الكنيسة ورجل القانون، بأثوابهما السوداء على قدم المساواة لديه. وباطلاع المحامي على الإنتصار الذي حققته الآنسة هابر التي اعتقدت أنها ستتمكن من الزواج بروغرون بعد أن جعلت سيلفي حائرة بين خوفها من الموت ورغبتها بأن تغدو بارونة لاحظ فينه إمكانية إبعاد العميد عن ساحة المعركة، فهو يعرف جيداًروغرون بحيث يجد الوسيلة لتزويجه من باتيلد الجميلة: فروغرون لايستطيع مقاومة إغراءات الآنسة دي شارجبف وفي أول اجتماع ينفرد فيه فينه مع روغرون وباتيلد سيتقرر الزواج. كان روغرون قد وصل إلى حد أخذ فيه يوجّه عينيه إلى الآنسة هابر لشدة خشيته من النظر إلى باتيلد، ولاحظ فينه مدى تعلق سيلفي بالعميد، وأدرك شدة مثل هذا الهوى لدى فتاة عانس، يتملكها في ذات الوقت ورع ديني، وسيجد طريقة يضيع فيها مرة واحدة بييريت والعميد مؤملاً أن يتخلص من كل منهما بواسطة الآخر.

في صبيحة اليوم التالي، وبعد جلسة المحاكمة. التقى المحامي بالعميد يتنزه مع روغرون وفقاً لعادتهما اليومية.

عندما يصادف هؤلاء الرجال الثلاثة معاً، فإن لقاءهم يثير دائماً الأقاويل في المدينة. فهذا الثلاثي يرهب مدير المنطقة، والقضاء، وحزب آل تيفين؛ فهم حلقة دفاع شعبيةيتفاخر بها أحرار بروفنس، ففينه يحرر بمفرده صحيفة الأنباء، وهو رأس الحزب؛ والعميد هو المدير المسؤول عن الصحيفة وهو الذراع، أما روغرون الممول فهو العصب؛ ومن المفترض وجود علاقة بين اللجنة الإدارية للحزب في بروفنس واللجنة الإدارية في باريس؛ فهؤلاء الرجال الثلاثة، في نظر آل تيفين يعدون دائماً شيئاً ما ضد الحكومة، بينما ينظر إليهم الأحرار بإعجاب كحماة للشعب.

عندما رأى المحامي روغرون يعود إلى الساحة متوجهاً إلى منزله في موعد العشاء، أخذبذراع العميد وحال دونه ودون مرافقة العقاد السابق.

قال له: «وبعد أيها العميد، أريد أن أرفع عن كاهلك عبئاً يثقل عليك، وستتزوج من هي أفضل من سيلفي، فبحسن التصرف يمكنك خلال سنتين أن تتزوج الصغيرة بييريت لورين».

ثم قص عليه نتائج مناورة الكاهن الجزويتي.

هتف الكولونيل بدهشة: «أي ضربة خفية، وكيف تطيل الأمور!

استأنف فينه برصانة: إن بييريت، أيها العميد، مخلوقة لطيفة. ويمكنك أن تسعد معها بقية أيام حياتك، وأنت في صحة جيدة بحيث لن يكون لهذا الزواج بالنسبة لك المحاذير المعتادة عن القران غير المتكافئ عمراً، لكن لاتظن أن من السهل أن تبدل بالحظ المروع حظاً سعيداً؛ فتحويل حبيبتك إلى صديقة موثوقة عملية بمثل الخطر الذي تعرضتم إليه في حياتكم العسكرية عند اجتيار نهر تحت نيران العدو. لكن وأنت الماهر كعميد خيالة، ستدرس الوضع وتناور بالتفوق الذي تميّزنا به حتى الوقت الحاضر، والذي أوصلنا إلى وضعنا الحالي، وإن غدوت نائباً عاماً يوماً ما، فستدير هذه المنطقة. آه! لو أنك كنت ناخباً! لكنا أكثر تقدماً، ولأمكنني شراء صوتي هذين الموظفين بتعويضهما عن خسارة مركزيهما، وحصولي بالتالي على الأغلبية، واحتلال مقعد في المجلس إلى جانب أمثال دوبن، وكازيمير بريه[1]، و...».

كان العميد يفكر منذ مدة ببييريت، لكنه يخفي هذه الفكرة في كتمان عميق، وهكذا لم تكن خشونته تجاه بييريت إلا ظاهرية، ولم تجد الفتاة تفسيراً للمعاملة السيئة التي يقابلها بها بحضور نسيبيها. هذا المدعي لصداقة والدها، بينما يمسح

---

(١) دوبن DUPIN: آندره (١٧٨٣-١٨٦٥) محام حظي بالشهرة بعد عودة الملكية، شارك في ثورة ١٨٣٠، ودخل أول وزارة شكلها لويس فيليب، ثم انتخب رئيساً للمجلس النيابي (١٨٣٢-١٨٣٩) واستمر في العمل السياسي حتى العام ١٨٥٦.

ب- كازيمير بيريه C.PERRIER (١٧٧٧-١٨٣٢): مصرفي ورجل سياسة- تحالف مع ملكية تموز وغدا رئيساً للوزارة في العام ١٨٣٦، توفي بالكوليرا.

بيده على ذقنها مداعباً بأبوة عندما يلقاها لوحدها ؛ ومنذ اعتراف فينه المتعلق بخشية الآنسة سيلفي من الزواج ، أخذ غورو ينتهز فرص لقاء بييريت بمفردها ، فيحدثها عن مدى شجاعة لورين ، والخسارة التي حلت بها بموته ! .

قبل بضعة أيام من وصول بريغو ، فاجأت سيلفي غورو وبييريت ، ودخلت الغيرة في ذلك القلب بعنف رهباني . والغيرة وهي هوى سريع التصديق للغاية ، شكاك ، تنشط فيه النزوات ، لكنه لايمنح النباهة بل ينتزعها ، وقد قاد سيلفي إلى أفكار غريبة ، فقد تصورت أن الرجل الذي ينشد كلمات «سيدتي المتزوجة» لبييريت هو العميد ، وظنت سيلفي أنها محقة في هذا التصورّ ، فأسلوب غورو في معاملتها قد تغير منذ أسبوع ، وهذا الرجل ، وهو الوحيد الذي اهتم بها في العزلة التي كانت تعيشها ، اهتماماً كانت تلحظه بملء ناظريها ، وكل إدراكها ، ولشدة انصرافها إلى الآمال المزدهرة حيناً ، المتقوِّضة ، حيناً آخر ، جعلت منه شيئاً واسع المدى إلى حد خالت فيه أنها تحت تأثيرات سراب معنوي . أو أنها ، وفقاً لتعبير عامي جميل «لكثرة التحديق لم تعد ترى شيئاً» . ودفعت وصارعت بنجاح مرة بعد مرة افتراض تلك المنافسة الخيمرية . وقارنت بينها وبين بييريت : إنها في الأربعين وقد اختلط سواد شعرها ببياض المشيب ، بينما بييريت فتاة صغيرة ذات بياض مرهف ، وعينين يحييان بحنانهما القلب الميت .

كانت قد سمعت من يقول إن الرجال في الخمسين من العمر يحبون الفتيات الصغيرات على شاكلة بييريت . وقبل أن يوالي العميد بيت روغرون ويتردد عليه ، كانت سيلفي قد سمعت في صالون تيفين أشياء غريبة من غورو وعاداته . وللعوانس عن الحب أفكار أفلاطونية متطرفة تجاهر بهاالفتيات في العشرين من العمر ، وقد احتفظت بمبادئ مطلقة كجميع أولئك اللواتي لم يختبرن الحياة ، ولم يلاحظن كم تعدل القوى الاجتماعية العظمى هذه الأفكار النبيلة والجميلة ، وتضعفها وتهشمها . وخداع هذا العميد لسيلفي كان فكرة تقلق رأسها ، فمنذ هذا الوقت الذي يقضيه كل عازب بطال في سريره مابين يقظته ونهوضه ، كانت العانس منشغلة البال بنفسها ، وببييريت وبالأغنية العاطفية التي أيقظتهابكلمة الزواج .

وبدلاً من أن ننظر إلى العاشق من بين مغلقي النافذة، فتحتها على مصراعيها بمنتهى الحمق دون أن تفكر بأن بييريت تسمعها، ولو أن لها بديهة أي جاسوس عادي، لرأت بريغو، ولما بدأت تلك المأساة المشؤومة.

نزعت ببيريت رغم ضعفها قضبان الخشب المثبتة لمصاريع المطبخ وفتحتها ثم علقتها، ثم ذهبت وفتحت أيضاً باب الممر المفضي إلى الحديقة، وأخذت المكانس المختلفة الضرورية لكنس السجاد، وقاعةالطعام، والممر، والأدراج، أخيراً لتنظيف كل شيء بعناية ودقة لاتبذلها أية خادمة، حتى الهولندية، في عملها: كانت تكره كثيراً التوبيخ! وكان منتهى السعادةبالنسبة إليها أن ترى في عيني ابنة خالتها الزرقاوين، والشاحبتين والباردتين، الهدوء فقط لا الرضى الذي لايظهر فيهما أبداً، وخاصة بعد أن تلقي بنظرتها في كل مكان كمالكة، تلك النظرة العصية على الشرح التي ترى مايدق عن الأعين الأكثر ملاحظة.

بعد هذه الجهود تعود بييريت وجسمهامتعرق دبق إلى المطبخ لتشعل الأفران لتستطيع أن تحمل لكل من نسيبيها النار اللازمة لتدفئة غرفته والماء الساخن اللازم لزينته، وهو مالاتحظى به لنفسها! وتضع على المائدة لوازم الطعام وآنيته، وتشعل مدفأة القاعة. ومن أجل القيام بمختلف هذه الخدمات تذهب أحياناً إلى القبو لتحضر بعض حزم الحطب، وتنتقل من مكان حار إلى مكان رطب وبارد والعكس بالعكس. هذه التنقلات المفاجئة، التي تتم بهمة الشباب لتجنب كلمة قاسية في الغالب، أو لإطاعة أمر كانت تسبب تفاقماً لا علاج له في حالة بييريت الصحية، وهي لاتعلم أنها مريضة غير أنها بدأت تتألم، وكانت تحس بشهية غريبة، لكنها تكتمها، وهي تحب أوراق الخس الخضراء، وتلتهمها خفية، وهي جاهلة تماماً، في براءة طفولتها، أن حالتها تشكل مرضاً خطيراً يتطلب أكبر الاحتياطات. وقبل مجيء بريغو، لو أن هذا الطبيب نيرو، الذي يمكن أن يلوم نفسه على موت الجدة، كشف هذا الخطر المميت للحفيدة، لابتسمت بييريت، فهي تجد مرارة كبيرة في الحياة تدفعها إلى أن تبتسم للموت؛ ولكن بعد فترات من الوقت، انضمت خلالها إلى آلامها الجسمية آلام الحنين إلى الوطن البريتاني. وهو مرض معنوي يعرفه جيداً ضباط الجيش ويحترسون منه بالنسبة للبريتانيين الموجودين في أفواجهم، غدت

الآن تحب بروفنس! فرؤية ذلك الأملود الذهبي، وسماع ذلك الغناء، ووجود صديق طفولتها أنعشها ودب فيها الحياة كنبتة بقيت مدة طويلة دون ماء، واستعادت اخضرارها بعد مدرار من المطر. إنها تريد أن تحيا، وهي تعتقد أنها لاتتألم! وانزلقت بخجل إلى غرفة ابنة خالتها، وأوقدت لها المدفأة، ووضعت لها سخانة الماء، وتبادلت معها بعض الكلمات، وذهبت لتوقظ وليها، وهبطت لتأخذ الحليب والخبز وجميع المؤونات التي يحملها اليهم الموردون؛ وبقيت لبعض الوقت على عتبة الباب، مؤملة أن يفكر بريغو بالعودة، لكنه كان آنذاك في طريقه إلى باريس. وكانت قد رتبت القاعة، وانشغلت في المطبخ، عندما سمعت وقع خطوات ابنة خالتها تهبط السلم، وظهرت الآنسة سيلفي روغرون في مبذلها من التفتا بلون اسمر فاتح، وقلنسوة من التول على رأسها، وشعرها المستعار بشكل طوق سيء الوضع، وقميص نومها يبدو من تحت المبذل، وقدميها في خفين زاحفين، وألقت نظرة فاحصة على المطبخ وتوجهت نحونسيبتها التي كانت تنتظر تعليماتها من أجل إعداد الفطور قائلة بلهجة نصف ساخرة، نصف مرحة: «آه! ها أنت إذاً أيتها الآنسة العاشقة؟

- العفو، ماذا قلت يا ابنة خالتي؟

- دخلت إلى غرفتي بشكل ماكر، وخرجت كما دخلت، وأنت تعرفين جيداً أن لي حديثاً معك.

- أنا . . .

- استمتعت هذا الصباح بسريناد[1] جدير بأميرة.

- هتفت بييريت، سريناد؟

ردت سيلفي وهي تقلد اندهاشهاساخرة: نعم، سريناد؟ ولك عشيق أيضاً.

- يا ابنة خالتي، ماهو العشيق؟

تجنبت سيلفي الجواب وقالت لها: «هل تجرؤين، يا آنسة، على إنكار حضور رجل هذا الصباح إلى تحت نوافذنا يحدثك عن الزواج.

---

(١) سريناد Sérénade: عزف أو غناء ليلي يقوم به عاشق تحت نافذة محبوبته.

علّم الاضطهاد بييريت الخُدع الضرورية للعبيد فأجابت بجرأة: لا أعلم ماذا تريدين قوله.

ردت العانس بحدة: يا للخبث!.

قالت بييريت بخشوع: ابنة خالتي.

- ألم تنهضي من فراشك؟، ألم تذهبي حافية القدمين حتى نافذتك مما يعرضك جدياً للإصابة بالمرض؟ التقطيه إذاً! فأنت تستحقينه. كما أنك على الأرجح، لم تتحدثي إلى عشيقك؟.

- كلا يا ابنة خالتي.

- أنا أعرف أن فيك عيوباً كثيرة، لكنني لم أعرف فيك الكذب. فكري جيداً في ذلك يا آنسة! يجب أن تقولي وتشرحي لابن خالتك ولي مشهد هذا الصباح، وإلا فسيتخذ وليك اجراءات قاسية.

لجأت العانس والفضول والغيرة ينهشانها، إلى التخويف؛ ولزمت بييريت، كالأشخاص المتألمين إلى مافوق طاقتهم الصمت، فالصمت لجميع الأشخاص المحرجين بالاستجواب هو الطريقة الوحيدة للانتصار: فهو يستنفد الهجمات المشحونة بقسوة الحساد، ومناوشات الأعداء المتوحشة، ويمنح انتصاراً ساحقاً وكاملاً. أي شيء أتم من الصمت؟ إنه مطلق، أليس هو إحدى الطرائق للوجود في اللانهاية؟ وفحصت سيلفي بييريت خلسة، كانت الفتاة تحمر، لكن احمرارها، بدلاً من أن يكون عاماً، بدا متوزعاً بصفيحات غير متساوية على الوجنتين، بشكل بقع ملتهبة، وبفارق ذي مغزى. إن أماً ترى هذه الأعراض المرضية تغير سريعاً من لهجتها، وتأخذ ولدها على ركبتيها، وتتوقف عن سؤاله، وتظهر الإعجاب الذي تكنه منذ زمن لألف برهان عن براءة بييريت السامية والكاملة، كان بإمكان الأم أن تخمن المرض وتدرك أن الأخلاط والدم المحولة عن مجاريها تصب في الرئتين، بعد أن تُشَوِّشَ الوظائف الهضمية؛ وهذ البقع المعبرة تظهر لها اقتراب الخطر الداهم. لكن عانساً لم تستيقظ فيها أبداً العواطف التي تغذيها العائلة، ولم تعرف

حاجات الطفولة، ولا الاحتياطات التي يتطلبها سن اليفاع، لايمكن أن تمتلك أي تسامح أو شفقة مما توحي به إحداث الحياة البيتية والزوجية، وبدلاً من أن تحنن آلام الشقاء قلبها فإنها تحجره.

قالت سيلفي في نفسها: «إنها تحمر، فهي مذنبة!» وهكذا فسرت صمت بييريت أسوأ تفسير. واستأنفت بلهجة أكثر رقة: «بييريت، سنذهب لنتحدث قبل أن ينزل ابن خالتك، تعالي، أغلقي باب الشارع، وإن أتى أحد فسيدق الجرس وسنسمعه.». ورغم الضباب الرطب المرتفع فوق النهر قادت سيلفي بييريت في الممر الرملي الذي يتعرج عبر المرجة المعشوشبة، حتى مصطبة من حافة صخرية محصاة قرب ضفة رائعة تتماوج حولها أزهار السوسن والنباتات المائية، وغيرت النسيبة الكهلة أسلوبها، وجربت أن تأخذ بييريت بالرقة، فالضبع قد تحولت إلى هرة.

قالت لها: «بييريت، لم تعودي طفلة، فها أنت تقتربين من سن الخامسةعشر، وليس غريباً أن يكون لك عاشق.

ردت بييريت وهي ترفع عينيها بحلاوة ملائكية نحو وجه نسيبتها الحاد والبارد التي استعادت سحنتها كبائعة: لكن، يا ابنة خالتي، ماهو العاشق؟».

كان من المتعذر على سيلفي أن تعرّف بدقة وحشمة العاشق لربيبة أخيها؛ وبدلاً من أن ترى في هذا السؤال تأثير براءة محببة، رأت فيه مواربة. قالت: «العاشق يا بييريت، رجل يحبنا ويريد الزواج منا.

قالت بييريت: آه! في حال الموافقة في بريتانية، فإننا نسمي عندئذ هذا الشاب خطيباً!

ـ حسن، فكري أنك باعترافك عما تكنين من عاطفة لرجل لاترتكبين أي خطأ، يا صغيرتي بل الخطأ في أن تكتمي ذلك. هل صدف أن حزت على إعجاب أحد من الرجال الذين يأتون إلى منزلنا؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ ألا تحبين أحداً منهم؟ .

ـ لا أحد .

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ كل التأكيد .

ـ ألا تنظرين إليّ يا بييريت؟»

ونظرت بييريت إلى ابنة خالتها التي بادرتها بقولها : «لكن رجلاً ناداك من الساحة، هذا الصباح؟»

وخفضت بييريت بصرها . وتابعت سيلفي : وذهبت إلى نافذتك، وفتحتها، وتكلمت .

ـ كلا يا ابنة خالتي، أردت أن أعرف حالة الطقس، ورأيت في الساحة فلاحاً .

ـ بييريت، منذ مناولتك الأولى، اكتسبت كثيراً من المزايا، فأنت مطيعة وورعة، وتحبين الله وأقرباءك؛ وأنا مسرورة منك، ولا أصرح لك بهذا كي لاأدفعك إلى العجرفة» .

هذه العانس الرهيبة تعتبر الوهن والإذعان وصمت الشقاء فضائل! إن أحد أعذب الأشياء التي يمكن أن تواسي المتألمين، والمعذبين، والفنانين في إبان الوجد الإلهي الذي يفرضه عليهم الحقدو الحسد هو أن يلقوا المديح حيث كانوا يلقون دائماً التجريح والنية السيئة . ورفعت بييريت عندئذ نحو ابنة خالتها عينين ملؤهما التأثر، وشعرت أنها مستعدة لتغفر لهاكل ماسببته لها من آلام . لكن هذه استأنفت :

«لكن إن كان كل هذا نفاقاً، إن رأيت فيك الحيّةالتي ادفأتها في حضني، فستكونين سافلة، ومخلوقة شقية! .

ردت بييريت وهي تشعر بانقباض مريع في القلب من الانتقال المفاجئ من مديح غير مؤمل إلى لهجة الضبع الرهيبة : لا أعتقد أن بي ما تلومينني عليه .

ـ أنت تعرفين أن الكذب خطيئة مميتة؟

ـ نعم يا ابنة خالتي .

قالت العانس وهي تشير بحركة ارتسامية إلى الحديقة وإلى السماء : حسن ، أنت الآن أمام الله ، فاقسمي لي بأنك لاتعرفين هذا الفلاح .

ردت بييريت : لن أقسم!

ـ إنه ليس فلاحاً إذاً أيتها الأفعى الصغيرة!» .

هربت بييريت كظبية مذعورة عبر الحديقة وقد أرهبتها هذه القضية الوجدانية ، ونادتها نسيبتها بصوت مروع ، لكنها ردت «إن الجرس يقرع» .

قالت سيلفي في نفسها : آه! أي ماكرة صغيرة . إنها داهية محتالة ، وأنا على يقين بأن هذه الحية الرقطاء تجتذب العميد ، سمعتنا نقول إنه بارون ، تريدين أن تكوني بارونة! أيتها الحمقاء الصغيرة ، أوه!سأتخلص منها بوضعها في تعلم حرفة ، وبسرعة» .

بقيت سيلفي تائهة في أفكارها حتى أنَّها لم تشاهد أخاها يهبط الممر ويشاهد الخراب الذي أحدثه الصقيع على نباتات الأضاليا التي يعنى بها .

قال : وبعد يا سيلفي ، بماذا تفكرين وأنت هنا؟ ظننت أنك تنظرين إلى الأسماك! فقد تُشاهَد بعضها أحياناً وهي تقفز خارج الماء .

ـ كلا .

ـ حسن ، هل نمت جيداً؟ «وراح يحدثها عن أحلامه خلال الليل ، ثم سألها بعبارات غدت من اختصاص روغرون : «ألا تجدينني حائل اللون؟»» .

منذ أن أحب روغرون الآنسة دي شارجبف ، أو بالأصح منذأن اشتهاها كي لاندنس الكلمة الأولى أخذ يهتم كثيراً بهيئته وبنفسه . في تلك اللحظة نزلت بييريت درجات المدخل ، وأعلنت من بعيد أن طعام الإفطار جاهز . وتغير لون

سيلفي برؤية نسيبتها، وتحول من الأخضر إلى الأصفر، فكل إفرازاتها الصفراوية بدأت بالحركة، ونظرت إلى الممر ووجدت أن على بييريت أن تمسحه.

أجابت تلك الملاك وهي تجهل خطر هذا العمل على فتاة شابة: «سأمسحه جيداً إن أردت»،

كانت قاعة الطعام مرتبة بعناية لا مجال للوم فيها، وجلست سيلفي، وأخذت تتظاهر طوال الإفطار بحاجتها إلى أشياء لم تكن لتفكر فيها لو أنها في حالة هادئة، وهي تطالب بها مختارة في اللحظةالتي بدأت فيها الصغيرة المسكينة بتناول طعامها، لكن الإزعاج لايكفي، فراحت تفتش عن موضوعٍ للتأنيب، وغضبت في دخيلة نفسها لأنها لم تجد. فلو أن إفطار اليوم تضمن بيضاً طازجاً لشكت بالتأكيد من سوء سلقه. كانت تجيب باقتضاب على أسئلة أخيها الحمقاء مع أنها لاتنظر إلا إليه، فعيناها تتجنب بييريت الحساسة للغاية لهذا الإزدراء. كانت بييريت قد جاءت بالقهوة لنسيبتها كما لنسيبها في طاس من فضة، وقد سخنت الحليب ممزوجاً بالقشطة في حمام-ماري[1] حيث يمزج الأخ والأخت القهوة السوداء المعدة من قبل سيلفي بالنسب المرغوبة. وبعد أن حضرت بدقة مايلذ لها، لاحظت ذرواً خفيفاً من القهوة، فالتقطتها بتكلف من دوامة المزيج الصفراء، ونظرت إليها، ومالت محدقة لترى جيداً، وانفجرت العاصفة.

سألها روغرون: ماذا جرى لك؟

- ما جرى.. هو أن الآنسةوضعت الرماد في قهوتي. كم هو ممتع تناول القهوة بالرماد؟... إيه! هذا ليس مستغرباً: إذ لايمكن إجراء شيئين في آن واحد. إنها تفكر جيداً بالقهوة! لو مر شحرور هذا الصباح في مطبخها لما لاحظت وجوده، فكيف يمكنها أن تلحظ تطاير الغبار؟ ثم إن قهوة ابنة خالتها! آه! إنها لاتبالي بها.»

كانت تتكلم بهذه اللهجةالحانقة وهي تضع على طرف الصحن ذرور القهوة المارة عبر المرشحة، وبضع حبيبات سكر لم تذب.

---

(١) حمام ماري Bain-Marie: ماء غالٍ يوضع فيه إناء حاوٍ ما يراد تسخينه (المترجم).

قالت بيبريت : «لكن يا ابنة خالتي هذه ذرات قهوة.

صرخت سيلفي وهي ترمي ببيريت بنظرات صاعقة وعيناها تقدح بالشرر! آه! أنا من تكذب إذاً؟»

هذه الكائنات التي لم تعان من الهوى تمتلك غزارة كبيرة من المائع الحيوي يخدمها، وهذه الظاهرة من البريق المفرط في العين خلال لحظات الغضب متوطدة جيداً لدى الآنسة روغرون حتى أنها كانت سابقاً تستخدم في متجرها تأثير نظراتهابفتح عينها بشكل واسع لتفرض الرهبة الملائمة على مستخدميها!.

تابعت سيلفي : أنصحك باتهامي بالكذب لتستحقي الإبعاد عن المائدة والذهاب لتأكلي بمفردك في المطبخ.

صرخ روغرون : لكن ماذا دهاكما أنتما الاثنتان، إذ أراكما سريعتي الغضب هذا الصباح؟

- إن الآنسة تعرف أي مأخذ لي عليها، وسأترك لها الوقت لتتخذ قراراً قبل أن أصرح لك بفعلتها إذ أنني أعاملها بطيبة لاتستحقها!».

كانت بييريت تنظر إلى الساحة عبر زجاج النافذة لتتجنب رؤية عيني ابنةخالتها اللتين ترعبانها.

- «لايبدو عليها مظهر من تستمع إلي، وكأنني أخاطب هذه السكرية! مع أن لها أذناً مرهفة بحيث يمكنها أن تتحدث من أعلى منزل لتجيب شخصاً يوجد في أسفله... إن ربيبتك في انحراف! إنها في انحراف لايسمى، ولاتنتظر منها شيئاً طيباً، أتسمعني يا روغرون؟.

سأل الأخ أخته؛ لكن أي ذنب اقترفت؟.

هتفت العانس غاضبة : في عمرها! إنها تبدأ مبكرة.

نهضت بييريت لرفع الأطباق عن المائدة ولتتخلص من الإحراج فهي لاتعرف

كيف تتمالك رباطة جأشها . وبالرغم من أن هذه اللغة ليست جديدة عليها، فإنها لم تستطع الائتلاف معها . وقد دفعها غضب ابنة خالتها إلى الاعتقاد بأنها ارتكبت جريمة . وتساءلت كم سيكون حنقها كبيراً إذا عرفت بمغامرة بريغو . لربما عجلت بعدها على أن تنتزعه منها . وراودتها في آن واحد آلاف أفكار العبد الرق، سريعة، عميقة، وقررت أن تلزم صمتاً مطلقاً حول حدث لايشير وجدانها إلى أي سوء فيه . وكان عليها أن تستمع إلى كلمات زائدة القسوة، ومفرطة الفظاظة، وإلى افتراضات كثيرة الإهانة، بحيث انتابها عند دخولها المطبخ، تقلص في المعدة أعقبه إقياء مريع . ولم تجرؤ على الشكوى فهي غير واثقة من أنها ستلقى أي عناية، وعادت شاحبة، ممتقعة الوجه . وذكرت بأنها غير مرتاحة، وصعدت لتنام وهي تتهالك بين درجة وأخرى مستندة على الدرابزين . واعتقدت أن ساعةموتها قد أزفت، وقالت في نفسها : «يا لبريغو المسكين!» .

قال روغرون : إنها مريضة! .

أجابت سيلفي بصوت عال، وبطريقة تسمع فيها عن بعد، مريضة! هذا تمثيل! إنها لم تكن مريضة هذا الصباح، كفى!»

هذه الصدمة الأخيرة حطمت بييريت، فاستلقت على فراشها والدموع تبلل وجهها، وهي تطلب من الله أن يخلصها من هذا العالم .

منذ أكثر من شهر لم يعد روغرون يحمل صحيفة **الدستوري** لغورو، فالعميد يأتي بمجاملة مفرطة لأخذها والتحدث مع روغرون، واصطحابه في نزهة إن كان الجو ملائماً .

كانت سيلفي متيقنة من مجيء العميد وبإمكان استجوابه، وتأنقت في لباسها، واعتقدت العانس بمظهرها المغناج وهي ترتدي ثوباً أخضر وتضع على كتفيها شالاً من الكشمير الأصفر المزنر بالأحمر، وقبعة بيضاء ذات ريشات رمادية صغيرة . وفي الساعة التي توقعت فيها مجيء العميد، قبعت في الصالة مع أخيها بعد أن ألزمته بأن يبقى في المبذل المنزلي وهو ينتعل خفاً بسيطاً .

قال روغرون وهو يسمع وقع خطوات غورو الثقيلة: «هل الطقس جميل، أيها العميد؟ لكنني لم أرتد ثيابي، فأختي كانت تريد الخروج على الأرجح، وألزمتني بالبقاء في المنزل. لكن انتظرني» وترك روغرون سيلفي لوحدها مع العميد الذي سألها وقد لاحظ مظهراً ارتسامياً على وجه العانس العريض المجدور: «أين تريدين الذهاب؟ فأنت متأنقة كربة ساحرة.

ـ أردت الخروج، لكن الصغيرة متوعكة، فبقيت.

ـ مالها إذاً؟

ـ لا أدري، فقد طلبت أن تلازم سريرها.

كان حذر غورو، كي لانقول ريبته، متيقظاً على الدوام من نتائج تحالفه مع فينه، وبالطبع فقد كانت حصة الأسد للمحامي، فالمحامي يحرر الصحيفة، ويسيطر فيهاسيّداً، يوجه المداخيل للتحرير، بينما العميد وهو المدير المسؤول لايربح منها إلا القليل. وقدم فينة وكورنان خدمات كبيرة للأخوين روغرون، بينما لم يستطع العميد المتقاعد أن يفعل شيئاً من أجلهما. من سيغدو نائباً؟ فينه. من هو الناخب الأكبر؟ فينه. من يستشار في كل أمر؟ فينه. لكنه كان يعلم أخيراً، على الأقل كفينه، مدى سعة وعمق الهوى المتوقد لدى روغرون تجاه الفاتنة باتيلد دي شارجبف. فهذا الهوى غدا جنونياً كجميع الأهواء الأخيرة لدى الرجال؛ وصوت باتيلد يدب الرعشة في فؤاد العازب. وروغرون منهمك في شهواته، رغم أنه يخفيها، فهو لايجرؤ على أن يؤمل كثيراً بمثل هذه المصاهرة، وارتآى العميد ليسبر مرامي العقاد أن يقول له إنه مزمع على أن يطلب يد باتيلد، وشحب روغرون لرؤية مثل هذا المنافس الخطر، وفترت علاقته بغورو وغدا شبه حاقد عليه، و هكذا ساد فينه في كل الأحوال لدى آل روغرون بينما لم تتعد علاقة العميد إلا روابط مفترضة لود مزيف من جهته، لم يكشف عنه لسيلفي، وعندما أطلعه المحامي على مناورة الكاهن، ونصحه بأن يهمل سيلفي ويلتفت نحو بييريت، فإنه فينه داعب ميلاً خفياً لدى غورو، لكن هذا استنتج بتحليل المغزى العميق لهذا العرض، وبفحص الأوضاع من حوله، أن حليفه يبغي أن يفسد بينه

وبين سيلفي، وأن يستغل خوف العانس ليحوّل كل ثروة آل روغرون إلى يدي الآنسة دي شارجبف. وهكذا فعندما تركه روغرون لوحده مع سيلفي». استخلص العميد بثاقب فكره القرائن الخفيفة التي تكشف عن قلق سيلفي، ولاحظ لديها المخطط المسبق الذي تدججت له بسلاح الأناقة[1] ثم الإنفراد لفترة من الوقت معه. كان العميد قد داخلته ريبة كبيرة من أن يكون فينه قد أعد له خدمة خبيثة، ونسب تلك المداولة إلى تدبير خفي من ذلك القرد القضائي؛ فاحترس كما لو أنه يقوم باستطلاع في بلاد عدوة، موجهاً اهتمامه إلى المعركة، متنبهاً إلى أقل حركة، الروح متيقظة واليد على سلاحه. وكان مما يعيب العميد أنه لايثق بأي كلمة تصدر عن النساء. وعندما جعلت العانس بييريت موضوع الحديث، وطلبت منها أن تلزم السرير ظهراً، فكربأن إلزامها بالبقاء في غرفتها عقاب لها لأمر ما أو غيرة منها.

قال العميد غورو وقد بدا عليه الإنشراح: «غدت لطيفة جداً هذه الصغيرة.

أجابت الآنسة روغرون: ستكون جميلة.

ـ يجب أن ترسليها الآن إلى باريس إلى أحد المتاجر، حيث يمكنها أن تجمع ثروة، فتجار القبعات يرغبون حالياً باستخدام الفتيات الفاتنات.

سألت سيلفي بصوت مضطرب: أهذا هو رأيك فعلاً؟».

فكر العميد في نفسه: «حسن، فهمت الخدعة، نصحني فينه بأن أفكر بالزواج من بييريت ليبعدني عن التفكير بهذه العانس الماكرة» وأجاب بصوت عال: «ولكن ماذا تريدين أن تفعلي؟ ألا ترين فتاة ذات جمال لايضاهى، باتيلد دي شارجبف، النبيلة، ذات القرابات الجيدة، وقد تجاوزت الخامسة والعشرين ولم تتزوج: لم يتقدم منها أحد لفقرها. وبييريت لاتملك شيئاً، فهي لن تتزوج أبداً.

---

(١) أي أنه أدرك أنها تأنقت لتغزو قلبه، وقد استعمل بلزاك هذا التعبير في رواية «العانس» بخصوص الآنسة كورمون، وفي رواية **«الأب غورو»** بخصوص السيدة فوكه.

هل تعتقدين أن الشباب والجمال يمكن أن يؤثرا على إنسان مثلي على الأقل، أنا النقيب في سلاح فرسان الحرس الامبراطوري؛ الذي قرع بجزمته أرصفة جميع العواصم، منذ أن كان للامبراطور حرس، وعرفت أجمل نساء تلك العواصم؟ الشباب والجمال شيء مبتذل وأحمق للغاية! . . . فلا تحدثيني عنهما! . . . . »

ثم أردف متهارماً: «في الثامنة والأربعين من العمر وبعد التعرض لهزيمة موسكو، . وبعد خوض معركة فرنسة الرهيبة، نحس بأن أضلاعنا قد تحطمت، وبأن الشيخوخة تقترب. وأنا بحاجة إلى امرأة مثلك، تعنى بي وتلاطفني، وتمنح أيام كهولتي، بضم ثروتها إلى تقاعد الألف إكو التي أقبضها، رفاهية ملائمة، وأنا أفضلها ألف مرة على شابة متصنعة تسبب لي المضايقات، وتكون في الثلاثين وفي قمة الأهواء، عندما أكون أنا في الستين أعاني آلام الرئيات. في عمري يجب أخذ كل شيء بالحسبان، وأقول لك فيما بيننا إنني لا أرغب بإنجاب ولد إن تزوجت».

كان وجه سيلفي منشرحاً وهي تستمع إلى خطبة العميد المسهبة، وقد أوصلت عبارتها التعجبية العميد إلى كامل القناعة بخداع فيه.

قالت: «إذاً فأنت غير مغرم ببيريت؟!.

هتف العميد: آه! ما هذا الجنون يا عزيزتي سيلفي؟ هل نجرب بعد قلع الأضراس تكسير ثمار البندق؟ أشكر الله لأنني ما أزال في حسي السليم وأعرف نفسي».

أرادت سيلفي أن تتظاهر بأنها خارج اللعبة، وظنت أن من الدهاء أن تتحدث بلسان أخيها. قالت: «إن أخي يفكر بموضوع زواجك».

ـ لن تخطر لأخيك فكرة على هذا القدر من عدم اللياقة، فمنذ عدة أيام خطر لي أن أكشف عن سره، فأخبرته بأنني أحب باتيلد، فغدا شاحباً مبيض الوجه كياقتك.

قالت سيلفي : أيحب باتيلد؟

كمجنون! ومن المؤكد أن باتيلد لاتريد إلا ماله . »

فكر العميد في نفسه : «هذا جواب لفينه» ، ثم قال : «لعل هذا ما دفعه للكلام عن بيبريت» . ثم اقترب من سيلفي ، وأخذ بيدها وشد عليها بطريقة خاصة وهو يقول : «بما أنك أوصلتني إلى هذا الفصل . . » ثم قبل يدها فهو ضابط في سلاح الفرسان ، ولديه براهين عن الشجاعة ، وأستأنف : «ليكن في علمك أنني لا أريد غيرك زوجة لي ؛ وبالرغم من أن هذا الزواج يبدو زواج منفعة ، فإنا من جهتي أشعر بحب لك .

ـ لكنني أنا من يريد تزويجك من بيبريت . وإذا أعطيتها ثروتي . . ما رأيك أيها العميد؟ .

ـ لا أريد أن أكون بائساً في دخيلة نفسي ، وأرى خلال عشر سنوات شاباً طائشاً كجوليار يحوم حول امرأتي ويوجّه إليها أشعاراً في الصحيفة أنني في هذا المجال لاأتساهل أبداً!ولن أجري أبداً زواجاً غير متكافئ من ناحية السن .

قالت سيلفي وهي ترميه بنظرة ظنت أنها مفعمة بالحب بينما هي أشبه بنظرة سعلاة . كانت تعتقد أنها تبتسم بينما هي تكشف عن أسنان صفراء من خلال شفتين باردتين بلون بنفسجي فج» .

قال روغرون وهو يصحب العميد الذي حيا العانس برقة : «ها أنذا» .

صمم غورو على أن يعجل بزواجه من سيلفي ليغدو بذلك سيد المنزل ، واعداً نفسه بأن يتخلص ، بما سيحققه من تأثير على سيلفي خلال شهر العسل ، من باتيلد وسلست هابر . وهكذا فإنه خلال تلك النزهة صرح لروغرون بأنه كان يمزح معه في يوم مضى : إذ لايخالجه أي طموح إلى قلب باتيلد ، فهو ليس على هذا القدر من الغنى ليتزوج امرأة دون دوطة . ثم أسر له بمشروعه ، واختياره لأخته منذ زمن بسبب مزاياها الطيبة ، وهو يصبو إلى شرف مصاهرته .

هتف روغرون سعيداً لتخلصه من هذا المنافس الرهيب: «آه! أيها العميد! آه! أيها البارون! إن كان الأمر يتعلق بموافقتي فقط، فستحظى بها خلال الوقت المحدد بالأنظمة». قضت سيلفي النهار بكامله في منزلها تتساءل إن كان يتسع لزوج وزوجة؛ وخلصت إلى وجوب أن تبني لأخيها طابقاً ثانياً، وترتب الطابق الأول بشكل يتلاءم مع حياتها وزوجها. لكنها وعدت نفسها أيضاً، وفقاً لنزوة كل عانس، أن تخضع العميد لبعض الاختبارات لتحكم على قلبه وطبائعه قبل أن تقرر، كانت ماتزال تحتفظ ببعض الشكوك وتريد أن تتأكد من أن ليس لبييريت أي علاقة مع العميد.

نزلت بييريت في موعد العشاء لترتب المائدة وتضع الأطباق. واضطرت سيلفي أن تطهو الطعام وبذلك لطخت ثوبها وهي تصرخ: «يا لبييريت الملعونة!». ولو أن بييريت أعدت العشاء لكان بديهياً أن ثوب سيلفي الحريري بقي بعيداً عن هذه البقعة الدهنية.

قالت: ها أنت أيتها الحمقاء الجميلة؟ إنك ككلب الحداد الذي يوقظه جيشان القدر بينما ينام تحت الكور! آه! تريدين أن نعتقد بأنك مريضة، أيتها الكذابة الصغيرة!». كانت فكرة: «أنت لم تعترفي بحقيقة ما حدث في الساحة هذا الصباح، وأنت تكذبين في كل ما تقولينه» هذه هي المطرقة التي كانت تضرب بها سيلفي دون انقطاع على قلب بييريت ورأسها وكانت دهشة بييريت كبيرة، عندما طلبت منها سيلفي أن تذهب بعد العشاء لترتدي ثيابها استعداداً للسهرة.

إن المخيلة الأكثر يقظة لاتصل إلى الفاعلية التي يحفزها الشك في ذهن عانس، إذ أنها آنذاك تتفوّق على السياسيين والمحامين، وكتاب العدل، وعلى المكلفين بالحسومات والبخلاء. ووعدت سيلفي نفسها بأن تختبر فينه، بعد أن فحصت كل ما حولها. وأرادت أن تكون بييريت إلى جانبها لتحكم من مظهر الفتاة عن مدى صدق العميد في كلامه.

كانت السيدتان دي شارجبف أوّل من وصل، وكانت باتيلد بناء على نصيحة نسيبها فينه قدضاعفت من أناقتها. فارتدت ثوباً أزرق لطيفاً من القطن المخملي،

ووضعت على كتفيها خماراً فاتحاً بتزيينات من عناقيد عنب بلون أحمر رماني، وتزينت بأقراط ذهبية، واسترسل شعرها حلقات، بينما تأرجح الصليب المسلسل بدل من عنقها، واحتجبت اليدان بقفازين من السويد والساقان بجوارب حريرية، والقدمان بحذاء من الساتين الأسود، وهي بمظهر ملكة وغنجات غانية تأخذ كل آل روغرون إلى النهر وتعيدهم عطاشاً. أما الأم فهادئة وقور، تحتفظ كإبنتها ببعض التعالي الارستقراطي يفور منه جلياً كل التشيع لطبقتهما. كانت باتيلد قد وهبت ذكاء فائقاً لاحظه فينه بعد شهرين من إقامة السيدتين دي شارجبف لديه، وعندما قدر عمق تفكير تلك الفتاة الحانقة لعدم جدوى شبابها وجمالها، المزدرية لرجال عصر غدا فيه المال معبودهم الوحيد، هتف هذا المحامي مندهشاً: «لو أنك أنت من تزوَّجتُ يا باتيلد لكنت الآن مرشحاً لوزارة العدل، ولسميت فينه دي شارجبف ولاحتللت مقعداً بين نواب اليمين في المجلس.

لم تكن باتيلد في رغبتها الزواج تحمل أي فكرة مبتذلة عنه، فهي لاتريد أن تتزوج لتغدو أماً، ولاتريد أن تتزوج ليكون لها زوج. إنها ستتزوج لتكون حرة. وليكون لها مدير تحرير مسؤول[1]، لتنادى سيدة بينما يمكنها أن تتصرف كما يتصرف الر جال.

كان روغرون بالنسبة لها اسماً وقدرت أن بإمكانها أن تصنع شيئاً من هذا الأحمق نائباً يعطي صوته كما ترتئي، وبذلك يمكنها أن تنتقم من عائلتها التي لم تهتم بها لفقرها وكان فينه قد وسع كثيراً أفكارهاوقواها بإعجابه بها وتقديرها.

كان يقول لها وهو يشرح مدى تأثير النساء وميدان النشاط الخاص بهن: «نسيبتي العزيزة هل تعتقدين أن تيفين الرجل القليل الذكاء يصل بكفاءته إلى المحكمة العليا في باريس! إنهاالسيدةتيفين التي أوصلته للنيابة، وهي التي تدفعه

---

(١) تعبير مألوف يقصد منه أن الزوج هو المسؤول عن حماقات زوجته كمسؤولية مدير تحرير صحيفة عما ينشر بها.

الآن إلى باريس. ووالدتهاالسيدة روغن خليلة ماكرة تفعل ماتريد بالمصرفي الشهير دوتيه، أحدالمتواطئين مع نوسنجن، وكلاهما مرتبطان بآل كيلر[1]، وهذه البيوتات الثلاث تؤدي خدمات إما للحكومة، أو لرجالها الأكثر إخلاصاً، والمكاتب الحكومية على صلات وثيقة مع هذه الذئاب الأوسية من أصحاب المصارف الذين يعرفون كل باريس؛ فما من سبب يحول دون وصول تيفين إلى رئاسة إحدى المحاكم الملكية. تزوجي روغرون وسنجعل منه نائباً عن بروفنس عندما أتمكن أنا بدوري من الفوز بإحدى دوائر مقاطعة السين ومارن. وسيكون لك دخلاًعاماً من أحد هذه المناصب التي لايطلب فيها من روغرون إلا توقيعه فقط. سنكون في المعارضة إن انتصرت، لكن إن بقي آل بوربون، آه! سنتجه بكل هدوء نحوالوسط! كما أن روغرون لن يخلد في حياته، وستتزوجين من بعده رجلاً من حملة الألقاب النبيلة. أخيراً حافظي على مكانتك، وسنستفيد من اسم شارجبف، وسيمدك ما عانيته من بؤس كما أمدني بمعايير تقويم الرجال دون شك: يجب استغلالهم كما تستغل الخيول في محطات إبدال البريد؛ لكل رجل أو امرأة مهمة إيصالنا إلى مرحلة من المراحل.

جعل فينه من باتيلد صورة مصغّرة عن كاترين دي مديسي، وترك امرأته سعيدة في البيت مع ولديها، وصحب باستمرار السيدتين دي شارجبف في سهرات الأخوين روغرون. وكان يصل بكل مجده كمحام عن مقاطعة شامبانية، يضع على عينيه نظارات جميلة ذات ساعدين ذهبيين، ويرتدي صداراً حريرياً، وربطة عنق بيضاء، وبنطالاً أسود، وحذاء أنيقاً وسترة سوداء على الطراز الباريسي، ويحمل ساعة ذهبية مدلاة بسلسلة. وبدلاً من فينه القديم الشاحب النحيل، والفظ المتشائم، ظهر فينه الحالي في مظهر رجل سياسي يمشي مطمئناً إلى قدره، بالثقة الخاصة برجل المحاكم الذي يعرف مغاور الحقوق، ورأسه الصغير الماكر الجيد التسريح، وذقنه الناعمة الحلاقة. يعطيانه مظهراً متلاطفاً رغم برودته بحيث يبدو

---

(١) كان بكر عائلة كيلر فرانسوا ينتخب باستمرار نائباً عن آرسي - سور - أوب (دائرة تروا) منذ العام ١٨١٦، وهذا التفصيل ينبه إلى التقارب بين رواية **بييريت** ورواية «**نائب آرسي**» غير المكتملة.

ظريفاً على شاكلة روبسبيير . من المؤكد أن بإمكانه أن يكون نائباً عاماً ناجحاً ببلاغته المرنة والخطرة والقاتلة، أو خطيباً مفوّهاً ببراعة بنجامن كونستان [(1)] فالمرارة والحقد اللذان كانا يهيجانه فيما سبق قد تحولا إلى حلاوة غادرة. والسم الناقع قد تحول في الطب إلى دواء ناجع.

قالت السيدة دي شارجبف لسيلفي: «عمت مساء يا عزيزتي، كيف أحوالك؟» أما باتيلد فذهبت مباشرة إلى قرب المدفأة، وخلعت قبعتها، ونظرت إلى نفسها في المرآة، ثم وضعت قدمها على حاجز المدفأة للفت نظر روغرون لجمال ساقها، ثم قالت له وهي تتأمله: «مالك أيها السيد، ألا تأتي لتحيتي؟ آه! بالرغم من ارتداء الثياب المخملية من أجلك. . . »

وطلبت من بييريت أن تذهب لوضع قبعتها على أحد المقاعد وتناولتها منها بييريت، فتركتها تفعل ذلك وكأن الفتاة البريتانية خادمة. إن بعض الرجال يعتبرون وحوشاً ضارية، وكذلك النمور؛ لكن لاالنمور، ولا الأفاعي، ولاالدبلوماسيون، ولا رجال العدالة، ولا الجلادون، ولا الملوك يمكن أن يقاربوا في أكبر وحشياتهم القساوات المبطنة بالحلاوات السامة، والازدراءات الهمجيّة للآنسات فيما بينهن، عندما تعتقد بعضهن أنهن اسمى من الأخريات في المولد، أو الثروة، أو الحظوة، أو في الأفضلية للزواج. أخيراً في آلاف هذه المنافسات النسائية. وكانت كلمة شكراً التي وجهتها باتيلد لبييريت قصيدة تحمل اثني عشر نغماً.

فهي تسمى باتيلد والأخرى بييريت، وهي تنتمي إلى عائلة شارجبف والأخرى إلى عائلة لورين! بييريت صغيرة ومتألمةوباتيلد كبيرة وتعج بالحياة!

---

(١) بنجامن كونستان دي ربيك: (١٧٦٧-١٨٣٠) رجل سياسي، وكاتب فرنسي، ولد في لوزان كان أحد أركان الحزب الليبرالي في عهد الملكية الثانية، وصديقاً للسيدة دي ستال، اشتهر بروايته البسيكولوجية «أدولف». وهو محرر العقد الدستوري الامبراطوي الذي أقره نابوليون خلال حكم المئة يوم، تميز كونستان ببراعته البلاغية بل إن بعضهم ينتقد إسرافه فيها. وتشير التصحيحات إلى أن بلزاك فكر أولاً باسم هوراس والبول (١٧١٧-١٧٩٧) وبما أن عائلة والبول تعتبر من مجموعة «هويغ» البرلمانية في انكلترة وهم جماعة الاصلاحيين الأحرار فلنا أن نتساءل إن لم يكن بلزاك قد فكر بمقارنة العداوة السياسيةبين الهويغ والمحافظين في انكلترة مع عداوة الأحرار والمستوزرين في عهد الملكية الثانية في فرنسة.

بييريت تتغذى بالإحسان، وباتيلد وأمها مكتفيتان! بييريت ترتدي ثوباً من الصوف على مثال الراهبات، وباتيلد تهفهف المخمل الأزرق آخر صرعة الأزياء! باتيلد تنعم بأجمل كتفين في المقاطعة وبذراع ملكة، وبييريت ناتئة اللوحين نحيلة الذراعين! بييريت هي سندريلا وباتيلد هي الجنيةالساحرة! باتيلد تسعى إلى الزواج، وبييريت في طريقها إلى الموت عازبة! باتيلد معبودة، وبييريت لاتلقى حب أحد! باتيلد في أجمل تسريحة شعر على أحدث زي، وبييريت تخفي شعرها تحت قلنسوة صغيرة ولاتعرف شيئاًعن الأزياء! وفي الختام: كانت باتيلدكل شيء وبييريت ليست شيئاً. والبريتانية الأنوف تدرك جيداً هذه النغمات الرهيبة.

قالت لها السيدة دي شارجبف من قمة تعاليها وبالنبرة التي يسمح بها أنفها المنضم في نهايته: «طاب يومك يا صغيرتي».

وتجاوز فينه الحد في هذه الأنواع من الإزدراءات عندما قال وهو ينظر إلى بييريت: «أوه! أوه! كم أنت جميلة هذا المساء يا بييريت!

قالت الفتاة المسكينة الجميلة، يجب ألا توجه هذه الكلمة لي، إنما لنسيبتك .

أجاب المحامي: «أوه! نسيبتي إنها دائماً كذلك». ثم التفت إلى رب المنزل وربت على يده وأردف: «أليس كذلك أيها الأب روغرون.

رد روغرون: بلى.

قالت باتيلد: لماذا تريد أن تقوله مالايعتقد به؟ إنه لم يجدني يوماً استحق إعجابه. ثم وقفت أمام روغرون منتصبة وأردفت: «ألست جميلة حقاً؟ أنظر إلي» تأملها روغرون من قدميها حتى الرأس، ثم أغمض بهدوء عينيه كهر دوعب رأسه وقال: «إنك جميلة فوق الحد، ورؤيتك تشعر بخطر فوق الحد!.

ـ لماذا؟

نظر روغرون إلى جمرات النار في المدفأة ولزم الصمت.

في تلك اللحظة، دخلت الآنسة هابر يتبعها العميد. وسِلِست هابر، المعتبرة

عدوة عامة، لم تعد تحسب في صفها إلا سيلفي. لكن كل امرئ كان يبدي لها من المراعاة والتهذيب والانتباه المحبب بقدر مايريد تدميرها، حتى أنها كانت حائرة بين هذه الدلائل من الاهتمام وبين الاحتراس الذي يوقظه أخوها فيها. فالوكيل الأسقفي رغم بعده عن مسرح الصراع، كان يخمن كل شيء فيه. وهكذا فعندما أدرك أن آمال أخته قد تلاشت غدا من أشد خصوم الأخوين روغرون.

كل امرئ سيتصور حالاً الآنسة هابر عندما يعلم أنها لو لم تكن مديرة مدرسة داخلية، ومديرة قديمة، فإنها دائماً في هيئة المعلمة، وللمعلمات طريقة خاصة بهن في وضع قبعاتهن، وكما اكتسبت العجائز الانكليزيات احتكار العِمّة المكوَّرة، تحتكر المعلمات القبعة المقلنسة فالهيكل يطغى على الأزهار فيها، والأزهار أكثر من اصطناعية وهذه البقعة التي حفظت لمدة طويلة في الخزائن جديدة دوماً وقديمة دوماً حتى في يومها الأول. وهؤلاء الفتيات يعتبرن أن مكانتهن تقوم على تقليد عارضات الرسامين، فهن يجلسن على أوراكهن وليس على كراسيهن. وعندما يوجه إليهن الكلام يلتفتن بكامل جذعهن ككتلة واحدة، بدلاً من أن يدرن رأسهن فقط؟ وعند سماع حفيف أثوابهن يعتقد أن نوابض هذه الأنواع من الآليات قد تشوشت. والآنسة هابر، مثال هذا النوع، ذات عين قاسية، وفم متغضن، وتحت ذقنها المتثنية بالتجاعيد كانت شرائط قبعتها الواهية الرخوة تذهب وتجيء وفق حركاتها. وكان لها علامة فارقة صغيرة في شامتين بارزتين قليلاً، سمراوين، مزينتين بالشعر الذي تتركه ينمو فتبدوان كزهرتي ياسمين مبعثرتين. أخيراً كانت تستعمل سعوط التبغ إنما دون أناقة..

بدأت جولة لعب البوسطن؛ وكانت الآنسة هابر في مواجهة سيلفي، والعميد جانباً أمام السيدة دي شارجبف، وبقيت باتيلد قرب أمها وروغرون، ووضعت سيلفي ببيريت بينها وبين العميد. وبسط روغرون المائدة الأخرى لتكون جاهزة في حال حضور السيد نيرو والسيد كورنان وزوجته، وكان فينه وباتيلد يعرفان لعبة الويست التي يلعبها أيضاً السيد كورنان وزوجته. منذ أن أمست السيدتان دي شارجبف، كما يقول أهل بروفنس، تقضيان السهرة لدى الأخوين

روغرون، فإن المصباحين الكبيرين فوق المدفأة بين الشمعدانين الكبيرين والساعة يتوهجان، بينما تضاء الموائد بشموع ثمن الليبرة منها أربعون فلساً وهي تشترى مع ورق اللعب من حساب مجموع اللاعبين.

قالت سيلفي لابنة خالتها برقة ماكرة عندما رأتها تنظر إلى لعب العميد: «وبعد يا بييريت أليس الأفضل أن تأخذي شغل إبرتك يا ابنتي»

كانت تتظاهر دائماً أمام الناس بأنها تعامل بييريت معاملة حسنة جداً. وكانت هذه الخدعة الدنيئة تثير البريتانيةالصادقة وتجعلها تحتقر ابنة خالتها. وتناولت بييريت قطعة تطريزها لكنها استمرت تنظر إلى ورق اللعب في يد غورو الذي لم يبد اهتماماً بالفتاة إلى جانبه، وكانت سيلفي تلاحظه وبدأت تجد تلك اللامبالاة موضع شبهة إلى حد كبير. وفي لحظةمن السهرة باشرت العانس لعبة «حصار كبير»[1] برهان على الكُبا؛ وكانت السلة ممتلئةبالفيش عدا عن سبعة وعشرين فلساً نقداً، وكان نيرو وكورنان وزوجته قد حضروا، كما حضر القاضي الاحتياطي دفوندريل الذي وجدت فيه وزارة العدل الكفاءة لتكليفه كقاضي تحقيق، لكنه لم يبرهن عن موهبةبعد أن غدا قاضياً قائماًعلى رأس عمله، وهجر منذشهرين حزب آل تيفين، وانضم إلى حزب فينه، وكان يجلس أمام المدفأة وظهره إلى النار وأردان معطفه مرفوعة، وهو ينظر إلى هذه الصالة الرائعة التي تتألق فيها الآنسة دي شارجبف، إذ بدا له أن هذه الزينة الحمراء قد أعدت خصيصاً لإظهار جمال تلك الإنسانة الفاتنة. وكان الصمت سائداً، وبييريت تنظر إلى لعبة الحصار، وانتباه سيلفي قد تحول إلى أهمية الجولة.

---

(١) سميت لعبة «البوسطن» في الورق بهذا الاسم لانها ابتكرت أثناء حرب الاستقلال الأمريكية وحصار تلك المدينة، وكانت أطوار اللعب تتوزع بين «حصار» و«استقلال». وبين بلزاك في قصة **«قضية غامضة»** أن هذه اللعبة نشرت أفكار الاستقلال في كل فرنسة بشكل عابث ولمصلحة المتمردين الأمريكيين. وكانت عائلة بلزاك مغرمة بهذا اللعبة، فالروائي يتحدث عنها عن دراية، ولم يكن الفرق كبيراً بين لعبة الوست والبوسطن، ويلاحظ أن الأخوين روغرون كانا يجهلان هذه الألعاب، وأن سيلفي تعلمت لعبة البوسطن في بروفنس، لكنها بقيت تجهل لعبة الوست.

قالت بييريت للعميد وهي تشير إلى لون الكبا: «العب هذا».

شرع العميد بلعب لون الكبا على التعاقب، وكان هذا اللون منحصراً بينه وبين سيلفي حتى أمكنه أن يسقط الأس لديها رغم أنه محمي بخمس أوراق صغيرة.

قالت سيلفي: ليست الجولة صحيحة، فبييريت ترى ورقي، والعميد لعب وفقاً لنصيحتها.

ردت سلِست: لكن يا آنسة على العميد أن يستمر في لعب لون الكبا[1] لأنه لقيك فيه.

هذه العبارة أظهرت البسمة على شفتي السيد دفوندريل الرجل النبيه الذي سر في التسلي بتضارب المصالح في بروفنس، حيث راح يلعب دور ريغودن في مسرحية «بيت الياناصيب» لبيكار[2].

قال كورنان دون أن يعرف موضوع الخلاف: «هذه لعبة العميد».

ألقت سيلفي على الآنسة هابر إحدى هذه النظرات الشرسة مع تكلف اللطف، توجهها عانس إلى عانس ثم ثبتت ناظريها في ابنة خالتها وقالت لها: «بييريت، لقد نظرت إلى ورق لعبي؟

- كلا يا ابنة خالتي.

قال القاضي الاركيولوجي: أنا أراكم جميعاً، ويمكنني أن أشهد بأن الصغيرة لاتنظر إلا إلى العميد.

---

(١) تلاعب في الألفاظ فلون الكبا في ورق اللعب يسمى بالفرنسية eoeur أي قلب ومن هنا جاءت عبارة سلست كتورية للقاء «قلب العميد مع قلب سيلفي».

(٢) مسرحية من فصل واحد لبيكار واردة مُثّلت في العام ١٨١٧ وكان دور ريغودن فيها إثارة الخلاف بين سكان إحدى المدن. وهذا الدور، يعرفه هو نفسه، وهو واقف على نافذته في التمثيلية يردد: «ثمَّ اتهكَّم، وأسخَرَ/ وجميع سكان المحلة/ يتخاصمون بفعل تدبيري/ إنها متعة حقيقية للآلهة . . . / ففي الشارع والساحة/ من هنا، دون أن ألاحظ/ أرى كل مايحدث/ وأضحك كالأحدب».

قال العميد مرتعباً: باه! إن الفتيات الصغيرات يعرفن بظرافة كيف يزلقن أعينهن بانتباه.

- ردت سيلفي: آه!

تابع غورو: نعم، لقد استطاعت أن تنظر إلى أوراق لعبك متعمدة المكر بك، أليس كذلك يا صغيرتي الجميلة؟

قالت البريتانية الصادقة: كلا، أنا غير قادرة على فعل ذلك، كما أنني في تلك الحالة سأتصرف لصالح ابنة خالتي.

قالت سيلفي: أنت تعرفين جيداً أنك كاذبة، إضافة إلى أنك حمقاء صغيرة، كيف يمكن بعدما بدرمنك هذا الصباح أن نثق بكلماتك؟ إنك...»

لم تدع بييريت ابنة خالتها تنهي عبارتها بحضورها، وقدرت سيل الإهانات الذي ستصبه عليها، فخرجت وصعدت دون أي إنارة إلى غرفتها.

شحب وجه سيلفي غضباً وأصرت بأسنانها وهي تقول: سأحاسبها على هذا التصرف.

قالت السيدة شارجبف: ألا تحاسبين على خسارتك في اللعب؟».

في تلك اللحظة صدمت بييريت جبينها بباب الممر الذي تركه القاضي مفتوحا.

هتفت سيلفي: «حسن، لقد نالت جزاءها!»

سأل دفوندريل: ولكن ماذا حدث لها؟

- أجابت سيلفي: شيء مما تستحقه.

قالت الآنسةهابر: لقد تلقت صدمة سيئة».

جربت سيلفي أن تتهرب من تسديد رهان خسارتها في اللعب، ونهضت لترى ماحل ببييريت لكن السيدة شارجبف أوقفتها وهي تقول ضاحكة: «ادفعي لنا أولاً، لأنك لن تتذكري شيئاً عند عودتك».

هذا الاقتراح القائم على سوء نية العقَّادة السابقة في تسديد ديون اللعب، أو في مماحكاتها، نال الموافقة العامة. وعادت سيلفي إلى الجلوس، ولم تعد تفكر ببييريت، لكن هذه اللامبالاة لم تدهش أحداً. وبقيت سيلفي طيلة السهرة فريسة وسواس ثابت، وبعد انتهاء لعبة البوسطن، نحوالساعة التاسعة والنصف، غرقت في أريكة قرب المدفأة، ولم تنهض إلا للرد على تحيةالزوار عند انصرافهم وتوديعم، فالعميد قد أوقعها في حيرة، ولاتدري ماحكمها على تصرفاته.

قالت وهي تلجأ إلى سريرها: «إن الرجال مضللون»!

كانت بييريت قد تلقت ضربة رهيبة من جراء اصطدام رأسها بالباب، قرب أذنها في الجانب الذي ترفع به الفتيات هذا القسم من شعورهن للفه وتجعيده. وفي الصباح بدت عليها كدمة كبيرة.

قالت لها ابنة خالتها عند الغداء: «إن الله عاقبك، إذ عصيتني، وأبديت عدم الاحترام، المتوجب لي عليك، بعدم الاستماع لي، وانصرافك قبل أن أتم عبارتي، وهكذا لقيت الجزاء الذي تستحقينه.

قال روغرون: غير أن الواجب وضع رفادة من الماء والملح على موضع الإصابة.

قالت بييريت: باه! هذا لاشيء يا ابن خالتي»

وجدت الفتاة المسكينة بادرة اهتمام في ملاحظة وليها.

انتهى الأسبوع كما بدأ في عذابات مستمرة. وتفتقت عبقرية سيلفي واندفعت بتفننات طغيانها حتى الطرائق الأكثر وحشية. فالايلينوا، والشيروكي، والموهكين[1] يمكن أن يأخذوا دروساً منها. ولم تجسر بييريت أن تشكو من آلام مبهمة، وأوجاع تحسها في رأسها، وكان منبع استياء ابنة خالتها هو عدم الكشف

---

(١) قبائل من الهنود الأحمر أشيع عنها أنها رموز الوحشية في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الايلينوا يسكنون الولاية التي تحمل ذات الاسم والشيروكي في ولاية أوكلاهوما، والموهيكن في ولايةكونكتيكوت. (ملاحظة المترجم).

عن وجود بريغو، وبعناد بريتاني استمرت بييريت في الالتزام بصمت له مبرراته عن هذا الأمر. فكل واحد سيدرك الآن مدلول النظرة التي ألقتها الفتاة على بريغو التي ظنت أنها ستفقده نهائياً ان اكتشف أمره. وقد أرادت بدافع غريزة درء الخطر أن تراه قريباً منها، وشعرت بالأمن والسعادة، عندمعرفة وجوده في بروفنس. أي غبطة غمرتها عندمشاهدة بريغو. كان ظهور رفيق طفولتها مماثلاً للنظرة التي يلقيها المنفي من بعيد على وطنه؛ ولنظرة شهيد التعذيب إلى السماء، حيث تمتلك عيناه رؤيا ثانية لها قدرة اختراق الحجب في احتدام التعذيب. وقد أدرك ابن الماجور تماماً نظرة بييريت الأخيرة، فكان وهو يسحج دفوفه، ويفتح فرجاره لأخذ قياساته وضبط أخشابه، يشغل مخه ليجد طريقة للتراسل مع بييريت، وانتهى إلى إيجاد حيلة في منتهى البساطة، فما على بييريت في ساعةمعينة من الليل إلا أن تكر خيطاً تعلق في طرفه رسالة. ووسط الآلام الرهيبة التي كان يسببها لبييريت مرضها المضاعف، وتوضع ثقل في رأسها، واضطراب في بنيتها، فقد صمدت بفكرة التراسل مع بريغو، وخالجت الرغبة ذاتها هذين القلبين المفترقين فتفاهما! فعند كل طعنة في القلب، وعند كل وخزة في الرأس. كانت بييريت تقول: «بريغو هنا!» وعندئذ تتألم دون أن تشكو.

في أول سوق أقيم عقب لقاءهما الأول في الكنيسة، ترصد بريغو صديقته الصغيرة، ورغم رؤيتها مرتعشة شاحبة كورقة خريف تتهيأ لتنفصل عن غصنها، لم يفقد رباطة جأشه، واقترب من البائعة التي كانت تشتري منها سيلفي الرهيبة مؤونتها وراح يساومها على بعض الثمار، وأمكنه عندها أن يزلق قصاصة ورق لبييريت، وهو يمازح بالطبع البائعة، وبجرأة ماكر، وبكل برودة أعصاب كما لو أنه مارس هذه المهمة باستمرار. ورغم الدم الحار يخرج فواراً من قبله ويكاد يحطم الشرايين والأوردة وهو يجيش في أذنيه، كان في عزيمته يبدو خارجياً كمحكوم أشغال شاقة عريق، أما باطنياً فارتعاشات البراءة تهزه تماماً كبعض الأمهات في أزماتهن المميتة وقد أخذت بين خطرين، وبين هوتّين. وانتاب بييريت دوار بريغو بالذات، وأخفت سريعاً الورقة في جيب مريلتها، وبدت على صفيحات وجنتيها

حمرة كرزية كالنيران المتوهجة. وعانى هذان اليافعان من جهة وأخرى، ودون علمهما، من أحاسيس لاتصبو إليها عشرات القصص الغرامية المألوفة. ولم تكن سيلفي تعرف اللهجة البريتانية لترى في بريغو عاشقاً محتملاً، وعادت بييريت إلى الى المنزل بكنزها سليماً.

ستترتب على رسائل هذين الولدين البائسين أن تستخدم كوثائق في مرافعة قضائية رهيبة؛ لكن لولا تلك الظروف المشؤومة لما عرفت أبداً. وهوذا ما قرأته بييريت في غرفتها مساء.

عزيزتي بييريت

في منتصف الليل، في الساعة التي ينام فيها جميع الناس، سأكون أنا ساهراً من أجلك، وسأحضر كل ليلة إلى أسفل نافذة المطبخ، حيث يمكنك بواسطة خيط ذي طول مناسب تدليه من نافذتك إلى أن يصل دون إحداث ضجة، أن تربطي فيه ماتريدين كتابته لي، وسأجيبك بالطريقة نفسها، عرفت أنك تعلمت القراءة والكتابة، وأن هؤلاء الأقارب التعساء الذين يجب أن يحسنوا معاملتك، يسيئون لك.

أنت يا بييريت ابنة عميد استشهد في سبيل فرنسة، يلزِمك هذان الوحشان على العمل طاهية لهما؟!.. هوذا إذاً ما غيَّر نضارة ألوانك الجميلة وصحتك السليمة! ماذا حل بعزيزتي بييريت؟ ماذا فعلوا بها؟ إنني أرى جيداً أنك لست على مايرام. أوه! يا بييريت، فلنعد إلى بريتانية. يمكنني أن أربح وأقدم لك ما ماينقصك. يمكن أن أعطيك ثلاثة فرنكات يومياً، لأنني أربح بين الأربعة والخمسة، ويكفيني ثلاثون فلساً. آه! يا بييريت، كم صليت وتضرعت إلى الله من أجلك منذ أن استعدت رؤياك! طلبت منه أن يحمّلني جميع آلامك، ويحتفظ لك بجميع المسرات. ماذا تفعلين إذاً لدى هؤلاء الذين يرتهنونك؟ إن جدتك أفضل منهم. وهذان الروغرون عنصران سارقان، فقد سرقا منك مرحك! ومشيتك في بروفنس تختلف عن حركاتك في بريتانية. فلنعد إلى بريتانية! أخيراً أنا هنا

لخدمتك، ولتنفيذ أوامرك، فاطلبي مني ما تريدين. إن كنت بحاجة إلى دراهم، فإن معي ستين إكو وسيؤلمني أن أرسلها إليك في طرف الخيط بدلاً من أن أقبل باحترام يديك العزيزتين وأنا أضعها فيهما. آه! مضى وقت يا عزيزتي بييريت تعكرت فيه زرقة السماء حولي. لم أحظ بساعتين من البهجة منذ أن وضعتك في عربة الشؤم تلك؛ وعندما رأيتك مجدداً لأول مرة عكرت تلك القريبة الدجالة سعادة لقائنا. أخيراً مما يواسينا أن بإمكاننا أن نتضرع إلى الله معاً كل نهار أحد، وقد يستمع إلينا بشكل أفضل. ولن أقول وداعاً، يا عزيزتي بييريت بل إلى هذه الليلة إلى رسالتك[1]»

كان تأثر بييريت كبيراً من هذه الرسالة، وبقيت أكثر من ساعة تنظر إليها وتعيد قراءتها لكنها فطنت بألم إلى أن ليس لديها شيء من لوازم الكتابة، وغامرت بالنزول من سقيفتها إلى قاعة الطعام حيث يمكنهاأن تجدحبراً وريشة وأوراق كتابة، وأخذت حاجتها منها دون أن توقظ ابنة خالتها الرهيبة. وقبل منتصف الليل بلحظات كانت قد كتبت هذه الرسالة التي استخدمت أيضاً في مرافعة الدعوى القضائية.

يا صديقي:

أوه! نعم، يا صديقي، فما من أحد يحبني إلا أنت وجدتي. وليغفر لي الله هذه الخطيئة فأنتما أيضاً الشخصان الوحيدان اللذان أحب أحدهما كحبّي للآخر. دون زيادة أو نقصان،. كنت صغيرة جداً فلم أستطع معرفة أمي العزيزة. لكن أنت، يا جاك، وجدتي، وكذلك جدي، وليحله الله في السماء، لأنه تألم من إفلاسه الذي كان إفلاساً لي أيضاً. أخيراً، أنتما الاثنان الباقيان أحبكما بقدر ما أنا تعيسة، وهكذا فلمعرفة حبي لكما يجب أن تعرفا كم أتألم؛ وأنا لا أرغب في

(١) هذه الرسالة تثير الدهشة، فبريغو يعبر تارة بلغة بسيطة وعبارات ساذجة مثل: «يمكنني أن أعطيك ثلاثة فرنكات...» وتارة بعبارات هي مفخرة الأدب الغنائي مثل: «آه! مضى وقت يا عزيزتي بييريت، تعكّرت فيه زرقة السماء حولي». ويبدو أن بلزاك أراد أن يقدم لنا رسالة مؤثرة اختلطت فيها السذاجة بالعاطفة النبيلة، فهل نجح؟ هي على الأقل ليست رسالةصانع نجار!

إطلاعكما على شقائي لما سيسببه لكما من غم كبير. يوجَّه لي كلام لا نوجهه للكلاب، وأعامل كأنني أحط المنحطات! وعندما رجعت إلى نفسي أفحصها، وكأنني أمام الله، لم أجد أنني أرتكبت خطيئة أمامهما. قبل أن تنشدني أنشودة العرائس، تعرفت على طيبة الله في آلامي، إذ أنني عندما كنت أتضرع إليه أن يخلصني من هذا العالم، وأشعر في نفسي بوطأة المرض، كنت أقول: إن الله يسمعني! ولكن يا بريغو، بما أنك هنا، فأنا أريد أن نذهب إلى بريتانية لأنضم إلى جدتي التي تحبني، بالرغم من أن نسيبيَّ قالا لي: إنها سرقت مني ثمانية آلاف فرنك. هل يمكن أن أملك ثمانية آلاف فرنك، يا بريغو؟ وإن كان لي هذا المبلغ، فهل يمكنك الحصول عليه؟ لكن هذه الأكاذيب، فلوا امتلكنا ثمانية آلاف فرنك لما كانت جدتي في سان جاك، وأنا لا أريد أن أعكر الأيام الأخيرة لهذه القديسة الطيبة بسرد عذاباتي: ففيها ما يميتها. آه! لو تعلم أن حفيدتها تكلف بغسل الأطباق وأواني الطهي والطعام، وهي التي كانت تقول لي، عندما أريد مساعدتها في أيام محنتها: اتركي هذا يا حلوتي، اتركي، اتركي، يا جميلتي، ستشوهين يديك الصغيرتين اللطيفتين. آه! حسن، إن أظافري ماتزال نظيفة، فهيا! وأنا في معظم الوقت لاأتمكن من حمل سلة المؤونة التي ترهق ذراعي وأنا عائدة من السوق. غير أنني لا أعتقد أن نسيبي لئيمان، إنما هو طبعهما في التأنيب دائماً. ويبدو أن ليس بإمكاني تركهما، فابن خالتي هو الوصي عليّ، وفي يوم أردت الهرب لشدة شعوري بالضيق، وصرحت لهما بذلك، أجابتني سيلفي ابنة خالتي: أنني لو فعلت للاحقني رجال الدرك، وأن القانون إلى جانب وصيي. وأدركت جيداً أن الأقارب لايحلون محل الأب والأم، كما أن القديسين لايحلون محل الله الرحيم.

ماذا تريد يا عزيزي جاك أن أفعل بدراهمك؟ احتفظ بها من أجل سفرتنا. أوه! كم أفكر بك، وببنهويل، والشط المائي الواسع، فهناك تناولنا خبزنا الأبيض لأول مرة. لكن يبدو لي الآن أن حالتي سيئة. فأنا مريضة جداً يا جاك! إن في رأسي آلاماً تدفعني إلى الصراخ، وفي العظام، وفي الظهر، ثم لا أعلم ماذا في جنبي ويكاد يقتلني، ولا شهية لي إلا للأشياء الحقيرة، الجذور، والأوراق، أخيراً

أحب أن أشم رائحة الأوراق المطبوعة. تمر بي لحظات أبكي فيها عندما أكون وحدي، إذ لا أترك أبداً لأفعل ما أرغب به، حتى البكاء لايسمح لي به، ويجب أن أختبئ لأقدم دموعي إلى من تعود إليه هذه النعم التي نسميها أشجاننا. أليس هو من منحك الفكرة الطيبة للمجيء إلى تحت نافذتي وإنشاد ترنيمة العرائس؟ آه! يا جاك، إن ابنة خالتي التي سمعتك قالت لي إن لي عشيقاً. إذ أردت أن تكون عشيقي، فاحببني جيداً، وأنا أعدك بأن أحبك دائماً كما في الماضي، وأن أكون خادمتك الأمينة.

«بييريت لورين»

«ستحبني دائماً، أليس كذلك؟»

تناولت البريتانية من المطبخ لب قطعة خبز أجرت فيه ثقباً وضعت فيه الرسالة، وأعطت للخيط بعض الثقل، وعند منتصف الليل، وبعد أن فتحت نافذتها بكل حذر، أنزلت الرسالة مغلفة بقطعة الخبز، وبذلك لايمكن أن تحدث أي ضجة إن اصطدمت بالحائط أو بمصراع النافذة. وشعرت ببريغو يتناول الخيط ويقطعه ثم يبتعد بهدوء بخطوات الذئب. وعندما أصبح في وسط الساحة أمكنها أن تراه على ضوء النجوم إنما دون وضوح، أما هو فتأملها في المنطقة المضيئةمن النور المنبعث من الشمعدان. وبقي هذان الولدان هكذا لنحو ساعة، إلى أن أشارت له بييريت بالذهاب، فذهب، وبقيت هي في مكانها فعاد إلى النقطةالتي كان فيها لتأمره ببييريت مجدداً بمغادرة الساحة. واستمرت هذه المناورة عدة مرات إلى أن أغلقت الفتاة نافذتها، وأوت إلى فراشها وأطفأت النور. وما أن أمست في السرير حتى غفت سعيدة رغم آلامها؛ وكانت رسالة بريغو تحت وسادتها. ونامت كما ينام المضطهدون نوماً تحمله الملائكة، هذا النوم ذا الأجواء الذهبية واللازوردية المليء بالزخرفات الإلهية التي تصورّها وجسّدها الرسام رفاييل. كان للطبيعة المعنويةسيطرة كبيرة على هذه الطبيعة الفيزيائية المرهفة، حتى أن بييريت نهضت في اليوم التالي فرحة، خفيفة كسنونوة، منشرحة ومغتبطة. ومثل هذا التغير لايمكن أن يخفى عن عين نسيبتها، وبدلاً من أن تؤنبها هذه المرة راحت تراقبها بانتباه عقعق.

من أين تأتيها كل هذه السعادة؟ وكان دافعها الحسد لا الاستبداد. لو لم يكن العميد يشغل بال سيلفي، لقالت لبيريت كالسابق: «بيريت إنك كثيرة الصخب، أو غير مكترثة بما يقال لك!». وعزمت العانس على أن تتجسس على بيريت بالمهارة التي تعرفها العوانس في التجسس. وكان ذلك اليوم قاتماً، صامتاً كاللحظة التي تسبق العاصفة.

قالت سيلفي على العشاء، موجهة أولاً كلامها إلى بيريت: «أنت لاتتألمين إذاً أبداً يا آنسة؟» ثم التفتت إلى أخيها دون أن تنتظر جواب بيريت هاتفة: «ألم أقل لك إنها تقوم بكل هذه الحركات لإزعاجنا!

- بالعكس، يا ابنة خالتي، فأنا أحس بما يشبه الحمى.

- حمى ماذا؟ أنت منشرحة كالشرشور(*)! إنك، على الأرجح، رأيت أحداً ما؟» ارتعشت بيريت وخفضت عينيها نحو طبقها.

صرخت سيلفي: طرطوف! الآن! وأنت في الرابعة عشر من العمر! أي استعدادات! لكن ألا تخجلين إذاً؟.

رفعت بيريت عينها السنجابيتين الجميلتين الجليتين نحو ابنة خالتها وقالت: «لا أعلم ماذا تريدين قوله».

قالت: ستبقين هذا المساء في قاعة الطعام تطرزين على ضوء شمعة. فالصالة لاتتسع لك، ولا أريد أن تنظري إلى أوراق لعبي لتوجهي النصائح للأثيرين لديك.»

لم يرف لبيريت جفن. وهتفت سيلفي وهي تخرج حانقة: «إنها تخفي أمراً!» قال روغرون لبيريت وقد عصي عليه فهم كلمات أخته: «ماذا بينكما؟ جربي أن ترضي ابنة خالتك يا بيريت، أنت مخطئة دون شك في تعكير مزاجها،

---

(١) الشرشور Pinson: طير من الجواثم المخروطية المنقار ذو ريش أزرق مائل للخضرة يخالطه سواد اشتهر بزقزقته الجميلة (م. المترجم)

فهي مثال اللطف والتسامح، فلماذا تتشاجران؟ إنني أحب أن أعيش في هدوء وراحة بال. أنظري إلى الآنسة باتيلد وجربي أن تتخذي منها قدوة لك.»

أمكن لبييريت أن تتحمل كل شيء، فبريغو سيأتي دون شك عند منتصف الليل يحمل إليها جواباً، وهذا الأمل كان عون يومها، وهي تستنفد قواهاالأخيرة! ولم تنم. بل بقيت واقفةتستمع إلى دقات الساعة الجدارية، وتخشى أن تحدث أي ضجة. أخيراً سمعت رنات منتصف الليل، فتحت بكل هدوء نافذتها، واستخدمت هذه المرة حبلاً حصلت عليه بربط عدة خيوط متينة طرفاً إلى طرف، ودلته عند سماعها وقع خطوات بريغو، وعندما سحبته أمكنهاأن تقرأ الرسالة التالية التي غمرتها بالغبطة..

عزيزتي بييريت

إن كانت آلامك كبيرة، فتحمليها لبعض الوقت وانتظريني، وستسمعينني جيداً أصرخ كما كان يصرخ الثائرون الملكيون. ولحسن الحظ فإن والدي علّمني أن أقلد هذه الصرخة. إذاً فسأصرخ ثلاث مرات، وستعرفين عندئذ إنني هنا، ويجب أن تمدي لي الحبل؛ لكنني لن آتي قبل عدة أيام، وأنا أرجو أن أحمل إليك خبراً طيباً. أوه! بييريت، أتفكرين بالموت يا بييريت؟ إن قلبي ارتعب؛ وخلت نفسي ميتاً عند هذه الفكرة. كلا يا عزيزتي بييريت، لن تموتي، وستحيين سعيدة، وستتخلصين قريباً من مضطهديك. وإذا لم أنجح في ما أسعى إليه من خلاصك، فسأذهب لأراجع العدالة، ولأعلن للسماء وللأرض كيف يعاملك هؤلاء الأقرباء الظالمون. أنا على يقين أن معاناتك لن تستمر إلا بضعة أيام فقط، فتذرعي بالصبر يا بييريت! فبريغو يسهر عليك كما في ذلك اليوم الذي كنا نتزلج فيه فوق المستنقع المتجمد، وتمكنت من إنقاذك بعدأن كدنا نهلك سوية عند الهوة التي انفتحت أمامنا. وداعاً يا عزيزتي بييريت، بعد بضعةأيام سنكون سعداء بمشيئة الله. للأسف! لا أجرؤ أن أخبرك بالشيء الوحيد الذي يحول دون اجتماعنا. لكن الله يحبنا! وخلال بضعة أيام سأتمكن إذاً من رؤية عزيزتي بييريت حرة، دون هم، ودون أي عائق يمنعني من رؤيتها. أوه! بييريت كم أنا مشوق لرؤيتك. أنت التي تكرمت وأحببتني وقلت لي

ذلك. نعم يا بييريت سأكون حبيبك، إنما عندما أكسب الثروة التي تستحقينها، وحتى ذلك الوقت، لاأريد أن أكون بالنسبة لك إلا الخادم المخلص للحياة التي تستحقينها. وداعاً.

«جاك بريغو»

هوذا ما لم يقله ابن الماجور لبييريت. فبريغو كتب الرسالة التالية إلى السيدة لورين نانت.

السيدة لورين:

إن حفيدتك ستموت تحت وطأة معاملات سيئة، إن لم تحضري للمطالبة باستعادتها. كدت لا أتعرف عليها، ولكي أمكنك من الحكم على وضعها فإنني أرفق لك الرسالة التي تلقيتها من بييريت. ويمكنك من خلالها معرفة مصير حفيدتك، والتيقن من صحةالاتهام. تعالي سريعاً بقدر ماتستطيعين، فبذلك نستدرك سعادتنا، أما إن تأخرت فستجدين بييريت ميتة.

إنني بكل احترام خادمك المخلص

«جاك بريغو» لدى النجار فرابيه، الشارع الكبير، بروفنس.

ماخشيه بريغو هو أن تكون جدة بييريت قد توفيت.

بالرغم من غموض رسالة بريغو، الذي سمته بييريت ببراءة عشيقها، فإن البريتانية وثقت فيها بإيمانها العذري. وخفق قلبها بالإحساس الذي يشعر به المسافرون في الصحراء عندما يشاهدون من بعيد أشجار نخيل الواحة. فبعد أيام قليلة ستنتهي محنتها. هكذا قال لها بريغو، ونامت على وعد صديق طفولتها. غير أن فكرة مروعة انتابتها وهي تضم تلك الرسالةإلى الرسالة الأولى وتجلت بأسى وهي تقول في نفسها.

«يا لبريغو المسكين، إنه لايعلم في أي حفرة وضعت قدمي».

سمعت سيلفي حركة بييريت، كما سمعت حركة بريغو تحت نافذتها، فنهضت وهرعت تفحص الساحة عبر مصاريع النافذة، فأبصرت على ضوء القمر

رجلاً يبتعد باتجاه منزل العميد حيث توقّف أمامه. وفتحت العانس بابها بكل هدوء وصعدت، ودهشت لرؤية النور لدى بييريت؛ ونظرت من خلال ثقب القفل فلم تر شيئاً ونادت:

«بييريت، هل أنت مريضة؟

أجابت بييريت مندهشة، كلا، يا ابنة خالتي.

ـ لماذا تشعلين النور لديك إذاً في منتصف الليل؟ افتحي يجب أن أعرف ماذا تفعلين؟ فتحت بييريت حافية القدمين، وشاهدت ابنة خالتها الحبل مكوماً، إذ لم تتوقع بييريت هذه المباغتة فلم تخبئه؛ وقفزت سيلفي باتجاهه قائلة:

«لماذا تستعملين هذا؟.

ـ للا شيء، يا ابنة خالتي.

ـ للا شيء، حسن! كذب مستمر، لن يوصلك هذا إلى الجنة. عودي إلى سريرك، يبدو أنك قد بردت».

لم تسأل سيلفي غير هذا، وانسحبت تاركة بييريت مرتعبة من هذا التسامح. لكن العانس بدلاً من أن تنفجر غيظاً، عزمت فجأة على أن تباغت العميد وبييريت، وأن تمسك بالرسائل، وتفحم العاشقين اللذين يخدعانها. وأحست بييريت بالخطر فبطنت مشدها بالرسالتين وفوقهما قطعة قماش كاليكوت.

هنا انتهت مغامرات بييريت وبريغو الغرامية.

كانت بييريت مسرورة مما عزم عليه صديقها. فشبهات نسيبتها ستحبط لعدم استنادها إلى اساس. والواقع أن سيلفي استمرت ثلاث ليال على رجليها، وثلاث أمسيات ترقب العميد البريء، دون أن ترى لدى بييريت أو في البيت أو خارجه مايكشف عن اتصال هذين الشخصين وأرسلت بييريت إلى الاعتراف، وانتهزت فرصة غيابها لتنقب في كل شيء لدئ تلك الفتاة، باعتياد ونفاذ بصيرة الجواسيس، وحراس الحواجز في باريس. ولم تعثر على شيء، وبلغ حنقها ذروة الأحاسيس

البشرية؛ ولو أن بييريت كانت أمامها لأشبعتها ضرباً دون شفقة. فبالنسبة لعانس بهذه الجبلة، غدت الغيرة انشغالاً شاغلاً أكثر منها إحساساً: فهي تعيش، وتشعر بضربات قلبها، وتحس بانفعالات كانت حتى الآن مجهولة كلياً لديها؛ فأقل حركة تجعلها مستيقظة، وهي تنتبه لأقل ضجة وترقب بييريت بقلق قاتم.

قالت: «هذه الصغيرة البائسة ستقتلني».

وصلت قسوة سيلفي على ابنة خالتها إلى الفظاظةالأكثر تفنناً، وزادت من تفاقم حالة بييريت المؤسفة. فالصغيرة المسكينة تنتابها الحمى باستمرار، وغدت آلام رأسها لاتحتمل. وخلال ثمانية أيام بدت أمام رواد منزل الأخوين روغرون بوجه متألم يحنن النفعيين الأقل قسوة، لكن الطبيب نيرو بقي أكثر أكثر من أسبوع دون أن يأتي، ولعل غيابه كان بناءً على نصيحة من فينه. وخشي العميد، وهو موضع شبهةسيلفي من أن يبدي أقل اهتمام ببييريت؛ وفسرت باتيلد التغير الطارئ على تلك الفتاة بأزمة متوقعة، وطبيعية، ولاخطر منها. أخيراً وفي مساء أحد كانت بييريت في الصالون المليء بالزوار، ولم تستطع الصمود أمام شدة آلامها، وغابت عن الوعي تماماً، وهرع العميد وكان أول من لاحظ غيبوبتها وحملها ليضعهاعلى أحد الدواوين.

قالت سيلفي وهي تنظر إلى الآنسة هابر ومن يلعب الورق معها: «إنها فعلت ذلك عن عمد.

قال العميد: أؤكد لك أن حالة قريبتك سيئة جداً.

قالت سيلفي وهي ترمق العميد بنظرة ساخرة تصحبها ابتسامة مروعة: لكنها كانت في حالة جيدة جداً بين ذراعيك.

قالت السيدة دي شارجبف: إن العميد على حق، ويجب عليكم استدعاء طبيب، فعند الخروج من الكنيسة هذا الصباح كان كل واحد يتكلم عن حالة الآنسة لورين الظاهرة السوء.

قالت بييريت: إنني أموت.»

نادى دفوندريل سيلفي وطلب منها أن تفك أزرار ثوب نسيبتها، وهرعت سيلفي وهي تقول: «إنه تصنع!» وحلت زنار الثوب ولامست المشد، ووجدت بييريت عند ذاك قوة خارقة لتنهض وتصرخ: «كلا! كلا! سأذهب لأنام.»

كانت سيلفي قد جست المشد، وشعرت يدها بملمس الورق. وتركت بييريت تهرب، وخاطبت جميع الحاضرين بقولها: «وبعد، ماذا تقولون عن مرضها؟ إنه خدعة! لايمكن لكم أن تتصوروا فساد هذه الفتاة».

بعد انتهاء السهرة، استبقت فينه، وكانت غاضبة وتريد الانتقام، وكانت فظة مع العميد عندما غادر مودعاً. وألقى العميد على فينه نظرة متوعدة استقرت قرب بطنه وبدا وكأنه يحدد موقعاً مناسباً لرصاصة. ورجت سيلفي فينه أن يبقى، و عند انفرادهما، قالت له العانس: «أبداً لن أفكر في حياتي، وحتى نهاية أيامي أن أتزوج العميد!.

قال فينه: الآن، وقد اتخذت قرارك، أستطيع أن أتكلم، والعميد صديقي. لكن صداقتي لكما أكبر، فروغرون أدى لي خدمات لاتنسى أبداً. وكما أنني صديق مخلص، فأنا أيضاً عدو شرس. وما أن أغدو في المجلس حتى ترون بالتأكيد إلى أين يمكنني الوصول؛ وروغرون سيغدو محصلاً عاماً بواسطتي. وبعد، اتقسمين لي بألا تتفوهي لأحد عما سأحدثك به؟» وعندما هزت سيلفي رأسها علامة الإيجاب استأنف: «في البدء، هذا العميد الشجاع مقامر كأوراق اللعب».

ـ آه!

ـ لولا المتاعب التي تسببها له هوايته، لوصل لرتبة مارشال على الأرجح، وهكذا يمكنه أن يضيع لك ثروتك. لكنه رجل عميق. ولاتعتقدي أن الأزواج يتحكمون في إنجاب الأولاد، فالله هو الذي يمنحهم، وأنت تعرفين ماذا يمكن أن يحصل لك. كلا، إذا أردت الزواج، انتظري إلى أن أصل إلى المجلس، ويمكنك عندئذ أن تتزوجي هذا الكهل دفوندريل الذي سيغدو رئيس محكمة، ولتنتقمي زوّجي أخاك من الآنسة دي شارجبف، وسأسعى للحصول على موافقتها؛ فهي صاحبة دخل ألفي فرنك سنوياً، وستصاهرون آل شارجبف

مثلي تماماً، وتأكدي أن آل شارجبف سيعتزون بنا كأنسباء لهم.

ـ أجابت سيلفي: إن غورو يحب بييريت.

قال فينه: إنه قادر على هذا، وقادر على أن يتزوجها بعد موتك.

قالت: إنها خطةمعدة ببراعة.

ـ قلت لك ذلك، إنه رجل داهية كالشيطان! زوجي أخاك معلنة أنك قد عدلت نهائياً عن الزواج لتتركي ثروتك لذرية أخيك، وهكذا تنالين بضربة واحدة بييريت وغورو وستشاهدين أي سحنة ستبدو عليهما.

ـ آه! هذا صحيح؛ سأنال منهما، ستذهب لتحل صانعة في أحد المتاجر ولن تحظى بشيء ولن يكون لديها فلس واحد. فلتفعل مثلنا، لتشتغل!».

خرج فينه بعد أن أقنع سيلفي، المعروفة بعنادها، بمخططه، وانتهت العانس إلى الاعتقاد بأن هذا المخطط صادر عنها. وكان العميد في الساحة ينتظر فينه وهو يدخن سيجاراً.

هتف غورو صارخاً به: «قف! لقد حطمتني، لكن بين الحطام من الحجارة مايكفي لدفنك فيها.

ـ أيها العميد.

ـ لايوجد عميد، وسأوصلك سريعاً إلى عواقب عملك. أولاً، لن تكون أبداً نائباً.

ـ أيها العميد.

ـ إنني أتصرف بعشرة أصوات، والانتخابات تحتاج إلى . . .

ـ أيها العميد، ألا تستمع إليَّ؟ ألا توجد إلا العانس سيلفي، إنني خارج من محاولة تبرئتك، فأنت متهم ومدان بالكتابة إلى بييريت، فقد رأتك تخرج من منزلك في منتصف الليل لترود تحت نوافذها.

ـ ادعاء جيد!

ـ وستزوج أخاها من باتيلد وتحتفظ بثروتها لأولادهما.

ـ هل سينجب روغرون؟

ـ نعم، لكن أعدك بأن أجد لك فتاة شابة، لطيفة المعشر، مع دوطة مئة وخمسين ألف فرنك. هل أنت مجنون؟ أيمكننا أن نختلف؟ تغير الوضع، رغماً عني، لغير مصلحتك؛ لكنك لاتعرفني.

ـ حسن، يجب التعارف، جد لي زوجة بدوطة خمسين ألف إكو، قبل الانتخابات؛ وإلا فستجدني في طريقك. فأنا لا أحب المماحكين. وقد سحبت كل الغطاء نحوك.

عم مساء.

قال فينه وهو يصافح العميد بمودة: سترى».

نحو الساعة الواحدة صباحا، انطلقت من الساحة ثلاث صيحات واضحة جلية مقلدة بشكل عجيب صيحة البومة. وسمعتها بييريت عبر رقادها المحموم، فنهضت والعرق يبللها، وفتحت نافذتها، فأبصرت بريغو ومدت إليه طرف كبة حرير، علق فيه رسالة.

لم تكن سيلفي المضطربة من أحداث السهرة، ومن حيرتها وترددها قد نامت؛ وسمعت الصيحات، وظنت فعلاً أن بومة تنعق، وقالت في نفسها: «آه! يا لطير الشؤم. لكن هاهي بييريت تنهض! مادهاها؟»

وسمعت نافذةالسقيفة تفتح، وأسرعت إلى نافذة غرفتها، وسمعت على طول مصراعيها حفيف رسالة بريغو؛ فشدت أشرطة قميص نومها، وهرعت بخفة إلى غرفة بييريت، فوجدتها تلف كبة الحرير وتحرر منها الرسالة.

هتفت العانس وهي تهرع إلى النافذة لترى بريغو يهرب راكضاً: «آه! ضبطتك؛ أعطني هذه الرسالة».

سيطرت على بييريت إحدى هذه الإيحاءات المذهلة برحابتها لدى الشباب، واندفعت بعزة الروح، فتسامت إلى كبر المقاومة التي تستحق الإعجاب في تاريخ بعض الشعوب المقهورة حتى اليأس؛ وهتفت: كلا، يا ابنة خالتي.

صرخت سيلفي وهي تتقدم نحو نسيبتها، وتكشف عن قناع رهيب ممتلئ حقداً، وهي تزمجر من الغضب: آه! أنت لاتريدين؟....».

تراجعت بييريت ليتسنى لها الوقت للإمساك بالرسالة، والشد عليها في قبضة يدها بقوة لاتقهر. برؤية هذه المناورة قبضت سيلفي بيدين ككماشة سرطان البحر على يد بييريت الهزيلة البيضاء، وأرادت أن تفتحها. وكانت معركة رهيبة، معركة شائنة ككل المعارك التي تتعدى على الفكر، الكنز الوحيد الذي وضعه الله فوق استطاعة كل طغيان، وصانه كرابطة خفيةبينه وبين جميع التعساء. هاتان المرأتان، إحداهما تحتضر، والأخرى مليئة جبروتاً تبادلتا نظرات ثابتة؛ وكانت عينا بييريت ترمي جلادها بتلك النظرة المماثلة لنظرة فارس الهيكل يلقى بصدره ضربات صكاكة النقود، بحضور فيليب لي بِلْ الذي لم يستطع تحمل هذا الإشعاع الرهيب، فترك الساحة كالمصعوق[1].

وردت سيلفي المرأة الغيور على هذه النظرة المغناطيسيةببريق مشؤوم. وساد صمت رهيب. وقابلت أصابع الفتاة البريتانية المتشنجةمحاولات نسيبتها بمقاومة تعادل تلك المتضمنة في كتلة من فولاذ، وكانت سيلفي تنكل بذراع بييريت محاولة فتح أصابعها. ولم تحصل على شيء، وغرزت دون جدوى أصابعها في اللحم،

(١) فيليب لي بِلْ (١٢٦٨-١٣١٤) ملك فرنسة، قاوم الهيمنةالبابوية، وألغى رهبانيةفرسان الهيكل واضطهدهم. وهنا تلميح لأحد مشاهد هذا الاضطهاد. غير أن بلزاك يصف لنا مثل هذا المشهد بتفصيل أكبر في الرواية الأولى «المعذب الكالفني» من ثلاثية كاترين دي مديسي: «هذا التعذيب الذي يقوم على وضع صدر المضطهد على أحد فكي صكاكة النقود بعد تجهيزه بقطعة من النعل، ومن شأن ضربات هذه الصكاكة التي تحفر المعدن أن تحطم الأضلاع. ويبدو أن الملك أثناء تعذيب أحد رهبان فرسان المعبد لم يستطع تحمل هذا المنظر وخيل إليه بعد الضربة الثالثة أنه يسمع اسمه للظهور أمام محكمة الديان الأعظم يوم القيامة؛ فانسحب مرتاعاً. ويبدو أن بلزاك يستشهد بهذا المنظر ليبين تأثير القوة المغناطيسية التي تنبعث من خلال العين عدا عن تمثيله لقضايا العدل والظلم المرمزة بهذا التعذيب.

واستبد بها أخيراً الغضب، فرفعت تلك القبضة إلى فمها محاولةً بعض الأصابع التغلب على مقاومة بييريت بزيادة آلامها. واستمرت بييريت في تحديها بنظرة البراءة الرهيبة. وازداد غضب العانس إلى درجة التخبط دون تبصر، فأخذت يد بييريت وراحت تضرب بها على حافة النافذة، وعلى رخام المدفأة كأنها جوزة يراد كسرها لاستخلاص لبها.

صرخت بييريت: «النجدة! النجدة! إنني أقتل.

وصرخت سيلفي بدورها: آه! تصرخين وأنا قد ضبطتك مع عاشق في منتصف الليل؟ . . .»

وراحت تضرب دون شفقة.

صرخت بييريت مجدداً وقد تفجر الدم من قبضة يدها: النجدة!

في تلك اللحظة سمعت قرعات عنيفة تدق على الباب، وتوقفت النسيبتان وقد أنهكهما العراك، واستيقظ روغرون مذعوراً، غير دار بما يحدث، ونهض. وهرع إلى أخته فلم يرها، وخاف وفتح الباب، ووقع أرضاً بصدمة من بريغو الذي قفز إلى السلم يتبعه شبح كالخيال.

في تلك اللحظة بالذات، وقعت عينا سيلفي على مشد بييريت وتذكرت بأنها أحست بحفيف الورق فيه، فقفزت فوقها كنمر فوق فريسته، وفتلت المشد حول قبضتها ولوحت به لبييريت وهي تكشر باسمة كتكشيرة إيروكي[1] لعدوه قبل أن يسلخ رأسه.

صرخت بييريت وهي تسقط جاثية على ركبتيها: «آه! إنني أموت، فمن ينقذني؟صرخت إمرأة بشعر أبيض، ووجه متغضن كقد قديم تبرق فيه عينان عسليتان تنظران بأسى إلى بييريت: أنا.

هتفت الفتاة المسكينة والدمع المدرار ينسكب من عينيها: آه! يا جدتي؛ وصلت متأخرة جداً».

---

(١) أحد أفراد قبيلة الإيروك من الهنود الحمر الذين كانوا يسكنون قرب بحيرة أونتاريو.

تهالكت بييريت على سريرها، وقد خذلتها قواها وكاد الخور الذي يصيب المريض عقب صراع عنيف يقتلها. وحمل الشبح الكبير المعروق بييريت بين يديه كما تحمل المربيات الأطفال، وخرجت يتبعها بريغو دون توجيه أي كلمة لسيلفي إلا نظرة مأساوية تحمل أكبر اتهام. أدى ظهور هذه العجوز الجليلة بثوبها البريتاني الملتف حولها كعباءة سوداء، والمنديل القروي المحيط بوجهها، ومن خلفها بريغو الرهيب، إلى إثارة ذعر سيلفي؛ وخيل إليها أن الموت ماثل أمامها. وما أن سمعت العانس الباب يغلق حتى أسرعت بالنزول لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام أخيها الذي قال لها: «لم يقتلاك إذاً؟» ردت سيلفي: اذهب إلى فراشك، وسنرى غداً صباحاً مايمكننا عمله».

وأوت مجدداً إلى سريرها، ونزعت بطانة المشد وقرأت رسالتي بريغو اللتين أربكتاها. ونامت في أغرب حيرة، دون أن تقدر العاقبة المروعة التي ستنتج عن تصرفاتها. وصلت الرسائل الموجهة من بريغو إلى الأرملة لورين، لتتلقاها بفرحة لاتوصف، لكن قراءتها كدَّرتها. كانت هذه السبعينية المسكينة تكاد تموت حزناً من عيشها وبييريت بعيدة عنها، لكنها كانت تتواسى معتقدة أنها تتحمّل هذا البعد لمصلحة حفيدتها. كانت تمتلك أحد هذه القلوب الشابة دائماً التي تدعمها فكرة التضحية وتحييها؛ فقد كانت فرحة زوجها العجوز الوحيدة تلك الحفيدة؛ وأسف كثيراً لبعدها عنه، وكان في كل يوم يفتش عنها من حوله. وكان هذا ألم شيخ عجوز، يعيش فيه الشيوخ وينتهي بهم إلى الموت. لكن يمكن لكل امرئ بعدئذ أن يحكم على السعادة التي أحست بها تلك العجوز المسكينة المعتزلة في ملجأ، عندما بُلِّغت أحد هذه الأنباء النادرة، ومع ذلك ماتزال تحصل في فرنسة: ففرنسوا جوزيف كولينه صاحب مؤسسة كولينه رحل بعد إفلاسه مع أولاده إلى أمريكة؛ إذ لم تحتمل كرامته الإقامة محطماً، دون أي اعتبار في نانت وسط المآسي التي سببها إفلاسه. منذ ١٨١٤ إلى ١٨٢٤ بدأ مجدداً هذا التاجر المقدام بمساعدة أولاده وأمين صندوقه الذي أمده برأسمال أول، في جمع ثروة أخرى. وبعد أعمال خارقة مكللة

بالنجاح، حضر إلى نانت، بعد غياب إحدى عشرة سنة، ليرد اعتباره[١]، تاركاً ابنه البكر على رأس تجارته عبر الأطلسي، ووجد السيدة لورين قد انتقلت من بنهويل إلى ملجأ العجزة في سان جاك، وكان شاهداً على مدى تحمل أكثر ضحاياه تعاسة لشقائها بصبر وقناعة.

قالت له العجوز: «فليغفر لك الله، لأنك تعطيني وأنا على حافة قبري الوسيلة التي تساعدني على أن أؤمن سعادة حفيدتي. لكنني لن أستطيع أبداً أن أرد اعتبار زوجي المسكين!».

سدد السيد كولينه لدائنته رأس المال والفوائد بمعدل التجارة، فكان استحقاقها نحو اثنين وأربعين فرنك، ووعد الأرملة وقد شعر أن آل لورين لم يستطيعوا النهوض بعدما أحاق بهم من أذى من جراء إفلاسه، فأفلسوا بدورهم بينما صمد دائنوه الآخرون وهم تجار نشيطون، أغنياء، وأذكياء؛ بأن يرد أيضاً الاعتبار لذكرى زوجها الراحل، مادام الأمر لايتعدى أكثر من أربعين ألف فرنك إضافية، وعندما علمت بورصة نانت ببادرة هذه الأريحية المكفرة عن الخطأ، أراد القيمون عليها استقبال كولينه قبل صدور قرار محكمة رين الملكية. لكن التاجر رفض هذا الإكرام ورضخ لصرامة القانون التجاري[٢].

استلمت السيدة لورين مبلغ اثنين وأربعين ألف فرنك عشية اليوم الذي حمل البريد لها فيه رسائل بريغو، وكانت كلمتها الأولى عندما وقعت وصل الاستلام:

---

(١) سيبحث موضوع هذه التفليسة في «الدراسة عن القصة والمؤلف». وفي رواية **سيزار بيروتو** يذكر بلزاك أن قرارات رد الاعتبار قليلة جداً لاتتعدى قراراً واحداً كل عشر سنوات، لكن بيير لوبريه في دراسة عن **سيزار بيروتو** - طبعة غارنيه ١٩٦٤، وجد بالرجوع إلى مجلة المحاكم سنة ١٨٣٣، طلبي رد اعتبار في ذلك العام. ورغم كل ذلك فإن هذا الموضوع يعتبر مميزاً، وسبق لبلزاك أن تعرض له أكثر من مرة في «**الملهاة الإنسانية**».

(١) ينص القانون عل أن طلب إعادة الاعتبار يجب أن يقدم إلى محكمة الاستئناف في المنطقة التي كان يمارس فيها المفلس أعماله، وهي في هذه الحالة محكمة استئناف رين. من أجل تفاصيل أكبر حول إجراءات رد الاعتبار، يمكن العودة إلى رواية **سيزار بيروتو**. وجرياً على ما اتبعه كولينه، ماكاد سيزار بيروتو ينجح في رد اعتباره حتى قال لأصدقائه: «أريد استخدام حقي في العودة إلى البورصة».

«يمكنني إذاً أن أعيش مع عزيزتي بييريت، وأزوجها لهذا الشاب البائس بريغو الذي سيتمكن من جمع ثروة بواسطة دراهمي!». لم تستقر في مكان، وكثر انهماكها، كانت تريد السفر إلى بروفنس، وعندما وصلتها الرسائل المشؤومة، انطلقت من المدينة كالمجنونة؛ تسأل عن وسائل السفر إلى بروفنس بسرعة البرق. وركبت عربة البريد عندما شرحت لها السرعة الحكومية لتلك العربة[1]. وفي باريس استقلت عربة تروا، ووصلت في الساعة الحادية عشر والنصف إلى منزل فرابيه. وأمام مظهر اليأس القاتم للعجوز البريتانية، وعدها بريغو أن يقودها حالاً إلى حفيدتها مختصراً ببضع كلمات حالة بييريت. هذه الكلمات القليلة لم تستطع التغلب على تلهف الجدة، بل زادت من ارتياعها، فهرعت إلى الساحة. وعندما صرخت بييريت، كانت هذه الصرخة طعنة أدمت قلب البريتانية، كما أدمت قلب بريغو. وكان بإمكان هذين الإثنين وحدهما أن يوقظا كل سكان الحي، لو لم يفتح لهما روغرون الباب، والروع يتملكه.

أعطت صرخة هذه الشابة المفاجئة، وهي في ضيقها الشديد، القوة لجدتها بقدر ماأحلت في نفسها الرعب، فحملت عزيزتها بييريت حتى بيت فرابيه، حيث كانت زوجة النجار قد رتبت بسرعة غرفة بريغو لجدة بييريت. وفي ذلك المسكن المتواضع، وعلى سرير أعد على عجل، وضعت المريضة، مغمياً عليها، ومازال قبضة يدها مغلقة، مرضوضة، دامية، وقد انغرزت الأظافر في اللحم. ووقف الجميع: بريغو، وفرابيه، وزوجته، والعجوز يتأملون بييريت بصمت وهم فريسة ذهول لايوصف.

كانت أول كلمة نطقت بها الجدة: «لماذا تنزف الدماء من يدها؟.

راحت بييريت المنهكة من المقاومة المريرة التي أبدتها في هذا الصراع المرير، في شبه غيبوبة لكنها وقد أدركت أنها أصبحت في منأى عن كل عنف بسطت أصابعها؛ فسقطت رسالة بريغو منها وكأنها جواب للجدة على تساؤلها.

---

(١) كان يمكن نقل المسافرين في عربة البريد المخصصة في ذلك الحين لنقل البرقيات والمتميزة بسرعتها.

جثا بريغو على ركبتيه، والتقط الوريقة التي كتب فيها لصديقته بترك منزل الأخوين روغرون بكل هدوء، للالتحاق بجدتها؛ وقال: كان المراد انتزاع رسالتي منها ثم انحنى بورع وقبل يد تلك المعذبة.

حدث عند ذاك شيء ما دب الرعشة في نفس النجار وصانعه، فقد وقفت العجوز لورين، ذلك الشبح السامي قرب سرير حفيدتها، وكان الرعب والانتقام يزلقان تعابيرهما اللاهبة عبر آلاف التجاعيد التي تغضن جلدها العاجي الأصفر؛ وجبينها المغطى بأشعار رمادية متبعثرة يعبر عن غضبة إلهية. كانت تقرأ بقدرة الحدس التي خُصّت بها العجائز على حافة القبر، كل حياة بييريت التي فكرت بها خلال رحلتها، وخمّنت مرض الشابة الذي يهدد بالموت حفيدتها المحبوبة. وتولدت بصعوبة دمعتان ثخينتان في عينيها البيضاوين المرمدتين اللتين اقتلع منهما الحزن الأهداب والحاجبين، لؤلؤتان من الألم تشكلتا، فأشاعتا فيهما بعض نداوة، وكبرتا وتدحرجتا على الخدين المتيبسين دون أن يبللاهما.

قالت أخيراً وهي تضم يديها: «قتلاها لي»...

وجثت على ركبتيها اللتين أحدثتا قرعتين خاطفتين على البلاط، كانت دون شك تصلي وتتضرع للقديسة آن دوري، أشهر قديسات بريتانية.

قالت لبريغو: «آتني بطبيب من باريس، أسرع إليها يا بريغو، هيا!».

وأمسكت بكتف صانع النجّار ودفعته برفق بحركة أمر مسيطرة.

هتفت تؤكد عليه: آتني به بسرعة، يا ولدي بريغو، إنني غنية، إليك هذا!

وحلت الشريط العاقد لمردّي صدرتها وسحبت ظرفاً يحوي اثنتين وأربعين ورقة مالية من ذات الألف فرنك وقالت له: «خذ مايلزمك! آتني بأشهر طبيب في باريس».

قال فرابيه: احتفظي بأموالك إذ لايمكن تبديل هذه القطع المصرفية الكبيرة في مثل هذه الساعة المتأخرة، لدي دراهم، وعربة الركاب ستمر بعد قليل، وسيجد

فيها مكاناً. ولكن أليس من الأفضل أولاً استشارة السيد مارتنر الذي سيدلنا على طبيب في باريس؟ خاصة والعربة لن تمر قبل ساعة ولدينا الوقت.

ذهب بريغو ليوقظ الدكتور مارتنر، وأتى بهذا الطبيب الذي لم يدهش كثيراً لرؤية الآنسة لورين في بيت النجار فرابيه فبريغو أطلعه على الواقعة التي جرت لها في منزل الأخوين روغرون، وبينت ثرثرة هذا الحبيب وهو في قنوطه هذه المأساة العائلية للطبيب، لكنه لم يكن يتوقع مدى كبرهاوخطرها. وأعطى مارتنر لبريغو عنوان الطبيب الشهير هوراس بيانشون، وانطلق الشاب عند سماعه ضجةالعربة مع معلمه، بينما جلس الطبيب مارتنر يفحص أولاً كدمات وجروح اليد المدلاة خارج السرير.

قال: «لايمكن أن تكون هي بالذات قد سببت هذه الجروح لنفسها!

أجابت الجدة: كلا، إنما الفتاة الرهيبة التي شاء سوء حظي أن أعهد بحفيدتي لها قد أثخنتها بها، بينما كانت صغيرتي بييريت تصرخ: النجدة! أكاد أموت!» بشكل يحنّن قلوب الجلادين.

قال الطبيب وهو يجس نبض بييريت: ولكن لماذا؟ ثم قال بعد أن قرب ضوءاً إلى سرير المريضة: إنها مريضة جداً وحالتها خطرة؛ آه! سيصعب علينا إنقاذها» ثم استأنف بعد أن لاحظ وجه المريضة: «يبدو أنها تعذبت كثيراً ولا أفهم كيف لم تعالج في الوقت المناسب».

ـ قالت الجدة: إنني عازمة على أن أتقدم بشكوى إلى العدالة. أيحق لهؤلاء الأنسباء الذين طلبوا حفيدتي بموجب رسالة يقولون فيها بأن لهم من الثروة مايدر عليهم اثني عشر ألف فرنك سنوياً أن يجعلوا منها طاهية لهم ويلزموها بخدمات فوق طاقتها؟

هتف السيد مارتنر: ألم ينتبهوا لأكثر الأمراض ظهوراًوالتي تتعرض لها أحياناً الفتيات في مقتبل العمر وتتطلب المزيد من العناية؟».

استيقظت بيبريت بتأثير النور المسلط على وجهها من المصباح الذي تحمله السيدة فرابيه والآلام الرهيبة التي سببها رد الفعل المعنوي لهذا الصراع في رأسها.

قالت بصوتها الخافت الجميل: آه! يا سيد مارتنر، إنني أتألم كثيراً.

سألها الطبيب: أين تتألمين ياصديقتي الصغيرة؟.

أشارت الفتاة إلى أعلى رأسها فوق أذنهااليسرى وقالت: هنا.

هتف الطبيب بعد أن جس لمدة طويلة الرأس وسأل الفتاة عن آلامها: «يوجد توضع قيحي!» ثم تابع مخاطباً الفتاة: «يجب أن تذكري لنا كل شيء يا ابنتي لنستطيع إنقاذك. ماسبب هذه الجروح في يديك؟ لست إنتِ التي سببتها لنفسك!». قصت الفتاة بكل براءة صراعها مع ابنة خالتها سيلفي.

قال الطبيب للجدة: «اسأليها، و اعرفي منها كل شيء. سأنتظر وصول طبيب باريس وسنضم إلينا رئيس جراحي المستشفى للاستشارة، إذ تبدو لي خطورة إصابتها. سأرسل لك شراباً مسكناً تعطي منه جرعة للآنسةلتنام فهي بحاجة إلى الراحة».

بقيت العجوز البريتانية وحيدة مع حفيدتها، وتمكنت بفضل تأثيرهاعليهاأن تطلع على الحقيقة كاملة، وأخبرتها بدورها أنها استعادت مالهاالسابق، ووعدتها بإبقاء بريغو معهما فلديها مايكفي ثلاثتهم. اعترفت الفتاة المسكينة بما لقيت من عذاب، دون أن تدري أي قضيةستنتج عن ذلك، فوحشية هذين الكائنين اللذين فقدا الإحساس الطيب، وغابت عنهما مشاعر العائلة، كشفت للعجوز عوامل من الألم كانت أبعد عن تفكيرها من بُعْد طبائع السلالات المتوحشة عن تفكير المستشكشفين الأوائل الذين تغلغلوا في مغاور أمريكة. وهدأ وصول الجدة واليقين ببقائها معها مستقبلاًميسورة الحال تفكير بيبريت؛ وسكنت جرعة الدواء آلام جسمها فخلدت إلى النوم. وسهرت العجوز البريتانية على حفيدتها وهي تقبل جبينها وشعرها ويديها كما قبلت النسوة القديسات يسوع المسيح وهن يضعنه في القبر.

منذالساعة التاسعة صباحا، ذهب السيد مارتنر إلى رئيس المحكمة وقص عليه مأساة الليلة الفائتة بين سيلفي وبييريت؛ ثم العذابات المعنوية والجسدية، والتنكيل والعنف والاضطهادات من كل الأنواع الممارسة من قبل الأخوين روغرون على ربيبتهما، والمرضين المميتين[1] الناشئين عن تلك المعاملة السيئة. وأرسل الرئيس عند ذاك يستدعي الموثق أوفري أحد أقارب بييريت من جهة والدتها.

في تلك الفترة كان الصراع بين حزب فينه وحزب تيفين في ذروته، وأقاويل الأخوين روغرون ومشايعيهم التي ينشرونها عن العلاقة المعروفة بين السيدة روغن والمصرفي دوتيه وعن ظروف الإفلاس الاحتيالي لوالد السيدة تيفين المزور، كما يقولون، قد أثرت بشدة على حزب آل تيفين خاصة وأنها وشايات وليست افتراءات. هذه الإهانات كانت تجرح القلب في الصميم؛ وتهدّد المصالح بشكل حساس. هذه الأقاويل تُردَّد على أنصار آل تيفين من قبل ذات الأفواه التي تنقل للأخوين روغرون سخريات السيدة تيفين وصديقاتها منهما، فتتغذى الأحقاد المتداخلة من الآن فصاعداً مع العنصر السياسي. وكانت الإثارات التي تسببها في فرنسةالأفكار الحزبية التي ازدادت عنفاً، ترتبط في كل مكان كما في بروفنس بمصالح مهددة وفرديات مهانة أو مناضلة، وكل واحد من هذه التكتلات يتمسك متحمساً بكل مايمكن أن يضر التكتل المنافس والمدينة بكاملها تغوص في هذه الصراعات وتوسعهابكل حدة الجدل السياسي. وهكذا فقد رأى رئيس المحكمةفي القضية الناشئة بين بييريت وآل روغرون وسيلة لتهديم وفضح وإزالة اعتبار سَيَدي هذا الصالون الذي تحاك فيه المؤامرات ضد الملكية، وفيه ولدت صحيفة المعارضة وأعلم الرئيس وكيل النيابة السيد لسور، والسيد أوفري الموثق وهو المشرف على

(١) ليست أسباب موت بييريت بسيطة، فهي أولاً مصابة بالاختضار وهو مرض خطير ينتهي سريعاً إلى السل، كما أن التوضع القيحي خلف أذنها اليسرى قد يكون ناتجاً عن صدمها بالباب، وأخيراً كدمات وجروح يدها وهذه الإصابة الأخيرة ناتجة صراحة عن ضربات سيلفي، ومن هنا يأتي إسناد التهمة الجرمية.

وصي بييريت، وتداول الثلاثة في سرية تامة مع السيد مارتنر في الإجراءات المتوجب اتخاذها. وكُلِّف السيد مارتنر بتبليغ جدة بييريت وجوب تقديم شكوى للوصي على المشرف الذي سيدعو مجلس العائلة، ويطلب، مدعماً بتقرير من ثلاثة أطباء، أولاً، خلع الوصي، وبطرح القضيةعلى هذا الشكل، فإنها ستصل إلى المحكمة، وسيرى السيد لسور إمكان تحويلها إلى قضية جنائية محرضاً على التحقيق[1]. وعند الظهر استثيرت كل بروفنس بالتحدث بغرابة عما حدث خلال الليل في منزل الأخوين روغرون. فصراخ بييريت سمع بشكل مبهم في الساحة، لكنه لم يدم طويلاً، فلم ينهض أحد، إنما كان الجميع يسائل بعضُهم بعضَهم الآخر: «هل سمعتم ضجة وصرخات حوالي الساعة للواحدة ليلاً؟ ماسببها؟ وضَخَّمت الأقاويل والتعليقات بشكل فريد هذه المأساة الرهيبة حتى أن الجمهور تجمع أمام دكان فرابيه، يستمد كل شخص منه المعلومات، والنجار الطيب يصف وصول الفتاة إلى بيته، ويدها مدماة وأصابعها محطمة. وحوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، وصلت عربة الدكتور بيانشون لتنبئ السيد مارتنر ورئيس الجراحين بقدوم الطبيب الباريسي وهكذا لقيت أقاويل المدينة إقراراً مصدقاً. واتهم الأخوان روغرون بإساءة معاملة نسيبتهم عن قصد، وتعريضها لخطر الموت. ووصل النبأ إلى فينه في قصر العدل. فترك كل مايشغله وتوجه إلى منزل الأخوين. كان روغرون وأخته قد انتهيامن طعام الغداء، وترددت سيلفي في إنباء أخيها عن خيبة أملها خلال الليل، وتركته يلحف في الأسئلة دون أن تجيب إلا بقولها: «هذا ليس من شأنك» وكانت تروح وتجيء بين المطبخ وقاعة الطعام لوحدها لتتجنب المناقشة، عندما ظهر فينه.

قال لها المحامي: «أنت لاتعرفين إذاً ماذا يحدث؟

ردت سيلفي: كلا

---

(١) هنا مكمن الخطر، لكن فينه عرف بدهائه كيف يقابل اجراءات الخصوم بمناورات تسويفية منتظراً موت بييريت، وعند ذلك يطلب تشريح الجثة مقدراً تماماً أن بريغو سيسعى إلى الحيلولة دون ذلك. وهكذا يضمن فينه تبرئةسيلفي نتيجة نقص الأدلة الدامغة.

ـ أنت معرضة لدعوى جنائية في محاولة قتل، كما يستدلُّ من تطور الأمور في مايتعلق بببيريت.

ـ قال روغرون وقد دخل فجأة: دعوى جنائية! لماذا؟ وكيف؟

صرخ المحامي وهو ينظر ملياً إلى سيلفي، قبل كل شيء، اشرحي لي دون مواربة ماحدث في الليلة الفائتة، وكأنك تعترفين بينك وبين الخالق. إذ يجري الحديث بأنك حاولت قطع يد بييريت من المعصم».

ارتعشت سيلفي وغدت شاحبة. واستأنف فينه القول: «حدث إذا شيء ما؟» قصت الآنسة روغرون المشهد محاولةأن تبرئ نفسها، لكنهاوقد لوحقت بالأسئلة اعترفت بالأحداث الخطيرة في ذلك الصراع الرهيب.

ـ إن اقتصرت التهمة على تكسير الأصابع فستذهبين إلى محكمة الجنح، لكن إن ثبتت محاولة قطع اليد فستحولين إلى محكمة الجنايات: وآل تيفين يسعون إلى جركما إلى هناك

اعترفت سيلفي بغيرتها، وقد حل بها اليأس حتى اشتهت الموت على الاستمرار في الحياة، كما اعترفت بما هو أكثر قسوة عند التصريح بأن جميع شبهاتها كانت خاطئة.

قال فينه: «يا لهذه القضية، يمكن أن تهلكا فيها أنت وأخوك، وسيهجركما أشخاص عديدون حتى ولو ربحتماها. أما إن خسرتماها فعليكما مغادرة بروفنس.

قال روغرون مرتعباً: أوه! يا عزيزي السيد فينه، أنت يا أيها المحامي الكبير، انصحنا، وأنقذنا!».

أثار فينه البارع رعب هذين الأحمقين إلى الذروة، وصرح بكل يقين أن السيدة والآنسة دي شارجبف سيمتنعان عن المجيء لزيارتهما، وسيكون هجر هاتين السيدتين وحده حكماًرهيباً ضدهما. وأخيراً، وبعد ساعة من مناورات رائعة؛ رؤي، من أجل دفع فينه للعمل على إنقاذ الأخوين روغرون ضرورة وجود مصلحة كبرى له، أمام أعين كل أهالي بروفنس، للدفاع عنهما، . فخلال السهرة إذاً

يجب الإعلان عن خطبة روغرون والآنسة دي شارجبف، ونشر طلب الموافقة على الزواج في الكنيسة يوم الأحد القادم؛ وإعداد العقد مباشرة عند كورنان، وعلى الآنسة روغرون، تقديراً منها لهذه المصاهرة، أن تتخلى بموجب تصريح هبة بين الأحياء عن ملكيتها الصافية لأخيها، وأفهم فينه روغرون وأخته ضرورة تأريخ عقد الزواج قبل يومين أو ثلاثة من ذلك الحدث، لتبرير موقف السيدتين دي شارجبف في نظر الجمهور؛ وإيجاد دافع لهما للاستمرار في المجيء إلى بيت روغرون.

قال المحامي: «وقعا هذا العقد، وسأتعهد بإنقاذكما من هذه الورطة، ستكون دون شك معركة رهيبة، لكن سأنصرف إليها كلياً، ويترتب لي عليكما الشكر الجزيل!

قال روغرون: آه نعم»

في الساعة الحادية عشرة والنصف تم توكيل المحامي فينه ومنحه مطلق الصلاحية في التقاضي وإجراء العقود بالتفويض عن الأخوين روغرون. وعند الظهر تلقى رئيس المحكمة من فينه بحكم كونه قاضي الأمور المستعجلة دعوى بالحكم على بريغو والأرملة السيدة لورين بتهمة التغرير بالفتاة القاصر لورين ودفعها إلى ترك منزل الوصي عليها، وهكذا نصب فينه نفسه كمهاجم، وجعل روغرون في وضع الرجل الذي لامأخذ عليه، وبهذا المعنى تكلم في قصر العدل. وحدد رئيس المحكمة موعداً في الساعة الرابعةبعد الظهر لسماع الطرفين المتنازعين. غني عن البيان أن نذكر إلى أي مدى هزت هذه الأحداث مدينة بروفنس الصغيرة. فرئيس المحكمة كان يعرف أن الهيئة الطبية ستعطي رأيها في الساعة الثالثة. وكان يريد أن يتقدم المشرف على الوصي المتحدث باسم الجدة إلى المحكمة مسلحاً بتقرير تلك الهيئة. وكان إعلان خطبةروغرون والجميلة باتيلد دي شارجبف، وتنازل سيلفي لأخيها عن ثروتها قد نفّر فجأة من الأخوين روغرون شخصي الآنسة هابر والعميد اللذين رأيا آمالهما تنهار؛ لكنهما بقيا علانيةمرتبطين بهما إنما لأجل إلحاق الضرر بهما بشكل أضعف. وهكذا فما أن أعلن الطبيب السيد مارتنر عن

وجود توضع قيحي في رأس ضحية العقادين المسكينة ، حتى راح العميد وسلست يتحدثان عن ارتطام رأس بييريت خلال السهرة التي اضطرت فيها إلى ترك الصالون؛ وذكرا بالتعليقات القاسية والبربرية التي بدرت من الآنسة روغرون، وعدّدا الدلائل الجلية عن جمود عاطفة تلك العانس نحو ربيبتها المتألمة، وهكذا كان أصدقاء المنزل يظهرون الأخطاء الفادحة في ادعاء الدفاع عن سيلفي وأخيها. وتوقع فينه تلك العاصفة؛ لكن ثروة الأخوين روغرون ستنتقل إلى الآنسة دي شارجبف، وهو يعد نفسه بأن يراها خلال عدة أسابيع، تسكن بيت الساحة الجميل، وأن يسودمعها على بروفنس؛ ذلك أنه كان يسعى إلى تحالف مع آل بريوتي لمصلحة طموحاته.

منذ الظهر وحتى الساعة الرابعة، كانت سيدات حزب تيفين: آل غارسلان، وغيبن، وجوليار، وغلاردون، وغينه، وزوجة مدير المنطقة يتصلن لمعرفة أخبار الآنسة لورين. وكانت بييريت تجهل كلياً هذا اللغط[1] الحادث في المدينة بخصوصها، وشعرت وسط آلامها الشديدة بسعادة لاتوصف لوجودها بين جدتهاوبريغو، وهما محط مودتها، كانت الدموع تملأ عيني بريغو باستمرار، بينما الجدة تهدهد حفيدتها العزيزة، ولايعلم إلا الله إن كانت الجدة قد غفلت أمام الأطباء الثلاثة عن أي من التفاصيل التي حصلت عليها من بييريت عن حياتها في منزل الأخوين روغرون، وعبَّر هوراس بيانشون عن سخطه بألفاظ حادة، إذ روعته تلك البربرية، فطلب أن يطلع على نتائجها بقية أطباء المدينة، وهكذا دعي السيد نيرو إلى الحضور، وطلب منه كصديق للأخوين روغرون أن يبدي اعتراضاً ـ إن وَجَد ـ على النتائج الرهيبة التي وصلت إليها الهيئة الطبية، لكن لسوء حظ الأخوين روغرون صدر التقرير بالإجماع. فنيرو الذي أتهم بأنه سبّب وفاة جدةبييريت من ناحيةأمها، كان في وضع حرج استغله منافسه الماهر الدكتور مارتنر المبتهج لقهر الأخوين روغرون، محرجاً بذلك السيد نيرو منافسه. سنضرب صفحاً عن إعطاء نص هذا التقرير الذي اعتبر أيضاً إحدى وثائق الدعوى القضائية؛ ولئن كانت تعابير

(١) هذه هي الكلمة الصائبة؛ فموت بييريت ليس سبباً للحزن (إلا بالنسبة لبعض الأشخاص) إنما هو مناسبة للصراع السياسي، ولعرض القوى، وهو سيتحول في النهاية إلى مشهد ميلودرامي.

موليير الطبية تعتبر بربرية، فإن تلك العائدة إلى الطب الحديث لها ميزة الوضوح حتى أن شرح مرض بييريت رغم أنه طبيعي، وعام بكل أسف، فإنه يروع الآذان[1]. غير أن هذا التقرير يعتبر حاسماً بارتكازه على اسم بمثل شهرة هوراس بيانشون. بعد افتتاح الجلسة القضائية جلس رئيس المحكمة على كرسيه، وهو يرى جدة بييريت يرافقها السيد أوفري، وبريغو وجمهور كبير. وكان فينه وحده. وهذا التباين أثار دهشة الحضور الذين تزايد عددهم بمجموعات كبيرة من الفضوليين، ورفع فينه بعد أن ضبط نظارته على عينية الخضراوين نظرة باردة إلى رئيس المحكمة، وكان مرتدياً جبته كمحام، وبصوته الضعيف الثاقب بين أن غرباء اقتحموا ليلاً منزل السيد والآنسة روغرون، واختطفوا منه الفتاة القاصر لورين مما يدفع الوصي للجوء إلى قاضي الأمور المستعجلة لاستعادة ربيبته، و عندئذ نهض السيد أوفري المشرف على الوصي وطلب الكلام.

قال: «أرجو أن يطلع السيد الرئيس على هذا التقرير الصادر عن واحد من أشهر أطباء باريس، وجميع أطباء وجراحي بروفنس، ليرى أي ادعاء أخرق يقوم به السيد روغرون، وليتبين الأسباب الخطيرة التي دفعت جدة القاصر لحملها مباشرة من بيت جلاديها. وإليكم الواقعة: إن التقرير الطبي الصادر بالإجماع عن الطبيب الباريسي الشهير الذي استدعي على وجه السرعة، وعن جميع أطباء هذه المدينة، يعزو حالة القاصر المدنفة على الموت إلى المعاملة السيئةالتي تعرضت لها من السيد والآنسة روغرون، وبموجب القانون، سيدعى مجلس العائلة في أسرع وقت ممكن ليستشار حول نزع الوصاية عن الوصي، ونحن نطلب ألا تعود الفتاة القاصر إلى منزل وصيّها، وأن يعهد بها إلى عضو من العائلة يختاره السيد الرئيس».

أراد فينه الاعتراض مطالباً أن يبلغ دعوةمجلس العائلة للرد عليه.

قال الرئيس بقسوة: ليس إلى الجهة الموكلة لفينه، إنما على الأرجح لوكيل النيابة العامة والمسوغ الشرعي واضح.

---

(٢) أضيفت هذه التبريرات في طبعة مجلة القرن SIECLE بإملاء من انتقادات دنوايه. فمن المعروف أن المدير الإداري للمجلة قد شكا لبلزاك من الواقعية المزعجة لبعض الشروح الباتولوجية والمورفولوجية.

كتب الرئيس في أسفل المحضر القرار التالي :

«بناء على القرار الطبي المحرر بالإجماع من قبل أطباء هذه المدينة، ومن قبل الدكتور بيانشون الأستاذ في كلية طب باريس، يتبين أن الفتاةالقاصر لورين المطالب بها من قبل وصيها روغرون هي في حالة مرضية خطرة جداً ناتجة عن معاملةسيئة، وتنكيل عنيف تعرضت له في منزل وصيّها من قبل أخته.

نحن، رئيس المحكمة الابتدائية في بروفنس :

بعد الانعقاد بصفة الاستعجال والنظر في الدعوى نقرر :

عدم عودة القاصر إلى المنزل الربيبي ونقلها إلى منزل المشرف على الوصي حتى مداولة مجلس العائلة المدعو للانعقاد وفقاً لتصريح المشرف.

واستطراداً، ونظراً للحالة التي توجد فيها الفتاة القاصر، وآثار العنف الموجودة على جسمها، وفقاً لما ورد في تقرير الأطباء؛ فإننا نعهد إلى رئيس أطباء مشفى بروفنس ورئيس الجراحين فيه لزيارتها وفي حال استمرار الخطر نتيجة التعذيب رفع تحفظاتهما إلى النيابة العامة دون المساس بالحقوق الشخصية التي يطالب بها السيد أوفري المشرف على الوصاية.

هذا القرار الرهيب نطق به الرئيس تيفين علناً وبصوت جلي»

قال فينه: ولماذا لاتحكمون بالأشغال الشاقة حالاً، ثم هتف بوقاحة: «كل هذه الضجة من أجل فتاة كانت تدبر مغامرة غرامية مع صانع نجار! إن استمرت القضية هكذا فسنطلب قضاة آخرين للتشكك الشرعي.

ترك فينه قصر العدل وتوجه إلى الأجهزة الرئيسة في حزبه يشرح وضع روغرون الذي لم يلمس بإصبع نسيبته، لكن المحكمة تسعى للنيل منه كناخب قوي في بروفنس لا كوصي لبييريت وفقاً لأقواله، فإن آل تيفين يثيرون هذه الضجة الكبرى من أجل لاشيء، وفقاً للمثل تمخض الجبل فولد فأرة. فسيلفي فتاة عاقلة للغاية ومتمسكة بأهداب الدين، وقد اكتشفت مغامرة بين ربيبة أخيها وصانع نجار

يافع، بريتاني اسمه بريغو. وهذا الفكه يعرف جيداً أن الفتاة القاصر ستحصل على ثروة من جدّتها، فاراد إغواءها (وتجرأ فينه فتحدث عن الإغواء!) فالآنسة روغرون التي ضبطت رسائل تكشف عن فساد تلك الفتاة لاتستحق اللوم إلى الدرجة التي يريد آل تيفين اقناع الرأي العام بها. وفي الحالة التي سمحت لنفسها فيها باستعمال شيء من العنف للحصول على رسالة، وهو عنف يتبرر بما أثاره العناد البريتاني من غضب سيلفي، فعلام يستوجب روغرون اللوم؟.

جعل المحامي من هذه الدعوى قضية حزبية وعرف كيف يعطيها لوناً سياسياً، وهكذا فمنذ تلك الأمسية قام التضارب في الرأي العام،

قال العقلاء: «من لايصغي إلا لجرس واحد لايسمع إلا رنة واحدة. هلا استمعتم إلى فينه؟ إن فينه يشرح جيداً ملابسات الموضوع.

اعتبر بيت فرابيه غير صالح لإقامة بييريت بسبب الآلام التي تثيرها ضجة النجارة في رأس الفتاة؛ فكان نقلها من هناك إلى منزل المشرف على الوصاية ضرورياً من الناحية الطبية كضرورته من الناحية القضائية؛ وتم هذا النقل باتخاذ احتياطات كبيرة جداً ومحسوبة بدقة لتأمين السلامة، فوضعت بييريت على نقالة فوق فراش مشدود جداً، وحملها رجلان ترافقهما إحدى الراهبات الرماديات[1] وهي تحمل بيدها زجاجة إتير، ومن خلفها الجدة وبريغو، والسيدة أوفري وخادمتها؛ وهرع الناس إلى النوافذ والأبواب، ليشاهدوا مرور هذا الموكب. ومن المؤكد أن الحالة التي كانت بها بييريت وبياضها كمحتضرة، قد أعطت ميزات واسعة للحزب المعادي للأخوين روغرون. وحرص آل أوفري على أن يبينوا لكل المدينة كم كان الرئيس على حق عند إصداره قراره. وأنزلت بييريت وجدتها في الطابق الثاني من منزل السيد أوفري. وأسرف كاتب العدل وزوجته في إظهار كرم الضيافة، وغاليا في البذخ. ولزمت الجدةالسهر على حفيدتها. وحضر الطبيب السيد مارتنر مع الجراح لزيارة بييريت في مساء اليوم ذاته.

(١) الراهبات الرماديات، أو راهبات الإحسان: رهبنة أسسها سان فرانسوا وسمح لراهباتها أن يعشن حياة العلمانيين شريطة الإنصراف إلى أعمال التمريض في المستشفيات، خاصة.

منذ تلك الأمسية بدأت المبالغات من طرف وآخر . وكان صالون آل روغرون غاصاً بالزوار، وحرك فينه حزب الأحرار في هذه القضية . وحضرت السيدتان دي شارجبف للعشاء لدى الأخوين روغرون، لأن عقد الزواج سيوقع ذلك المساء . وفي صبيحة اليوم كان فينه قد وضع إعلان إشهار الزواج في دار العمدية . واعتبر القضية المتعلقة ببييريت موضوعاً مزعجاً، إن تحيّزت فيه محكمة بروفنس، فإن محكمة النقض ستعرف كيف تقدر الوقائع، حسب قوله، وسيراجع آل أوفري جيداً مستنداتهم قبل أن يقحموا أنفسهم في مثل هذه القضية . واعتبرت مصاهرة روغرون لآل شارجبف أمراً يستحق التقدير في أعين بعض الناس . فصفحة الأخوين روغرون بالنسبة لهم بيضاء كالثلج . وبييريت فتاة منحرفة كلياً، أفعى تدفأت في الحضن .

أما في صالون السيدة تيفين فاعتبر الموضوع انتقاماً من الاغتيالات الرهيبة التي أطلقها حزب فينه منذ سنتين : فالأخوان روغرون غولان، والوصي سيمثل أمام محكمة الجنايات . في الساحة كانت بييريت تعتبر في تمام الصحة والعافية ؛ وفي الحي العلوي من المدينة، كانت تسير إلى الموت بالتأكيد . لدى الأخوين روغرون الأمر لايتعدى بعض تخرشات في معصم اليد، أما في صالون السيدة تيفين فأصابعها محطمة، وسيقطع أحدها .

في اليوم التالي ظهر في صحيفة **أنباء بروفنس** مقال شديد البراعة، كتب بمهارة، وهو تحفة في التلميحات المختلطة باعتبارات قضائية تبرئ روغرون سلفاً . ولم تستطع «**القفير**» التي ظهرت بعد ذلك بيومين أن ترد دون أن تتهم بالقدح والذم، فاكتفت بالتعليق على أن الأفضل في مثل هذه القضايا الانتظار إلى أن تأخذ العدالة مجراها[1] .

تشكل مجلس العائلة من قاضي الصلح في منطقة بروفنس، رئيساً شرعياً،

(١) في مظهر حيادي نزيه، يعلن المقال الانتصار النهائي لحزب تيفين «رئيس المحكمة» ونلاحظ براعة بلزاك في تسليط الضوء على التأثير المتعاظم للصحافة في قضايا تعود حصراً للقضاء .

وبالدرجة الأولى من روغرون، والسيدان أوفري أقرب نسيبين، ثم السيد سيبري ابن أخ جدة بييريت من ناحية أمها. وألحق بهم السيد هابر الكاهن المعرف لبييريت، والعميد غورو الذي اعتبر نفسه دائماً صديقاً مقرباً للمرحوم العميد لورين والد بييريت. وقوبل باستحسان كبير تجرد قاضي الصلح الذي ضم إلى مجلس العائلة الكاهن هابر والعميد غورو المعتبرين في بروفنس من أخلص أصدقاء روغرون. وفي الظرف الحرج الذي يوجد فيه روغرون، طلب حضور السيد فينه اجتماعات مجلس العائلة، وبهذه المناورة، التي تمت بداهة بناء على نصيحة فينه، ضمن روغرون عدم اجتماع مجلس العائلة قبل نهاية شهر كانون أول؛ حيث يكون رئيس المحكمة وزوجته آنذاك مقيمين في باريس لدى السيدة روغن بسبب دورة انعقاد المجلس النيابي؛ وهكذا يكون الحزب الحكومي دون رئيسه؛ وكان فينه قد استمال خفية قاضي التحقيق، الرجل الطيب دفوندريل في الحال التي تأخذ فيها القضيةمنحى جنحي أو جنائي، جرب رئيس المحكمة التوجيه إليه سابقاً. ورافع فينه في القضية خلال ثلاث ساعات أمام مجلس العائلة، وأدعى بوجود مؤامرة بين بريغو وبييريت ليبرر قسوة الآنسة روغرون، وبرهن عما في تصرف الوصي من واقعية بالعهدة إلى امرأة بالإشراف على شؤون ربيبته، وركز على عدم تدخل موكله في الطريقة التي وجهت فيها سيلفي تربية بييريت. لكن رغم جهود فينه ارتأى المجلس بالإجماع نزع الوصاية عن روغرون، وسمى السيد أوفري وصياً، والسيد سيبري مشرفاً على الوصي. واستمع مجلس العائلة لأديل الخادمة فأشارت بأصابع الاتهام إلى معلميها السابقين، كما قصت الآنسة هابر التعليقات القاسية التي بدرت من الآنسة روغرون خلال الأمسية التي صدمت بييريت رأسها تلك الصدمة الرهيبة بالباب وسمعها جميع الحاضرين، والملاحظةالتي أبدتها السيدة شارجبف حول صحتها. وأبرز بريغو الرسالة التي تلقاها من بييريت، والتي تبرهن عن براءتهما المشتركة. وبرهن أن الحالة المؤسفة التي وصلت إليها صحة القاصر نتجت عن نقص عناية الوصي، وهو المسؤول عن كل مايتعلق بالربيبة، وقد أذهل مرض بييريت جميع الناس حتى الأشخاص البعيدين عن العائلة من أهالي المدينة.

فتهمة التعذيب استمرت إذاً ضد روغرون، وتحولت القضيةإلى قضية عامة. عارض روغرون بناء على نصيحة فينه، موافقة المحكمةعلى ماانتهت إليه مداولة مجلس العائلة. وتدخلت النيابة نظراً لتزايد الخطر الناتج عن الحالة المرضية التي وصلت إليها بييريت لورين. لكن هذه القضية المثيرة للفضول رغم سرعة وضعهاعلى جدول الدعاوي لم يحدد موعد النظر فيها إلانحو شهر آذار ١٨٢٨.

كان زواج روغرون مع الآنسة دي شارجبف قد تم آنئذ. وانتقلت سيلفي إلى الطابق الثاني من منزلهما بعد أن اتخذت ترتيبات لإسكانها مع السيدة دي شارجبف فيه؛ لأن الطابق الأول خصص بكامله للسيدة روغرون وخلفت السيدة روغرون الفاتنة منذ ذلك الحين السيدة تيفين الفاتنة؛ وكان تأثير هذا الزواج كبيراً جداً، فلم تعد الزيارات تتم إلى صالون الآنسة سيلفي وإنما إلى صالون الجميلة السيدة روغرون.

سنحت الفرصة للرئيس تيفين المستند على حظوة حماته والمدعوم بالمصرفيين الملكيين دوتيه ونوسنجن، أن يقدم خدماته للوزارة، فكان أحد خطباء الوسط الأكثر تقديراً، وغدا قاضياً في هيئة محكمة مقاطعة السين، وسمى ابن اخته لسور رئيساً لمحكمة بروفنس، وهذه التسمية أغاظت كثيراً القاضي دفوندريل، المهتم دوماً بالآثار، والباقي أبداً في الاحتياط. فوزير العدل أرسل أحد المقربين منه مكان لسور. وهكذا فترقي السيد تيفين لم يحدث أي تغيير في محكمة بروفنس. واستثمر فينه بشكل ماهر هذه الظروف، فكان يردد دائماً أمام سكان بروفنس بأنهم استخدموا كمرقاة لإعلاء مقام السيدة تيفين الماكرة. وتلاعب الرئيس على أصدقائه، وازدرت السيدة تيفين خفية بمدينة بروفنس، ولم تعد إليها أبداً. وتوفي والد السيد تيفين، وورث ابنه ملكيته في فاي، وباع بيته الجميل في الحي العلوي من المدينة للسيد جوليار، وبرهن بهذا البيع عن مدى عدم اهتمامه بالعودة إلى بروفنس. وكان فينه على حق، ففينه يحسن التنبؤ. هذه الوقائع كان لها تأثير كبير على القضية المتعلقة بربيبة روغرون.

هكذا كان التعذيب المروع، الممارس بشكل فظ من قبل طاغيين أحمقين على بييريت، قد وَضَعَ في متابعاته الطبيةالدكتور مارتنر المفوض من قبل الدكتور بيانشون في موقف حرج في حال الإيعاز بإجراء عملية ثقب القحف الخطرة. فهذه الدراما الرهيبة المختزلة إلى النُسَب القضائية، وقعت في الورطة القذرة المسماة في قصر العدل **الشكل**. وتجرجرت القضية في المواعيد، وفي التشابك المعقد للإجراءات؛ وتحكمت بها مراوغات محام مقيت، بينما كانت بييريت المفترى عليها تضنى وتعاني من أشدّ ما عرفه الطب من آلام.. ألا يجب أن نشرح هذه التقلبات الفريدة في الرأي العام، وسير العدالة البطيء قبل العودة إلى الغرفة التي تحيا والتي تعاني فيها بييريت سكرات الموت؟

دهش السيد مارتنر، وكذلك آل أوفري، خلال أيام قليلة، من طبع بييريت الرائع، ومن عواطف العجوز البريتانية وأفكارها، وطرائقها المشربة بمسحةرومانية قديمة فسيدة ماريه نانت المهيبة تشبه إحدى نساء أدب بلوتارك[١]؛ وهي مع الطبيب يريدان أن ينتزعا من الموت فريسته؛ إذ منذ اليوم الأول رأى طبيب باريس وطبيب المقاطعةبييريت فتاة لا أمل في شفائها. وفام بين الداء والطب مدعوماً بشباب بييريت أحد هذه الصراعات التي يعرف الأطباء وحدهم خوض غمارها، وليست غنيمتها عند الانتصار القيمة المادية المقدرة لجهود الطبيب، ولا عرفان المريض، وإنما تلك الغبطةالوجدانية الناعمة، وتلك السعفة المثالية غير المنظورة التي يضمها الفنانون الحقيقيون بعد الانشراح الذي يضفيه على الروح اليقين بأنهم قاموا بعمل جميل. والطبيب ينزع إلى الخير، كما ينزع الفنان إلى الجمال، وهو مدفوع بعاطفةرائعة نسميهاالفضيلة[٢]. وهو في المعركة اليومية التي يتصدى لها أمثاله من الرجال لقهر هذا البؤس الكبير قد ترفّع عن هذه الحساسيات الدنيئة الناتجة عن المشاحنة القائمة بين حزب فينة وحزب تيفين.

---

(١) بلوتارك (٥٠ –١٢٥م) كاتب يوناني شهير له مؤلفات أخلاقية رائعة، ذاع صيتهابعد ترجمتهاإلى الفرنسية من قبل آميون (١٥٦٣–١٥٩٣) في القرن السادس عشر.

(٢) يلاحظ عرضا هذا الإعلان عن مبادىء جماليةتأخذ منحى تنويرياً. والصورة المعنويةللدكتور مارتنر هي بالتأكيد من أجمل صور الملهاة الإنسانية وهي معبرة عن إعجاب المؤلف بالشخصية التي رسمها لهذا الطبيب.

أراد السيد مارتنر أن يمارس مهنته أولاً في باريس، لكن الحركة الفظيعة في تلك المدينة، وفقدان الحس المؤديان إلى وجوب انصراف الطبيب إلى عدد رهيب من المرضى، وتعدد الحالات الخطيرة، أرعبتا روحه الرقيقة المؤهلة لحياة المقاطعة، عدا عن أنه مولع بمسقط رأسه الجميل، وهكذا عاد إلى بروفنس ليتزوج فيها، ويستقر، ويعالج بحنو مجموعة من السكان يمكن أن يعتبرهم عائلة كبيرة. وعزم طيلة الوقت الذي دام به مرض بييريت ألا يتحدث عن مريضته، ودفع مضضه البين من الإجابة عندما يسأل عما جد في مرض الفتاة المسكينة الناسَ إلى احترام صمته حيال هذا الموضوع، فقد كانت بييريت بالنسبة إليه ما يجب أن تكون، إحدى هذه القصائد الغامضة والعميقة، الواسعة في الآلام، التي يتأثر بها الوجود المهيب للأطباء. وهو يشعر نحو تلك الشابة المرهفة باعجاب لايريد أن يشاركه أحد في سره.

عاطفة الطبيب هذه نحو مريضته انتقلت كجميع العواطف الصادقةالحقيقيةإلى السيد والسيدة أوفري اللذين غدا منزلهما طيلة بقاء بييريت فيه هادئاً وصامتاً. فالأولاد الذين كانوسابقاً قد شاركوا في ألعاب عديدة مع بييريت تفاهموا بلطف مع رقة أحاسيس الطفولة وتعاهدوا على عدم الضجيج والإزعاج معتبرين هدوءهم واجباً يمليه الشرف تجاه زميلتهم المريضة. كان منزل السيد أوفري في الحي العلوي من المدينة، تحت أنقاض القصر، حيث بنى في أحد جوانب الأراضي الناتجة عن انهيار الأسوار القديمة. من هناك كان السكان يطلون على الوادي وهم يتنزهون في بستان ممر صغير محاط بجدران ضخمة وهو يميل باتجاه المدينة بينما سطوح المنازل الأخرى تشكل شريطاً خارجياً للجدار الداعم لهذا البستان؛ وهذه المصطبة الطويلة تشكل ممراً ينتهي إلى الباب الجانبي لمكتب السيد أوفري، في طرفه المقابل حوض لكرمة وتينة، وضعت تحتهما منضدة مستديرة، ومقعد وكراسي مدهونة باللون الأخضر. وخصص لبييريت غرفة فوق مكتب وصيها الجديد، وكانت السيدة لورين تنام على سرير من سيور جلدية قرب حفيدتها. وكان يمكن لبييريت من نافذتها أن ترى وادي بروفنس الرائع، وهي تكاد

لاتعرف عنه شيئاً، إذ أنها لم تخرج إلا نادراً من منزل آل روغرون المشؤوم! وكانت تحب عندتحسن الطقس أن تجر نفسها مستندة على ذراع جدتها حتى حوض الكرمة والتينة. وكان بريغو الذي خصها بكل وقته يأتي ليرى صديقته الصغيرة ثلاث مرات في اليوم وقد انتابه ألم جعله يزهد في الحياة، كان يرقب بترصد كلب الصيد مجيء الطبيب مارتنر، فيرافقه دائماً ويخرج معه. وكم هو صعب تصور الهلع الذي ينتاب كل امرئ لرؤية صغير عزيز عليه يعاني آلام المرض، والجدةالمسكينة السكرى في قنوطها، تخفي هذا القنوط، وتبدي لحفيدتها الوجه الذي تعرفه الصغيرة في بنهويل، وفي رغبتها إيهام نفسها رتبت لها قبعتها القومية التي وصلت بها إلى بروفنس و ألبستها إياها مجدداً، وهكذا بدت المريضة الشابة كما كانت في أيامها السابقة، بهيجة على النظر وقد أحاطت بوجهها تلك الهالة من الباتيسته المطرزة بالدانتيلا المنمنمة المنشّاة؛ وبرأسها الشاحب شحوب قطع البسكويت، وجبينها الذي يطبع عليه الألم مظهر التفكير العميق، وقسماتها التي زادها المرض نقاء ووضوحاً، وبطء نظرتها وثبات عينيها في بعض اللحظات. كل ذلك جعل من بييريت تحفة كآبة رائعة. وهكذا اعتني بتلك الفتاة بنوع من الحماس والورع، فقد كانت تُرَى مثال الوداعة والرقة والمودة! وأرسلت السيدة مارتنر البيانو العائد لها إلى منزل أختها السيدة أوفري بهدف تسلية بييريت التي كانت الموسيقى تجدد حيويتها فتبدو كقصيدة ساحرة وهي تستمع إلى مقطوعة لويبر أو بتهوفن أو هرولد[1]. وقد ارتفعت عيناها بصمت، وبدت كأنها تأسف على الحياة التي تشعر أنها تهرب منها.

---

(١) بتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧): الموسيقي الألماني الشهير، ذكر مرات عديدة في الملهاة الإنسانية
ويبر (١٧٨٦-١٨٢٦): موسيقي وقائد أوركسترا ألماني، له قطع شهيرة تعزف على البيانو.
هرولد (١٧٩١-١٨٣١): (لويز جوزيف فرديناند) موسيقي فرنسي مختص بالأوبرا الهزلية، ويبدو أن بلزاك أحب منه خاصة حلم روسو وهي القطعة التي لعبتها أورسول ميروه لسافينيان دي بورتوندوير كما أن سيزارين في **سيزار بيروتو** تعزف لوالدها قطعةجميلة جداً لهرولد. غير أن بلزاك لايضعه في مرتبة كبار موسيقيي عصره فهو يقول في رواية **النسيب بونس**: «كان بإمكان هذا النسيب أن يكون بين المؤلفين الموسيقيين الحديثين لاكروسيني إنما كهرولد.»

وكان الكاهنان بيرو وهابر، معزياها الدينيان، مندهشين من طمأنينتها القانعة الورعة. أليس حدثاً متميزاً وجديراً في ذات الوقت بانتباه الفلاسفة وعموم البشر أن يكون الكمال الملائكي في الشابات والشباب موسوماً بحمرة الموت بين الجماهير كما الأملود الفتي في الغابة؟ من رأى أحدى هذه الميتات السامية لايمكنه أن يبقى أو يغدو جاحداً شكاكاً. فهذه الكائنات تتضوع كعطر سماوي، ونظراتها تكلم الله، وصوتها بليغ حتى في العديد من الخطابات غير المهمة، و هو يرن كأداة إلهية معبراً عن أسرار المستقبل!. وعندما هنأ السيد مارتنر في إحدى المرات، بييريت لأنها تقيدت بإحدى الوصفات الطبية الصعبة وأتمتها، التمعت عيناها بنظرات ساحرة، وأجابت أمام الجميع: «إنني أرغب بالحياة، يا عزيزي السيد مارتنر، وموتي يثير بي الأسى، لا على نفسي، وإنما على فراق جدتي، وعزيزي بريغو، وفراقكم أنتم جميعاً».

وفي المرة الأولى التي تنزهت فيها خلال شهر تشرين الثاني تحت شمس سان مارتن الجميلة، وسألتها السيدة أوفري إن كانت متعبة أجابت: «الآن، وأنا لاأعاني إلا من الآلام المرسلة لي من الله، يمكنني أن أتحملها، فأنا أجد في سعادة الشعور بأنني محبوبة القدرة على تقبل العذاب».

كانت هذه هي المرة الأولى التي ذكرت فيها تلميحاً لعذابها الرهيب لدى الأخوين روغرون اللذين لايرد اسماهما أبداً على شفتيها، بل ما من أحد يتطرق لأخبارهما لما يسبب ذكرهما من ألم لها.

قالت يوماً عند الظهر وهي على المصطبة تتأمل الوادي النير تحت أشعة الشمس والمزين بألوان الخريف الصهباء، مخاطبة مضيفتها: «عزيزتي السيدة أوفري، إن احتضاري لديكم يمنحني سعادة أكبر من جميع مالقيته في سنواتي الثلاث الماضية».

نظرت السيدة أوفري إلى أختها السيدة مارتنر وهمست في أذنها: «كم هي صادقة في حبها!» والواقع أن لهجة بييريت ونظرتها تعطيان لعبارتها قيمة تدق عن الوصف. كان اتصال السيد مارتنر مستمراً مع الدكتور بيانشون، ولايقوم بأي

إجراء خطير دون موافقته. وأمل أولاً أن ينظم الأمر في تطوره الطبيعي، يسوق من بعده التوضع القيحي من الرأس إلى الأذن، وكلما ازدادت آلام بييريت، كلما انتعشت آماله بالشفاء وحصل على نجاحات خفيفة في النقطة الأولى، وكان هذا انتصاراً كبيراً. فخلال بضعة أيام، استعادت بييريت شهيتها، وأقبلت على بعض الأطعمة الأساسية التي كان مرضها يدفعها إلى نفور متميز منها. وتغير لون بشرتها - لكن حالة الرأس كانت رهيبة؛ لذلك رجا الدكتور استاذ الطب الكبير، مستشاره، أن يأتي إلى بروفنس. وجاء بيانشون وقضى يومين يفحص المريضة، وقرر إجراء عملية، وشارك مارتنر المسكين في كل اهتماماته، وذهب بنفسه يسعى لإحضار الجراح الشهير السيد دسبلن[1]، وأمل أن تتم العملية على يدي أكبر جراح في الأعصر القديمة والحديثة، لكن هذا العراف الرهيب قال لمارتنر بعد مرافقته لبيانشون تلميذه الأثير: «لن تنقذها إلا بأعجوبة، فكلما قال لك هوراس، بدأ نخر العظم، فالعظام في هذا العمر شديدة الطراوة.»

تقرر أن تتم العملية في بداية شهر آذار ١٨٢٨، وخلال ذلك الشهر، أجرى السيد مارتنر، وقد روعته الآلام الرهيبة التي تشكو منها بييريت، عدة رحلات إلى باريس، يستشير دسبلن وبيانشون، واقترح عليهما حتى إجراء عملية من نوع التفتيت الحصوي[2]، وهي تقوم على إدخال أداة مجوفة في الرأس، يجرب بواسطتها تطبيق دواء فعال يوقف تقدم النخر. لكن دسبلن المقدام لم يجرؤ على القيام بهذه المغامرة الطبية التي أوحى القنوط بها إلى مارتنر، وهكذا بدا هذا الطبيب قانطاً عند عودته من آخر رحلة قام بها إلى باريس، ورآه أصدقاؤه كئيباً، مقطباً، وصرح في إحدى الأمسيات المشؤومة لعائلة أوفري، وللسيدة لورين،

---

(١) كان النموذج الحقيقي لهذه الشخصيةالبلزاكية هو الجراح الشهير دوبوتيرون (١٧٧٧-١٨٣٥) والدليل أنه كتب اسم دوبوتيرون في مخطوطة قصة **التحريم**، وصححه بعد ذلك إلى دسبلن.

(٢) استعمل بلزاك هذه الكلمة Lithotritie في غير معناها، إذ أن معاجم ذلك الزمن تذكر أن المقصود منها إدخال أدوات بالطرق الطبيعية إلى داخل المثانة لتفتيت الحصاة في حال وجودها فيها وهذا مالايتلاءم مع وضع العمليةالمزمع اجراؤها لبييريت لإيقاف نخر العظام لكن بلزاك يستدرك عندما يقول إنها عملية «من نوع التفتيت الحصوي».

وللمعرف ولبريغو المجتمعين معاً، بأن العلم لايستطيع أن يفعل شيئاً لبييريت، فخلاصها الآن بين يدي الله وحده. وساد ذعر رهيب على المجتمعين، ونذرت الجدة على نفسها ملازمة الصلاة، ورجت الكاهن أن يقيم كل صباح قبل استيقاظ بييريت قداساً تحضره مع بريغو.

بدأ النظر في الدعوى، وبينما كانت ضحية الأخوين روغرون تحتضر كان فينه يفتري عليها في المحكمة. لكن المحكمة صدقت قرار مجلس العائلة، فأستأنف المحامي فوراً. وطلب وكيل النيابة العامة الجديد في مرافعته إجراء التحقيق، مما ألزم روغرون وأخته تقديم كفالة ليتجنبا دخول السجن. واقتضى التحقيق استجواب بييريت، وعندما حضر دفوندريل إلى منزل أوفري لهذا الغرض، كانت بييريت في سكرة الموت، ومعرّفها على رأس سريرها لمنحها القربانة الأخيرة. وقد رجت في تلك اللحظةبالذات من العائلة المجتمعة أن تغفر لابن خالتها وابنة خالتها كما فعلت هي نفسها قائلة بوعي مُدهش بأن الحكم على هذه الأشياء يعود إلى الله وحده.

قالت موجهة الكلام لجدتها: «جدتي، أوصي بكل ماتملكين لبريغو (وانهمرت دموع بريغو): وأعطي ألف فرنك لأديل الطيبة التي كانت تدفئ لي فراشي خفية، ولو أنها بقيت لدى ابني خالتي لعشت...».

في الساعة الثالثة من يوم ثلاثاء الفصح، وخلال يوم صحو مشرق أسلمت هذه الملاك الروح وختمت آلامها. وأرادت جدتها الشجاعة أن تسهر عليها طيلة الليل مع الكهنة وتلفهابيديهاالمعجزتين المتيبستين في الأكفان. وعند المساء غادر بريغو منزل أوفري ونزل إلى بيت فرابيه.

قال له النجار: «لن أحتاج يا ولدي المسكين، أن أسألك عن الأخبار.

نعم أيها الأب فرابيه، انتهى كل شيء بالنسبة لها، لكن ليس بالنسبة لي.

وألقى صانع النجار على جميع أخشاب الدكان نظرات قاتمة ونفاذة في آن معاً.

قال فرابيه الرجل الطيب: «أنا أدرك ماتريد يا بريغو، خذ، هوذا طلبك.»

وأشار إلى أخشاب مسطحةمن السنديان بثخانة بوصتين.

قال البريتاني: لاتساعدني ياسيد فرابيه، فأنا أريد أن أتم كل شيء بنفسي»

قضى بريغو الليل وهو ينجر ويصقل تابوت بييريت، وفي أكثر من مرة كان يرفع بضربة واحدة من المسحج شريطاً من الخشب تبلل بدموعه، وكان فرابيه الرجل الطيب يدخن وهو ينظر إليه يعمل، ولم يقل له إلا هاتين الكلمتين عندما ضم القطع الأربع التي تشكل النعش: «اجعل الغطاء بمزلاق: بذلك تجنب الأهل المساكين سماع دق المسامير.»

مع الصباح خرج بريغو ليشتري صفائح الرصاص اللازمة لتبطين التابوت، وبمصادفة غريبةكلفته هذه الصفائح ذات المبلغ الذي دفعه لبييريت عند رحيلهامن نانت إلى بروفنس، فلم يستطع هذا البريتاني الشجاع تحمل هذه المقاربة، بعد أن قاوم الألم الرهيب وهو يصنع بنفسه نعش رفيقة طفولته العزيزة، مبطناً هذه الأخشاب المأتمية بكل ذكرياته؛ وانهار فلم يستطع حمل الرصاص، ورافقه المرصص عارضاً أن يلحم الصفيحة الرابعة بعد أن يوضع الجثمان في النعش، وأحرق البريتاني المسحج وجميع الأدوات التي استخدمها في عمله، وصفى حساباته مع فرابيه وودعه، وشاءت البسالة التي أبداها هذا الفتى المسكين في مشاركة الجدة في كل الواجبات الأخيرة نحو بييريت أن يتدخل في المشهد الأخير الذي توج طغيان آل روغرون.

وصل بريغو والمرصص في الوقت المناسب لدى آل أوفري ليحول بقوته الشرسة دون القيام بإجراء قضائي كريه ورهيب؛ إذ وصل مع المرصص إلى غرفة الميتة التي تعجُّ بالناس في مشهد غريب، فالأخوان روغرون منتصبان ببشاعة أمام جثة ضحيتهما ليعذباها حتى بعد الموت؛ وجثمان الفتاة المسكينة المهيبة بجمالها ممدد على سرير جدتها الضيق، وهو ملفوف بغطاء عريض من القطن، وعيناها مغلقتان وشعرها مضفور. بينما الجدة أمام السرير، وشعرها مشعث وهي تجثو على

ركبيتها، ويداها ممدودتان ووجهها يتوهج كالنار وهي تصرخ: «كلا، كلا، لن يتم هذا!».

كان السيد أوفري الوصي والكاهنان بيرو وهابر عند قاعدة السرير والشموع ما تزال مشتعلة، وأمام الجدة جراح المشفى والسيد نيرو يساندهما فينه الرهيب متكلفاً اللطف، يرافقه محضر المحكمة. كان الجراح مرتدياً، وزرة التشريح، وأحد مساعديه يبسط أدواته الخاصة، وهو يقدم إليه مشرطاً.

اضطرب هذا المشهد بضجة سقوط التابوت من يدي بريغو والمرصص إذ أن بريغو تملكه الهول وهو يرى العجوز لورين بهذا المنظر، فهرع إليها وقد تناول من حزامه إزميلاً طويلاً شد عليه بتشنج وهو يسألها: «ما الأمر؟»

ردت العجوز منتحبة: إنهم يريدون شق جسد ابنتي، وتحطيم رأسها، وفطر قلبهابعد موتها كما كانوا يفعلون في حياتها.

صرخ بريغو بصوت صم آذان رجال العدالة: من؟

ـ آل روغرون.

شرع بريغو إزميله هاتفاً: ليكن اسم الرب مباركاً! . . .

اعترضه السيد أوفري وهو يقول: لحظة يا بريغو

رد بريغو وهو شاحب كشحوب الميتةالشابة: سيد أوفري، لك وحدك استمع لأنك السيد أوفري؛ لكنني في هذه اللحظة لن أمتثل إلا . . .

قال أوفري: إنها إجراءات العدالة!

صرخ البريتاني: وهل توجد عدالة؟ العدالة في هذه القبضة، وأشار إلى إزميله الذي يلتمع تحت الشمس، والشرر يتطاير من عينيه الموجهتين إلى المحامي والجراح، والمحضر.

قال الكاهن: يا صديقي، إن العدالة تستجيب لطلب محامي السيد روغرون

الموجه إليه اتهام خطير . ولايمكن أن يحال بين متهم وبين الوسائل التي تساعده على تبرئة نفسه . ومحامي السيد روغرون يدعي بأن هذه الفتاة المسكينة قد توفيت نتيجة الخراج في رأسها ، فإن صح ذلك . فإن وصيّهاالسابق لايدان ، إذ تبين أن بييريت صدمت رأسها عرضاً بالباب ، وأخفت الآلام الناتجة عن ذلك مدة طويلة . .

هتف بريغو : يكفي!

قال فينه : وموكلي؟!

صرخ البريتاني : سيذهب موكلك إلى الجحيم، وسأذهب أنا إلى المقصلة ، إن تجرأ أي منكم أن يلمس هذه التي قتلها موكلك ، وسأقتله في الحال إن لم يجمع الجراح أدواته ويرحل .

قال فينه : هناك مقاومة تمنع تنفيذ أمر المحكمة ، فلنذهب لإعلام القاضي .

وانسحب الغرباء الخمسةعن المنزل .

قالت العجوز وهي تنهض وتضم بريغو : أوه!يا ولدي! فلندفنها سريعاً ، فهم سيعودون! . .

قال المرصص : ما أن يختم الرصاص ، حتى لايجرؤوا على ذلك غالباً»

هرع أوفري إلى عديله السيد لسور مجرباً أن يسوي هذا الحادث ، ولم يكن فينه يريد غير هذا . فبموت بييريت تنطفىء القضيةالمقامة على الوصي دون أن يتمكن أحد من الحكم له أو ضده ؛ ويبقى الموضوع ملتبساً ، وهكذا ففينه الماكر توقع جيداً مايمكن أن تحدثه دعواه .

عند الظهر قام السيد دفوندريل بتقديم تقريره المتعلق بالتحقيق مع روغرون ، وأصدرت المحكمة حكماً مبرراً بشكل تام ببراءته .

لم يجسر روغرون أن يشهد مراسم دفن بييريت التي حضرتها كل المدينة ، وأراد فينه أن يدفعه إلى ذلك لكن العقاد السابق خشي أن يثير النقمة الشاملة عليه .

غادر بريغو بروفنس بعدأن رأى التراب يهال ليملأ القبر الذي فيه بييريت؛ وذهب سيراً على الأقدام إلى باريس؛ وكتب إلتماساً إلى زوجة ولي العهد[1] يطلب فيه أن تتوسط له إكراماً لوفاء والده ليدخل في الحرس الملكي، حيث تم له ذلك سريعاً، وعندما جهزت الحملة في الجزائر، كتب لهاأيضاً مرة ثانية لينضم إلى تلك الحملة، وكان برتبة رقيب، فسماه المارشال بورمون[2] ملازماً في الجبهة. وقاتل ابن الماجور كرجل يسعى إلى الموت، لكن الموت الذي يطلبه لم يأت إليه، وتميز بجرأته في جميع الحملات الحديثة دون أن يصاب بجرح. وهو الآن برتبة قائد كتيبة في الجيش المقاتل، ومامن ضابط بمثل نظاميته وصمته؛ وهو خارج أوقات الخدمةمحافظ على قلة الكلام، يتنزه بمفرده ويحيا بشكل آلي؛ وقد خمن الجميع انطواء روحه على ألم دفين احترموه فيه، وقد آل إليه مبلغ ستةوأربعون ألف فرنك أوصت له بها السيدة لورين المتوفاة في باريس في العام ١٨٢٩.

نجح فينه في انتخابات العام ١٨٣٠، وحظي بموجب الخدمات التي قدمها للحكومة الجديدة على منصب نائب عام. وغدا له من الحظوة مايجعله ضامناً للنيابة باستمرار، أما روغرون فهو محصل عام في المدينة التي يشغل فيها فينه منصبه، بينما شاءت المصادفة الغريبة أن يكون تيفين الرئيس الأول في محكمة النقض، لأن القاضي المنصف انحاز دون تردد إلى ملكية تموز. وتفاهمت السيدة تيفين فاتنة بروفنس سابقاً بسرعة مع الفاتنة الحالية السيدة روغرون، وتوطدت علاقةطيبة بين فينه والرئيس تيفين.

أما روغرون الأحمق، فكان يردد أمثال الكلمات التالية: «لن يكون لويس فيليب ملكاً حقيقياً إلا عندما يستطيع تسميةنبلاءه!».

---

(١) إنها السيدة رويال، ابنة لويس السادس عشر، وزوجة دوق آنغولم ابن شارل العاشر، وقد غدا الدوق آنغولم بعد وفاة لويس الثامن عشر، ولياً للعهد.

(٢) بورمون: (١٧٧٣-١٨٤٦)، بعد أن خدم على التوالي في جيوش فانده، ونابوليون، خان سيده في العام ١٨١٥ عشية معركة فلروس، وعين في العام ١٨٢٩ في ظل وزارة بولينياك قائداً عاماً للحملة على الجزائر، وتم ترفيعه إلى رتبةمارشال في العام ١٨٣٠ (بعد الاستيلاء على الجزائر العاصمة بتاريخ ٥ تموز ١٨٣٠).

هذه الكلمة ليست بالطبع من بنات أفكاره. فصحته المتداعية جعلت السيدة روغرون تؤمل أن تتزوج بعد قليل من الوقت اللواء المركيز دي مونريفو، أحد أعيان فرنسةالذي يقود حاميةالمنطقة، ويقدم لها الخدمات. أما فينه فيطلب بدقة كبيرة الرؤوس، فهو لايؤمن أبداء ببراءة متهم، فهذا النائب العام الأصيل يعتبر أحد الرجال الأكثر لطفاً في دوائر الاختصاص، وهوليس أقل حظوة في باريس، أو المجلس، أو البلاط، إذ أنه أحد المتملقين الماهرين جداً.

ووفقاً لوعد فينه، فإن اللواءالبارون غورو، هذا النبيل من حطام جيوشنا المظفرة، قد تزوج آنسة من آل ماتيفا[١]، في الخامسة والعشرين من عمرها، وهي ابنة عطار في شارع لومبار، حملت إليه دوطة خمسين ألف إكو وقاد كما تنبأ له فينه حامية مقاطعة مجاورة لباريس[٢]، وسمي عيناً من أعيان فرنسة لبلائه في قمع الفتنة في عهد وزارة كازيمير پريه وكان البارون غورو أحد القادة الذين استولوا على كنيسة سان مري[٣]؛ وكان سعيداً لأنه تمكن من ضرب البورجوازيين الذين أغاظوه خلال خمسةعشر عاماً، وكوفئ على حماسه بمنحه الوسام الأكبر من جوقة الشرف.

ما من أحد ممن شاركوا في قضية موت بييريت انتابه شيء من تبكيت الضمير. فالسيد دفوندريل المنصرف دائماً إلى دراسةالآثار سمي بمسعى من فينه ولصالح حملته الانتخابية رئيساً للمحكمة، وغدا لسيلفي صالونها وحاشيتها الصغيرة، وهي تدير مصالح أخيها، وتتقاضى فوائد كبيرة ولاتنفق أكثر من ألف ومئتي فرنك سنوياً.

---

(١) شطب بلزاك من نسخة «طبعة فورن» شبه لقب نبالة نسبه إلى آل ماتيفا، إذ سماهم «ماتيفا دي لازارش»، ذكرى للملكية لهم في الريف.

(٢) بدأ بلزاك بتحديد مكان الحامية في «إيل وفيلين» لكن دنوايه طلب منه في رسالة بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٨٤٢ «أن يموه أكثر حول المقاطعة». والواقع أنه بالغ في التصريح بأسماء المواقع ولم يترك للقارئ مجال المقاربة المبررة في قصة خيالية.

(٣) كان اللواء لامارك (١٧٧٠-١٨٣٢) أحد خطباء المعارضين الأحرار في المجلس، وكانت جنازته سبباً لإثارة الفتن يومي ٥و٦ حزيران ١٨٣٢، وخاصة حول كنيسة سان مرّي التي اقتحمها الجيش عند ذلك.

بين وقت وآخر، عندما يمر في تلك الساحة الصغيرة أحد أبناء بروفنس، وهو وافد من باريس ليستقر في بلدته، قد يلقى نصيراً سابقاً للرئيس تيفين يقول له وهو خارج من منزل الآنسةروغرون: «لقد تعرض الأخوان روغرون لقضية مؤسفة بسبب ربيبة نسيبة لهما . . .

ويعلق الرئيس دفوندريل بالقول: «إنها قضيةنزاع حزبي، أريد منها تشويه سمعة الأخوين روغرون وإثارة الظن بارتكابهما تعذيبات وحشية، بينما أخذتهما الشفقة على نسيبة لهما، وهي فتاة صغيرة فقيرة تتميز بشيءمن اللطف؛ وفي فترة مراهقتها وتربيتها، أقامت علاقة غرامية مع صانع نجار، وكانت تجيء عارية القدمين إلى نافذتها لتحدث هذا الفتى الذي كان يقف هنا، ألا ترون في هذه الساحة؟ ويتبادل العاشقان الرسائل الغرامية بواسطة خيط. وعليكم أن تدركوا أن مثل هذا التصرف في شهري تشرين أول وتشرين ثاني بالنسبة لفتاة سقيمة شاحبة يمكن أن يزيد من سوء حالتها الصحية. وقد أحسن الأخوان روغرون السلوك عندما لم يطالبا بنصيبهما من ميراث تلك الفتاة، وتركا كل شيء لجدتها. إن العبرة من كل هذا يا أصدقائي هي أن الشيطان يعاقبنا دائماً على أعمالنا الخيرة.

ويجيب الوافد الجديد: آه!لكن الأمر مختلف، فالأب فرابيه قد قصه عليّ بشكل مغاير تماماً.

ويرد أحد رواد صالون الآنسة روغرون: إن الأب فرابيه يعود في روايته إلى قبو نبيذه أكثر مما يعودإلى ذاكرته.

- لكن الكاهن العجوز السيد هابر . . .

- أوه!ألا تعرفون قصة هذا؟.

- كلا.

- الواقع أنه أراد تزويج أخته للسيد روغرون المحصل العام».

رجلان فقط يتذكران كل يوم بييريت: الطبيب مارتنر والماجور بريغو، وهما وحدهما يعرفان الحقيقة الرهيبة.

لإعطاء هذه الحقيقة أبعاداً واسعة، يكفي أن نذكر أننا بإرجاع المشهد إلى العصر الوسيط، وإلى روما هذا المسرح الكبير، فإن شابة سامية هي بياتريس سنسي[1] اقتيدت إلى العذاب لأسباب ومؤامرات مماثلة تقريباً لهذه التي قادت بييريت إلى القبر. ولم يكن لبياتريس من مدافع إلا فنان هو الرسام غيدو رني[1]. وفي وقتنا الحاضر فإن التاريخ والأحياء يدينون بالإعتماد على لوحة لغيدورني، البابا ويجعلون من بياتريس إحدى ضحايا الأهواء الشائنة والمؤامرات الأكثر إثارة للعطف. فلنعترف ضمناً أن الشرعية بالنسبة للاحتيالات الاجتماعية مستند جميل، لو أن الله غير موجود.

تشرين ثاني ١٨٣٩.

تمت رواية بييريت
يليها
كاهن تور

(١) سنسي: عائلة ايطالية غنية اشتهرت بجرائمها. وغناها في القرن السادس عشر، ففرنسيسكو المولود عام ١٥٤٩ قتل بتحريض من ابنته بياتريس وولده جياكومو اللذين أعدما بدورهما في العام ١٥٩٩ بأمر من البابا. وقد قص ستندال حكاية بياتريس سنسي في قصةظهرت في مجلة «العالمين» بتاريخ الأول من تموز ١٨٣٧؛ لكنه لم يكن الوحيد الذي اهتم بهذه الحكاية المأساوية لتلك العائلة الإيطالية؛ فالمركيز دي كوستين وهو أحد أصدقاء بلزاك كتب أيضاًمسرحية بعنوان «**بياتريس سنسي** مثلت في العام ١٨٣٣ في بورت ـ سان ـ مارتن من قبل فردريك لميتر وماري دورفال، دون نجاح كبير، ويبدو أن بلزاك كان يفكر بطرق هذا الموضوع في مسرحية من خمسة فصول، وقد لمح إلى لوحة غيدو رني في رواية المرأة في الثلاثين.

(٢) غيدو رني: (١٥٧٥-١٦٤٢) رسام إيطالي يتميز بأناقة لمساته.

دراسة حول الرواية والمؤلف

إعداد جان لويس ترتير

هناك مؤلفات نادراً ماتعرف قيمتهابشكل جلي من الجمهور؛ بالرغم من أن العارفين يقدرونها، ويمجدونها، ومع ذلك لاتعم قراءتها. وبييريت من هذه المؤلفات؛ فقد كُسفت بمزايا الروايات الأكثر تفخيماً من قبل بلزاك. **كأوجيني غرانده** أو **الأب غوريو**، بينما مزايا تلك القصةالطويلة تستحق أن يسلط عليهاالضوء رغماً عن النبذ الضمني الذي يبدو أنه قد خيم عليها منذ إنشائها.

من المعروف أن بلزاك كان ينوي منذ البدء أن يؤلف قصة «تلائم فتاة يافعة» «أقصوصة ناعمة يمكن أن تقرأها آنا[1]» فكيف حدث أنه انطلق من فكرة حكاية معطرة بماء الورد تقريباً، وإذ به ينتهي إلى إنشاء أحد المشاهد الأكثر قنوطاً في الملهاة الإنسانية؟ هنا عقدة قضية يبدو لنا أنها تلامس بشكل رئيس آلية الإبداع الأدبي. والحال أنه لم يصل لنا إلا عدد قليل من الوثائق التي تتيح تفسير ولادة هذا المؤلف. وما على الباحث الحديث الذي يحاول أن يرى بوضوح تفاصيل الوقائع إلا اللجوء إلى التخمينات والمقارنات والمقاربات.

ثلاثة أسئلة رئيسة يجب أن تطرح بالدرجة الأولى بخصوص بييريت: لماذا اختيرت بلدة بروفنس؟ لماذا شخصية بييريت بالذات؟ لماذا هذه القصة المؤلمة في قسوتها؟.

---

(١) من رسالة هانسكا بتاريخ ٤ حزيران ١٨٣٩ وتموز ١٨٣٩.

قبل كل شيء المنطقة: بصراحة لم يكن بإمكاننا شرح اختيار بلدة بروفنس دون المقاربات اللبقة والمقنعة التي قدمتها لنا الآنسة فارجو. فاختيار تلك المدينة التي مرَّ بها بلزاك، لكنه لم يقم فيها بالتأكيد، حيّر دائماً المعلقين. والسيد بيير سيترون في مقدمة له عن **بييريت**[1] يبدي دهشته من هذا الاختيار، دون أن يعطي تفسيراً له إلا ضرورات البنيةالداخلية للمؤلف. فبروفنس ملائمة، إذ أنها مع بقائها بلدة إقليمية تشعر بانجذابها تقريباً إلى منطقة التأثير الباريسي؛ فموقعها الجغرافي يبرر دعوة أطباء باريس إليها والأثر الحاسم السياسي للعاصمة على المجموعات الإقليمية. هذه الأسباب لايمكن إنكارها؛ كما أن بلزاك قد توثق جيداً بمستندات عن تاريخ هذه المدينة، ويكفي للحكم على ذلك العودةإلى المحادثة الجارية بين روغرون والقاضي دفوندريل ليلاحظ سريعاً أن المقطع ثمرة إضافات عديدة، هي برهان على العناية التي أبداها المؤلف لتحقيقها.

غير أن عدداً من المدن الأخرى في المنطقة الباريسية يمكنها أيضاً أن تطمح إلى القيام بهذا الدور. فمشكلة بروفنس ستبقى دون تغيير. ومن جهة أخرى فإن الوجود المضاعف في قصة **بييريت** لنانت وبروفنس فيه مايحير، وبلزاك المدرك للصعوبة، يبرر بطريقة معقدة التجاور الروائي للمدينتين. من المؤكد أنه كان قد أنهى القسم الأول من **بياتريس** الذي تدور أحداثه في غيراند؛ حتى أن اسم إحدى شخصيات **بياتريس**(الآنسة دي بنهويل استخدم للقرية التي نشأت فيها بييريت. لكن ماهي الرابطة التي تقارب بين بروفنس والمنطقة النانتية؟ هنا ترد دراسة الآنسة فارجو حول أوساط الإشراقيين في نانت[2]. ففي تلك المدينة تعرفت السيدة ب. ف. بلزاك على لويس فرنسوا دي تولنار ـ غراميز، وكذلك على ادوار ريشه، وكلاهما عضو من جماعة السويدنبرجيين المتأصلين بصلابة. وكان آل تولنار من أنسباء السيد دي مارغون، وهذا مايفسر اتصال السيدة بلزاك الوالدة بهذه الجماعة.

---

(١) طبعة غارنية ـ فلاماريون ١٩٦٧.

(٢) «بلزاك، نانت والناتيون» دراسات متفرقة لرينه بينتار ـ كلينكسيك، ١٩٧٥ والإشراقية مذهب روحاني نادى به سويد نبرغ وبوهم.

والحـال ـ وهذا يتـصل تماماً بملاحظتنا ـ أن أخت ادوار ريشة تزوجت ابن عمـدة بروفنس المسمى لافال. ، وهكذا قام جسر بين بروفنس ونانت في ذهن بلزاك، وغدا من الممكن الربط بشكل وثيق بين الأوسـاط النانتيـة، وأوساط بروفنس. مما يمكن من تبـرير تنشـئـة بييـريت في بريتـانيـة، وحـضـور بريغـو في مطلع القصة، وأنشودةالعرائس، وزهرة الجولق.

لكن إيحاءات الآنسة فارجو لاتتوقف هنا؛ فلويس فرنسوا دي تولنار ـ غراميـر سليل عائلة فلمنديه استقرت في نانت منذالقرن السابع عشر، في الحي المسمى «هولندة الصغيرة» وقد استورد مغازل للنسيج وأسس معمل قطن ازدهر حتى١٨١٣-١٨١٤ حين وجَّه الحصار القاري، والرسوم الجمركية ضربة مشؤومة لهذا المعمل؛ اضطرت صاحبه إلى الهجرة إلى البرازيل حيث تمكن من جمع ثروة جديدة، وغدا بعودته إلى نانت جابي ملاجئ المدينة ومباشرة، نصل إلى التفسير التاريخي لما ورد في الخيال القصصي «إفلاس مؤسسةكولينه التجارية الشهيرة في نانت نتيجة أحداث العام ١٨١٤» ثم سيرة كولينه «لمسافر إلى أمريكة مع أولاده» والعائد «ليسترد اعتباره في نانت» بعد أن كوَّن ثروة؛ وهذا مايشبه بشكل مدهش سيرة تولنار. حتى أن اسم كولينه يمكن أن يرد من اسم كميل مليتة الذي أسس في العام ١٨٢٣ الكلية الارموريكية. وهكذا تأخذ أقل التفاصيل كل ظلالها ضمن هذا المنظور. وبيّنٌ، في الواقع، كما تقدر الآنسة فارجو، أن بلزاك ارتكب مفارقة تاريخيةبجعل جدي بييريت لورين يعيشان نحوالعام ١٨٢٠ في ملجأ سان جاك الذي لم يفتح أبوابه إلا في العام ١٨٣٥، غير أن هذه المفارقة يمكن أن تبرر إلى حد ما، فبلزاك قد تردد طويلاً حول اسم هذا الملجأ، وسماه أولاً سانت آن، حتى طبعة فورن، وتم التصحيح الأخير على الأر جح دون أن يتسنى له الوقت للتحقق من صحة وتوافق الأحداث التاريخية.

ولننتـهي من الروابط التي تربط بشكل وثيق بين نانت وبروفنس في ذهن بلزاك، نشير إلى أن غيبن وهو طبيب قد وضع كتاباً عن نانت، وقد شكل آل غيبن في قصة بييريت «عائلة غيبن، أو على الأصح زمرة غيبن حيث مايزال حفيدهم

يدير المغازل الثلاثة! نقدر أننا قد بررنا بإسهاب الضرورة الضمنية التي شعر بها بلزاك لربط بروفنس بالأوساط البريتانية. ولنضف أن اختيار بروفنس يمكن أن يظهر ميزة أخرى: فالمدينة بقسميها الأعلى والأدنى جنة أرضية كثيرة الشبه بأنغولم في شمبانية؛ ومرة بعد مرة يشعر القارئ أن كل ما فعله بلزاك هو أنه قد غير ـ بشكل مبسط بالتأكيد ـ بعض معطيات ثلاثية الأوهام الضائعة. الأوضاع الطبوغرافية نفسها، والنزاعات السياسية أو الاجتماعية نفسها. وفي كلا المؤلفين شخصية من المدينة الواطئة يجرب أن يعاشر مجتمع المدينة القديمة، ولأسباب تكاد لاتختلف إلا قليلاً، يفشل. لكن أليس هذا الموضوع خالداً؟ ألا نجده في فيلم سينمائي معاصر مثل الدروب إلى أعلى المدينة لـ ج. كلايتون؟.

غير أن الروائي احتفظ ببروفنس تسهيلاً. فنقطة انطلاق بييريت تبقى، في نظرنا، بريتانية. فالقصة تبدأ بترنيمة بريتانية، وموطن طفولة بييريت يبقى حتى النهاية محط سعادة البريتانية الصغيرة، وسيبقى بريغو دائماً «بريتانية والطفولة السعيدة». بقي بلزاك مدة يتحدث عن كتابة قصة مخصصة للأولاد؛ ورغم التحولات العديدة، بقي الحدث يدور حول شخصية فتاة صغيرة أو في مطلع الشباب، والشواهد عديدة على أن بلزاك كان يزداد تحسساً بمشاكل الطفولة والمراهقة، والوثائق تثبت لنا ذلك. ودون الدخول في تقصيات تحليلية نفسية يمكن بسهولة أن نخمن أنه قد غاص في طفولته الخاصة ليصور لنا عالماً أغلقه عليه وجوده كعازب. وآلام وموت بييريت وضعت بتعابير لاتترك أي شك بحساسية المؤلف (إن لم نقل بحساسيته المبالغ فيها). لكن إن كان صحيحاً أن بلزاك يحمل في ذاته مؤلفاً عن الطفولة، فيجب بيان أسباب عدم تحقيقه حتى حزيران ١٨٣٩. وأيُّ حدث حرك مخيلته؟.

يعتقد السيد بيير سيترون بأنه اكتشف هذا الحدث في قصة مغفلة نشرت في كانون ثاني ١٨٣٨ في «**المجلة المصورة**» وفي رأيه أن بلزاك استخدم مطلع هذه القصةالمعنون «السيد بيير» فقط: وبطل هذه الحكاية يتيم دون موارد بسبب إفلاس

(١) المجلة المصورة: مجلة كانت تصدر في باريس بين١٨٣٣-١٨٧٣.

ذويه، يأويه عمه بائع الخردوات في باريس، ويسوء سلوك الفتى فيما بعد ويغدو مجرماً. وبديهي أن مطلع القصة المنشورة في **المجلة المصورة** أمكن أن يحرض مخيلة بلزاك؛ فالعلاقات التي قامت بين العم الأعزب وابن أخيه، ووضع العم الاجتماعي، وواقع الأمر بالذات المتعلق بيتيم معال، كل ذلك يقرب من الجو السائد في قصة **بييريت**؛ وإلى مؤلف **الملهاة الانسانية** يعود فن تحديد الوضع الاجتماعي للبطلة وتفكيك تروس الآلية السياسية والاجتماعية التي سحقت فتاة دون حام يذود عنها.

تبقى مسألة تُلامِسُ عن قرب الإبداع الأدبي: كيف حدث أن تحولت القصة اللطيفة، المخصصة للفتيات الخلوقات، خلال بضعة أسابيع إلى إحدى القصص الأكثر قتامة في **الملهاة الإنسانية**؟ الجواب الأكثر بساطة هو أن بلزاك ليس متفائلاً وهو لايؤمن بطيبة الإنسان. غير أن بعضاً من رواياته تهذيبية تماماً، **فطبيب الريف** هي بالنسبة له «**اقتداء بالسيد المسيح** بشكل شاعري» «إنها الإنجيل في التطبيق العملي» وفيما بعد يؤلف «**الوجة الآخر للتاريخ المعاصر**». يبدو إذاً أن هذه الحجة العامة قليلة الإقناع. وإذا كان بلزاك قد غير وجهة نظره المتعلقة بقصته مابين ٤ حزيران وشهر تشرين أول ١٨٣٩، فلأن أحداثاً ما قد وقعت وذكرته بأن الحقد والجريمة هما أسس المجتمعات البشرية.

وطبيعي أننا نفكر بقضية بيتل الشهيرة. في ليل الأول من تشرين الثاني ١٨٣٨، وعلى بعد بضعة كيلو مترات من بلّي[١]. هوجم كاتب العدل بيتل، وفقاً لأقواله، من قبل خادمه؛ لكن الطلقة النارية أصابت خطأً الزوجة إصابة قاتلة، ولاحق بيتل الخادم وتمكن من قتله بضربات مطرقة، وسرعان ماتقرَّر توجيه التهمة إلى كاتب العدل بجريمة مضاعفة، ووصلت القضية إلى المحاكم في آب ١٨٣٩. وفي ٣٠ آب حكم على بيتل بالإعدام. لايشكل كون بيتل مذنباً أو بريئاً إلا حدثاً تتعدد جوانب الغموض فيه أساساً، لكن ما يهمنا من هذه القضية هو أن بلزاك وغافارني اللذين تعرفا على كاتب العدل سابقاً، في فترة دفعه فيها طموحه الأدبي

(١) بلدة صغيرة إلى الشرق من ليون في مقاطعة «الإين»

للحضور إلى باريس وشراء حصة في مجلة «السارق Voleur»، سافرا إلى بلي في أيلول ١٨٣٩ بأمل إنقاذ صديقهما القديم؛ وهناك جمعا بعض الشهادات وقاما ببعض المساعي، مدفوعين بما ترك بيتل في نفسيهما من ذكريات طيبة، ونشر بلزاك خاصة في صحيفة القرن LE Siècle، في نهاية أيلول، وثيقةمثيرة للعاطفة بشكل متميز هي: **رسالة حول قضية بيتل**، وهو يتهم فيها التحقيق والإدعاء بانحيازهما في تلك القضية وزيفهما منذ البداية. ويبين بصورة خاصة «الأحقاد الشرسة في تلك المدينةالصغيرة التي أثَّرت على التحقيق». ورغم كل هذه الجهود، أعدم بيتل في الثامن والعشرين من شهر تشرين أول التالي. ولنا أن نتصور أي اضطراب سببته هذه القضية لبلزاك: ويكفي أن نقرأ الرسالة التي وجهها إلى السيدة هانسكا في ٣٠ تشرين أول: «ربما علمت أننا بعد شهرين من جهود خارقة لانتزاع بيتل من عذابه، فإنه مشى منذ يومين إلى المقصلة **كمسيحي** وفقاً لما قاله الكاهن. أما أنا فأقول كرجل غير مذنب.، وستخمنين سبب هذا الانقطاع الرهيب في مراسلتي. . . فالنمائم من مختلف الأصناف كانت عاقبة جهودي، وسأتمثل، على ما أعتقد، ذبح بريء دون أن أفعل من أجله شيئاً، وسأفعل كالإسبانيين الذين يهربون عند مقتل رجل».

من هنا التفكير بأن المؤلفات التي كانت قيد الإنشاء تعرضت لردة فعل، وانقطع التردّد في الخطوة المتبقية للتوجه إلى التشاؤم. ففي بلي أمكن لبلزاك أنَ يرى مدينة صغيرة من المقاطعات فريسة للأحقاد والحسد والإشاعات الكاذبة، وانصب كل ذلك في قصة بييريت. ولنضف إلى ذلك اعتبارات من مرتبة مختلفة؛ فقد بين فحص المسودات الطباعية أن الصراعات السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في بروفنس قد أضيفت عند تصحيح هذه المسودات ولم تكن واردة إلا بشكل مختصر جداً في المخطوطة. ومن المعروف أن تصحيح هذه المسودات قد تم في نهاية شهر تشرين أول وحتى نشر النص في مجلة «**القرن**».

من جهة أخرى، يُكتَشف في **رسالة حول قضيةبيتل** تشابهات تثير الفضول مع نص **قصة بييريت**، فقرار اتهام بيتل، بالنسبة لبلزاك، متحيز: «والاتهام والتحقيق لم يريدا رؤية الوقائع التي تشهد لصالح بيتل، ولم يستجيبا لإثباتات أو أخبار تُناقَش وإنما لأقوال ونمائم تدينه. فقرار الاتهام الذي يجب أن يكون سرداً

جافاً للوقائع كان مرافعة ضد المتهم. وهو إجراء مبتكر كقصة، نشر سلفاً ودون ردٍّ عليه، منحاز حيث يجب أن يظهر بارداً وهادئاً، اثباتي حيث يجب أن يكون متشككاً». أليس في هذا تجسيد مسبق للترتيب القاسي، الذي اتخذه الرئيس تيفين ضد روغرون والذي دفع فينه إلى القول: «ولماذا لاتحكم بالأشغال الشاقة حالاً»؟. وفضلاً عن ذلك كم يدهشنا أن نقرأ بريشة بلزاك «إن هذا الإجراء مبتكر كأنه قصة»! هذه العبارة الأخيرة تجعلنا نفكر **ببييريت** مباشرة فهي القصةقيد الإنشاء.

إذا عدنا الآن لنتأمل تفاصيل نص **الرسالة** فإننا سنجد عدداً من العبارات المشتركةبين الدفاع عن بيتل وقصة **بييريت** وعلى سبيل المثال ما ورد في الرسالة: «هناك مآس لايستطيع الناس أمامها إلا أن يقفوا ويرفعوا أعينهم وأيديهم إلى السماء، قائلين مثل يسوع: اغفر لهم: يا الله! فدينونتهم الحقيقية يوم الحساب الأخير» وفي **القصة**: «. . . . رجت بييريت في تلك اللحظة بالذات العائلة المجتمعة أن تغفر لابن وابنة خالتها، كما غفرت هي نفسها لهما، وهي تقول بوعي مدهش إن الحكم على هذه الأشياء يعود لله وحده» أخيراً فإن موضوع بييريت بالذات يوجد في **الرسالة**: «أياً كان الأمر، فبيتل رجل هالك!،. هذه الصرخة هي في أعيننا أثقل من كثير من العبارات التي ينتفج بها قرار الإتهام، وهي تكشف عن هذه الأحقاد الشديدة التي تعم المدينة الصغيرة وتؤثرعلى التحقيق». وقضية بيتل، في ذهن بلزاك، قد زيّفت لإدانته بذات الأسباب التي زيفت في قضية روغرون لتبرئته. فالمصالح الشخصية تآلفت مع السياسة لإلحاق الظلم ببريء. وتآلفت مدينة بكاملها لتبعد عن قصد أو دون قصد، الكائن الاستثنائي غير الراضخ لعاداتها. وكم يجب أن نمعن التفكير في اعتراف بلزاك للسيدة هانسكا: «سأتمثل على ماأعتقد، ذبح بريء، دون أن أفعل له شيئاً. . .».

غني عن القول إن مثل هذه المقاربات لاتفسر كل شيء، لكنها تسمح لنا بتقويم أفضل للدور الحاسم، في رأينا، الذي لعبته قضية بلي الجرمية، في إنشاء قصة **بييريت**، فقد تغيرت فكرة الكتاب الفكه لتسلية فتاة يافعة رصينة، ووسَّع بلزاك موضوعه بعد تلك التجربة الرئيسة المرّة وأعطاه بروزاً سيكولوجياً وسياسياً حوّله كلياً.

أدرج بلزاك بييريت على الفور في رأس زمرته **العازبين** قبل **كاهن تور** تماماً، رغم أن هذه من ناحية الإنشاء كما من ناحية الحدث سابقة لها، لكنه فضل، على الأرجح، وضع قصة فتاة يافعة في مطلع مجموعة العازبين قبل أن يظهر لنا الآنسة غامار القاسية القلب، مع أنه في طبعة سُوڤرِن، العام ٨٤٠، أردف بعد **بييريت** بيير غراسو، ومن الممكن أن يكون تجانس الاسمين هو دافع بلزاك لجمع هذين النصين المتباينين. وهذا يقودنا إلى التساؤل عن نوع المشاهد التي يمكن تصنيف **بييريت** فيها. وكما هو معروف فإن معظم مؤلفات بلزاك الرئيسة لاتعود إلى بنية وحيدة مبسطة، **فالأب غوريو** ليست فقط تاريخ بدايات أسد مستقبلي، وإنما هي نظرة ملقاة على عالم مشبوه؛ وانفتاح على الطبقة الارستقراطية، وإلقاء نظرة على الأسر المفككة؛ وبصورة خاصة تحليل لأبوة مستثارة ومضطربة، وعلى المنوال نفسه فبييريت ليست فقط دراسةعازبة، ولكن لماذا هذا العنوان؟.

يمكننا أيضاً وضع القصة في زمرة **مشاهد من الحياة السياسية**، وهذا المظهر من المؤلف يستلفت سريعاً نظر القارى الحديث، بل إنه لم يلتبس على معاصري بلزاك؛ إذ أحدث نشرها في صحيفة **القرن** ضجة؛ وخلال تصحيح المسودات الطباعية، وجه دنوايه المدير الأدبي للمجلة في مناسبات عديدة طلبات لبلزاك لإجراء تعديلات في النص. فبعض كلمات القصة في نظره لاتتلاءم مع «**مبادئ القرن**» التي تعتبر مناصرة لليبراليين، وقد كتب له في ١٩ كانون الثاني ١٨٤٠ : («يوجد في فصل هذا المسار من السلسلة ثلاثة أو أربعة تعابير أرجو التكرم بتعديلها، إذ ورد في الصفحة ٤٣ : «عملت بخصوصها صحف الليبراليين على إثارة الشكوك» فإذا أمكن أن تقول ببساطة «بدت بخصوصها بعض الشكوك» أو أي صيغة أخرى لاتدين صحف الليبراليين، فهذا أفضل. كما ورد في ذات الصفحة : «فشرّع قبعة الليبراليين الرمادية الشهيرة» ولو تستبدلها ببساطة : «قبعة العصر الرمادية الشهيرة» أو أي تعبير آخر فمرحى لك[1] . . .) وتفصيل آخر يثير الانتباه هو

(١) لم يستجب بلزاك لهذه المطالب، لكنه بالمقابل استجاب لبعض التنازلات البسيطةالأخرى.

حذف الصحيفة المناصرة لليبراليين لأسباب تتعلق بالنظرة الأخلاقية البورجوازية لكل المشهد المتعلق بالاستشارة الطبية، فقد كتب دنوايه لبلزاك بتاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٨٤٠ : (أرفق ربطاً مسلسلة نهار غد، ويبدو لي وجوب تخليصها من كل ما يتعلق بخطر الزواج على العوانس، وبصحة العميد؛ والتفاصيل المتعلقة بالعظام والعضلات التي فقدت مرونتها مما يعيقها في الولادة، والجرح الذي يمكن أن تسببه حركة مسح أرضية الغرف على الفتيات، وكذلك صعوبةالولادة لدى العوانس المحافظات على حسن السلوك واللواتي يبقين جالسات. بديهي أن هذا صريح جداً وجسدي جداً في نظر **صحيفة القرن**). وأطاع بلزاك، وحذف المقطع بكامله تقريباً من المسلسلة؛ فليس من السهل التعامل مع صحيفة مناصرة لليبراليين، عدا عن احتشامها وقصة **بييريت** مؤلف لايتوافق كثيراً مع متطلبات جمهور **القرن** (وقد اعترف دنوايه أن عدداً لابأس به من الموثقين يقرؤون الصحيفة المشار إليها)؛ حتى أن إدارة تحرير الصحيفة صرحت في ملاحظة لها بتاريخ ٢١ كانون الثاني بما يلي: «وردتنا تعليقات من بعض الأشخاص حول الميول السياسية التي اعتقدوا أنهم يستشفونها في تفاصيل القصة المسلسلة التي ننشرها حالياً، ونعتقد أن من واجبنا أن نكرر ماسبق أن كتبناه بتاريخ الأول من كانون ثاني ١٨٣٩ بخصوص **ابنة حواء** وهي أول قصة نشرتها **صحيفة القرن** للسيد دي بلزاك. «نقول بالنسبة للمؤلف كما بالنسبة لنا، إن تعاون السيد دي بلزاك مع **القرن** أدبي بحت، والميول السياسية أو الاجتماعية التي يمكن أن يظهرها سواء في هذا العمل الأول أو فيما يليه من أعمال لايستتبع أي نوع من التضامن مع المبادئ التي تجد الصحيفة أن من واجبها دعمها. ونحن نتحدث هنا عن ميول بسيطة لا عن آراء صريحة المعنى. وللسياسة منبرها الرسمي في **القرن** وعلى المسلسلة أن تتجنب الإساءة إليه...». يدرك من هذا بسهولة حرج مسؤولي **القرن**. فقراؤهم هم مموّلوهم؛ وعدم إغاظتهم مبدأ كلي القداسة، ويُخشى بوضوح أن تسبب قصة **بييريت** أزعاجاً لهم.

غير أن أسباب نزاع بلزاك مع صحيفة **القرن** لم تصلنا مما يفقدنا قرائن أخرى عن الروابط الوثيقة بين **بييريت** و**مشاهد من الحياة السياسية**. وفي **نائب أرسي** نجد

مجدداً عائلة فينه، حتى أننا نقرأ هذه الأسطر: «هذا النائب العام؛ المسمى دائماً نائباً عن بروفنس هو أحد دعائم نواب الوسط في المجلس». وإلى حد ما يمكن اعتبار **نائب آر سي** تتمة بعيدة **لبييريت**؛ فمشاكل الانتخابات ذاتها، والعائلات ذاتها، والشخصيات السياسية ذاتها.

ماهو دور السياسة إذاً في مؤلف يبدو وكأنه مأساة عائلية في الأقاليم؟ لتلخيص الموضوع نقول إن السياسة تتدخل في كل شيء وقد انتهت إلى جر فتاة صغيرة رماها القدر في ماكنة جهنمية إلى حكم الموت. فإضافة إلى الأحقاد الشخصية، هناك التنافس السياسي والأطماع التي تهيء جواً من الكره والقسوة. وبأي مهارة تمكن بلزاك أن يبين لنا كيف أمكن لأحمقين كالأخوين روغرون، أن يتحولا، دون إدراك منهما، إلى شخصيتين سياسيتين! لم يكن طموح هذين الأخوين يتعدى، عند رحيلهم من شارع سان دنيس، العودة «للموت في مسقط الرأس» واستقبال بورجوازيي بروفنس في «منزل رائع». ولم تكن آراؤهما السياسية ثابتة، ألم يلقيا بنفسيهما أولاً بين أحضان «أتباع الوزارة»؟ فشهوتهما إلى الزهو، وتوقهما إلى تقدير بورجوازي يحول منشؤهما دونه، كل ذلك يدفعهما إلى حزب تيفين. لكن جرت المقادير دون رغبتهما «البلهاء والصريحة» ولم يستلزم الأمر إلا بعض دس بسيط في الصالونات، وبعض كلمات متبادلة، وثرثرات، وبعض إذلالات عميقة لتحولهما عن حزب توجها إليه. وفجأة هاهما مستعدان للوقوع في عصبة الليبراليين الذين يرقبونهما خفية، وعن بعد. فالأخوان روغرون غير مهيئين ليكونا من أبطال السياسة، لكن الظروف حملتهما شيئاً فشيئاً إلى الواجهة الأولى، فلاشيء، حتى الجريمة. إلا ويأخذ طابعاً سياسياً. ولكن في كل هذه البلية ماذا يفكر الأخوان روغرون؟ إن جملة واحدة تعبر عنهما تماماً: «إنهما لايدركان التقرب إليهما لعدم إدراكهما لنبذهما». ما من تعريف للدمى المتحركة أفضل من هذا التعريف!. من إذاً يحرك هذه الخيوط في بروفنس؟ كيف يتمثل الحزبان المتنافسان؟ إن أعلى المدينة وأسفله لايظهران فقط أوضاعاً اجتماعية، بل أحوالاً سياسية متضادة أيضاً. ففي الأعلى، حزب السلطة (وذلك في بداية

القصة، العام ١٨٢٧) المتمثل في العائلات القديمة، وبعض المظاهر التقليدية في الدين. وفي الأسفل، الليبراليين والبورجوازية الصغيرة جداً التي أثرت من التجارة، والكهنة الطموحون.

يمتلك الحزب الملكي مشيرته السيدة تيفين، وهي تسيطر بسهولةعلى زوجها، الشخصية الباهتة، المنقادة؛ وعلى متيمها الخانع المستحق الرثاء جوليار. وأصولها تلزمها بالمحافظة على سلوك لامأخذ عليه، وعلى التصرف بدهاء (فهي ابنة السيدة روغن، بعد أن كانت في المخطوطة ابنةالمحامي المرخص درفيل). غير أنها لاتحب السكان المحليين، وهي مضطرة لاستقبالهم. وستترك بروفنس دون أسف، بعدأن نجحت بفضل دعم أمها، في تسميةزوجها قاضياً في باريس. نباهة، ودماثة وبرودة طبع مع الأصدقاء، وفن في تتبع أحداث المجتمع والتفاعل معها. هذه هي الميزات التي جعلت من هذه السيدة الأنيقة مكيافيلي بروفنس. لكن أتكون على هذا القدر من الحذق المشاع عنها؟ يبدو أنها عاجزة عن أن تكبح فكاهة ناقدة، وأياً كان جمود زوجها، فإن نظرته في السياسة المحليةالبروفينية أبعدمدى من نظرتها، فهو يصرح لها عندما علم أنها تريد التخلص من الأخوين روغرون: «إنهما سيرتميان في أحضان المعارضةالتي لاقوام لها حتى الوقت الحاضر في بروفنس». وكان خطؤها فادحاً! فبدلاًمن تحييد الأخوين روغرون، حرّضت على اتحاد جميع الليبراليين، ويسرت انعكاس القوى، وأعطت لحزب المعارضةمورداً مالياً لايستهان به. من الممكن أن بلزاك أراد بإعطاء هذه الصورة عن السيدة تيفين أن يندد بجميع مسؤولي ثورة ١٨٣٠.

ذات الخطأ في المحاكمة، وذات قصر النظر السياسي لدى أعضاء الطبقة النبيلة السابقة، فالسيدة دي بروتي بعدأن علمت - إنما بعد فوات الأوان - بسعي باتيلد دي شارجبف لتغدو السيدة روغرون «تنهدت من الأخطاء التي يرتكبها الملكيون وأبدت سخطها على من وجد منهم في تُروا»، وبالطبع، فعندما جربت أن تجد زوجاً جديراً بباتيلد، تهرب كل فرد منهم؛ «وحركت كل المنطقة دون أن تستطيع إيجاد نبيل واحد يرضى بالزواج من فتاة ليس لدى أمها إلا دخل ألفي فرنك

سنوياً» وبالنسبة لبلزاك، بديهي أن حزب السلطة قد دمّر نفسه بنفسه، أما الأسباب فالأنانيات، والارتيابات، والصغائر. وبهذا المعنى غدت بروفنس رمزاً لفرنسةالملكية المتحلّلة، وحرص بلزاك أن يسجل هذا الحدث الرئيس: أفسد المال حتى النبالة.

وفي المقابل كان الحزب الليبرالي الذي لم يُوجَّه إليه كثير من الإطراء ـ وقد رأينا التعديلات التي طلب دنوايه من بلزاك إجراءها على النص ـ قد غرز جذوره في أوساط كل البورجوازية الصغيرة من («الجندي القديم الذي غدا بائع مرطبات، والفندقي، والموثق، والطبيب، والمزارعين المتفرقين في كل المنطقة، والحائزين على الأملاك العامة) وكان يديره المحامي فينه والعميد غورو. وهذان الشخصان منفران من الناحية الفيزيائية: ففينه يتميز «بوجهه الأفعوي ذي الرأس المسطح، والفم المشقوق والعينين البراقتين خلف نظارته». أما غورو فيختصر وصفه ببضع كلمات: «هذا الوحش: لم يكن يأكل، وإنما يفترس». وإجمالاً فكل منهما قادر على كل شيء، فالمحامي لايتردد عن تدمير صديقه ليشجع زواج باتيلد وروغرون، والعميد يهتف عندالحديث عن بييريت: «تلك الصغيرة، إيه! سنرى أمرها فيما بعد»وذلك «بسحنة ساخرة أثيمةتبين لرجل من طينة فينه كم تبدو فتاة يافعةشيئاً تافهاً في عيني هذا الشخص الفظ».

كان الليبراليين أبعد مايكون عن التفاهم للقضاء على الحزب المناوئ لهم، فهم يتنازعون باسم مصالحهم الخاصة؛ والأنانية وجواذب الثروة تنتصر بسهولة على المبادئ الأكثر متانة، وحتى الآنسة هابر، التي خابت آمالها من الزواج بروغرون، تسعى للإضرار بأصدقاء البارحة؛ وبقيت مع غورو متظاهرين بالتآلف مع الأخوين روغرون إنما للإساءة إليهما بكل تأكيد». إنها السياسةالصغيرة. كون من التعليلات الغامضةبردود فعل غير منظورة من الخارج، فبروفنس الليبرالية تظهر مشهد أسماك قرش جائعة. زد على أن بلزاك يتحدث بالأحرى عن حزب تيفين وحزب فينه، لا عن الحزب الملكي والحزب الليبرالي، وهذا برهان على أن الأفراد هم المسيطرون وفوق المبادئ. فاللعبة السياسية تختصر بأطماع،

ومنافسات، وأحقاد. والانتساب العميق إلى الأفكار الموجهة لايبدو متصوراً، وقد أوضح بلزاك لنا بجلاء في نهاية قصة **بييريت** أن «الفاتنة السابقة السيدة تيفين تعيش في وفاق تام مع الفاتنة الحاليةالسيدة روغرون. وفينه في صلة حسنة مع الرئيس تيفين» وكل هذا العالم الصغير وصل في النهاية إلى اتفاق. واللعبة التي اختُبِرَت جيداً في بروفنس تستمر في أمكنة أخرى؛ فلم لاتحصل في باريس بالذات؟.

في هذا العالم الأناني المفترس وقعت بييريت المسكينة، وغدت لاشعورياً ترساً رئيساً في الفعل المأسوي. أراد بلزاك أن يصور فيها الطفولة التعيسةالنقية، ومن أجل ذلك أبدع لها صورة فتاة يافعة موشحةبالورع والرومنسية، فتاة صغيرة فرحة ومفعمة نشاطاً، يافعة تسير إلى الموت، وهي تستجيب لتوق عميق في النفس البلزاكية. بالطبع من حق القارئ أن يفهم لماذا تموت؛ وهكذا فقد أنعم علينا ببعض ملاحظات فيزيولوجية هي بالإجمال مبهمة تقريباً. لكن الموضوع الرئيس ليس هنا. فمنذ ظهور بييريت على المسرح، لدى الأخوين روغرون، قدمت لنا كأحد «الوجوه الرفاييلية» مسربلة بالأبيض والأزرق، لوني الطهارة. ولنلاحظ عرضاً، أن سيلفي المتحننة بإحدى هذه الغوامض التي لايشرحها لنا بلزاك تكسو ربيبتها بثياب تغلب عليها هذه الألوان: «فستان من نسيج أزرق، ووشاح جميل جداً مبطناً بتفتا بيضاء، وأوصي لها على معطف لطيف من مخمل أزرق مبطن بالساتين الأبيض». ويلمّح بلزاك إلى أن سيلفي سارت على منوال صغيرات جوليار ومارتنر، لكن هذا لايمنع من أن يبدو توافق الألوان وتكرارها بالأحرى أحد هواجس المؤلف. وبييريت رومانسية كلياً في لحظة موتها «رؤيتها قصيدة وهي تستمع إلى قطعة موسيقية لويبر، أو بتهوفن، أو هرولد؛ عيناها مرفوعتان وصامتتان وهما تأسفان دون شك على الحياة التي تشعر أنها تفلت منها». ويحرص بلزاك على أن تكون بطلة قصته قدوة مؤثّرة؛ ومن هذه الجهة يتقيّد بالنماذج الرومنسية للشابةالطاهرة البريئة، كما عممها أوجين سو وعديدون غيره. ومع ذلك

فيجب ألا نتسرع في تقليص بييريت إلى شخصية باهتة، متقلبة، فبلزاك كعادته دائماً يبتكر كائنات لايمكن إرجاعهم، نظراً لتعقيداتهم وتفرداتهم إلى نماذج مثالية تبسيطية.

يافعة أو شابة؟ بريئة أو فطنة؟ ماذا يمكن أن تكون في الحقيقة هذه البييريت التي تصل إلينا طفلة في «تنورتها من النسيج الأزرق الخشن» وتموت محبوبة حباً راشداً؟ فغموض الشخصية بلغ حداً جعل الليبراليين في عدوانيتهم، يعتقدون أن بإمكانهم أن يتحدثوا عنها كفتاة صغيرة منحرفة تماماً» كما أن الرئيس دفوندريل، من جهته، وصف بييريت وبريغو «كعاشقين». ولتبرير هذا الهوى المدهش لدى ولدين بهذا العمر، اضطر بلزاك لأن يستشهد «بالحب الاستثنائي الشهير بين المركيزة السامية دي بسكير وزوجها» لكن ليس هذا وحده التلميح الوحيد لإيطالية. ففي نهاية القصة تبرز مقارنة تثير الفضول بين موت بييريت وموت بياتريس سنسي. ودراسة المسودات تبين أن هذا النص كان متقدماً في المؤلف؛ وفضل بلزاك بعد التفكير أن يضعه في مكانه الحالي من الخاتمة، وكأن كل **بييريت** يجب أن تفهم ضمن منظور «إيطالي». ومن الممكن جداً أن يكون بلزاك قد تذكر قصة ستندال التي ظهرت في **مجلة العالمين**، العام ١٨٣٧. لكن ذكريات أخرى تبدو لنا أكثر وضوحاً أيضاً: ففي نيسان ١٨٣٩ ظهرت رواية شارتروز بارم، وسرعان ماهنأ بلزاك ستندال بحرارة، وفي أيلول ١٨٤٠ ظهرت في المجلةالباريسية دراسة بلزاك الشهيرة عن الشارتروز، وما يدعو إلى الفضول أن نجد في نهاية ذلك المقال اهتمامات قريبة من تلك المتعلقة ببييريت فقد ورد: «إن ستندال هو أول من أعطى معلومات صحيحة عن قضية سنسي الرهيبة؛ لكنه لم يشرح بما فيه الكفايةأسباب الإعدام المستقل عن القضية، والناتج عن المؤامرات بدافع الجشع».

لن نندهش إذاً لرؤية بريتانيين يتصرفون كستنداليين، فبلزاك يعرف جيداً أن البحث عن السعادة لايعرف الحدود وهو مماثل لذاته في جميع البلدان؛ ومن الممكن تماماً أن يكون الروائي قد تذكر عند وصف تبادل الرسائل بين بييريت وبريغو مشاهد فابريس وكليليا في السجن. ألم يكتب عن هذه المشاهد في الشارتروز: «ستقرؤون

فيها موسوعة عن جميع وسائل السجين، لغاته الساحرة التي يستخدم فيها الطبيعة، الطرائق التي يبث فيها الحياة في أغنية ومعنى في ضجة ما»؟. ودون معرفة، يكتشف البطلان البلزاكيان الموت، يبقى بريغو أميناً لصديقته حتى سعيه إلى الموت في المعركة.

لكن السعادة؟ لكن انشراح الكائن الكلي؟. بين النوايا، وحتى رغبات بلزاك واعتقاداته الراسخة، تم الاختيار منذ أمد طويل. فالسعي إلى السعادة وإشباعها يبقيان وقفاً على فابريس وكليليا؛ أما بييريت وبريغو فلا يعرفان إلا الحب الودي؛ لأن قدرهما نُكِبَ بعمق.

غير أن الأخوين روغرون ينجوان من العقوبة، وتزدهر أحوالهما، ويغدو غورو أحد أعيان فرنسة، ويتحول فينه من جهته إلى «نائب عام أصيل يطالب بدقة بالرؤوس». والشيء الأكثر إدهاشاً في القضية هو أن البراءة قد سحقت شرعياً، فبريغو وهو الوحيد الذي يمكنه جلاء حقيقة الأحداث، تحركه الرغبة في الانتقام، تسحقه الآلة بدوره، ولم يعد أمامه إلا أن ينخرط في الحرس الملكي. كل شيء جيد إن انتهى إلى خاتمة جيدة: وبييريت التي كانت في زمن مركز جميع المؤامرات، لم يعد يبالي بها أحد بعد موتها. بل يبدو أن اختفاءها أحل الوئام العام.

وبالبداهة يجب لإجلاء «كمال بييريت الملائكي» وجود مميّز نقيض، وقد وجده بلزاك في شخصية سيلفي فهذه العانس، دون أخيها جيروم ـ دنيس، تبرر مكان هذه القصة في مجموعة **العازبين**، وقد اعتُبرَ بلزاك في زمنه مبتكر المرأة في الثلاثين من العمر، وكرس رساماً بارعاً للمرأة بصورة عامة، إنما يبقى في نظرنا، بصورة خاصة، المبدع الأدبي الحقيقي للعانس. وتميّزت أنواع عديدة للعوانس في نتاجه الأدبي: هذه الجاهلة الحمقاء التي تسعى مهما كلف الأمر للزواج (ممثلة بالآنسة كورمون). وتلك الأخرى المستغرقة في التقوى، وهي تتجرع آلام حرمانها طوال الوقت (الآنسة غامار)، والأخريات المنصرفات إلى التضحية حتى يصلن إلى نوع من القداسة (بولين دي فيلنوا، وآرماند دسغرينيون). ثم النوع الآخر الممثل ببت أو بسيلفي والمتميز بقسوته، وحسده، وكبته الجنسي.

حرص بلزاك على أن يظهر لنا الثنائي روغرون في أيامهما الأكثر قتامة. بل إن لاسم روغرون بالذات دلالة. ومن الممكن أن يكون بلزاك قد اقتبسه من شخص اسمه جوزيف روغرون، مؤلف كتاب **قانون التجارة** الذي أعيد طبعه مرات عديدة. لكن يبدو أن جَهورَية الاسم بالذات هي التي أغرت به. ألا يثير الإحساس بالتذمر، والحنق، والزمجرة؟.

لكن بلزاك ليس مؤلفاً ميلودرامياً، وشخصياته متنوعة وسيلفي ليست مسخاً كريهاً بالكلية، فسلوك تلك العانس، وكذلك سلوك أخيها وُضِّحا بشكل جلي، إن لم يكونا قد بُرِّرا. والواقع أن للأخوين أعذارهما: فالأب فاقد الحس الأخلاقي علانية، أنشأهما على القسوة، وعند توليهما شؤونهما الخاصة قضيا مطلع العمر في حالة أقرب إلى الوحشية الحيوانية، فهما منبوذان من ذويهما، ولم يجدا مودة من جدهما، بل بالعكس، بدا أشد سوءاً. إنما كانا يمتلكان الرغبة في الوصول، وفي ذهنهما أن الثروة ستتيح لهما إحراز بعض المكانة. إن مثل هذه الشروح لاتخلو من فائدة، فهي تعطي ظلاً من الواقعية لأشخاص هُيِّئوا بسرعة ليصبحوا قطع تركيبة أدبية، غير أن بلزاك يشرح تشكيل شخصياته دون تجميل لهم، فقد أظهر روغرون أحمقاً، بليداً، قليل الخبث لكنه شديد الأنانية. أما شخصية سيلفي فهي أكثر تفصيلاً، مما يدفع إلى التساؤل إن لم تكن هي بطلة القصة. وما من أحد يشك في أن صورتها الفيزيائية هي واحدة من الأكثر كاريكاتورية في **الملهاة الإنسانية**. وبلزاك قارنها مرات عديدة «بالساحرة»؛ لكن مايبدو لنا أكثر دلالة هو استعارة بعض مظاهر الحركات الحيوانية لتصرفاتها: «فلها حركة خفاش»، «وهي تدخل إلى غرفتها بمشية مماثلة لمشية السلحفاة التي تخفي رأسهابعد أن تخرجه من قفصها» «وهي تقبض بيدين ككماشة سرطان البحر على يد بييريت الهزيلة البيضاء»، وفي أمكنة أخرى يقارنها بلزاك «بالإيلينوا»، و«الشروكس» و«الموهيكين» وحتى «بالايروكوا» وهي تبدو لنا كذكريات عن قراءته لغنيمور كوبر. كل هذا النسق المجازي من أجل شخص واحد! ومايخرج منه خاصة هو القسوة الوحشية، والنفاق، وانتصار الغرائز الشائنة.

ندرك أن الحب في طبيعة بمثل هذا العنف ومثل هذا التستر يفتك فتكاً ذريعاً، والغيرة تصل إلى نسب جنونية بحيث تقود مباشرة إلى الجريمة؛ غير أن هذا الهوى المفرط لايتيح تمييز سيلفي عن عدد من الشخصيات الأخرى في **الملهاة الإنسانية** ممن يتصفون بالهوس الأحادي. وغرابة سيلفي ترد مما يثيره الحب فيها من قوى ماتحت الشعور؛ وبلزاك الذي لايعرف هذه الكلمة، حتى وإن خمّن الظاهرة، يتحدث عن «هذا العالم من الأشياء الغامضة التي يجب تسميتها على الأرجح قذارات القلب البشري». أي نظرة خاطفة ملقاةعلى السراديب! فسيلفي عانس قصته حمقاء جاهلة، لكنها تكتشف عالماً جديداً: «إنها سمعت أقاويل عن أن الرجال في الخمسين من العمر يحبون الفتيات الصغيرات من طراز بييريت».

وهاهي الهواجس تشغل مخيلتها. من يمكنه أن يخمن أي أفكار تنتاب هذه العانس عندما يقرأ: «سمعت سيلفي في صالون تيفين أشياء غريبة عن غورو وعن عاداته»؟. شخصية مذهلة ساذجة ونفاذة في آن معاً! كان إنشاء المشاهد محسوباً بطريقة تتعارض فيها بشكل آلي تقريباً ببيريت مع ابنة خالتها، فصورتاهما مقرونتان (انظر مشهد فاتحة القصة) أو متعارضتان بشدة («إنها تشكل خطاًموازياً لانقطة التقاء فيه مع بييريت..»). ونحن لانعتقد وجوب اعتبار هذا التركيب تعبيراً عن مانوية[1] بسيطة تقريباً: بييريت رمز الجمال والخير تقابلها سيلفي رمز القبح والشر. ما من شيء بمثل هذا الابتذال. فبييريت لم تلق كل هذا الكره من ابنة خالتها إلا لأنها تمثّل صورة الفتاة الصغيرة المثالية التي أرادت سيلفي أن تكون دون وعي منها. وقد اعتقدت أنها بقتل بييريت تخلصت من مُنافِسَة والواقع أنها أزاحت عن روحها ثقلاً غير معترف به. وفي هذا الصدد فإن خاتمة القصة واضحة تماماً: «ما من أحد ممن شاركوا في موت بييريت انتابه شيء من تبكيت الضمير» وسيلفي خاصة، تلك التي

---

(١) المانوية: مذهب سنسكريتي ابتدعه ماني الفارسي في القرن الثالث وهو يربط أسساً مسيحية بعناصر بوذية ومجوسية، ويعتبر الخير والشر، كالنور والظلام عنصرين رئيسيين متساويين ومتعاكسين.

كانت تهتم أمومياً بكل «ولد من بروفنس يصل إلى باريس، سعياً وراء الرزق والاستقرار» غدت سيدة بروفنس الطيبة. لقد سببت موت بييريت، وكأنها أرضت حاجة في نفسها، بل إنها شبه سعيدة الآن. مع العلم أنها بعد اقتراف هذا الإثم، عادت إلى الإنشغال بالربا والأثاث، وفقدت كل تميز. فهي لم تعد تلك الشخصية البارزة.

إن قصة **بييريت** هي دون أدنى شك، أحد المؤلفات الأكثر تشاؤماً في **الملهاة الإنسانية** ونحن في صميمنا نفضلهاأن تكون هكذا، إذ لايمكننا أن نتمثل بلزاك ينافس الكونتة دي سغور[1]. والمؤلف يحكم مرة أخرى على معاصريه دون مهادنة أو مجاملة. وربما كانت الأقاليم البلزاكية، أكثر من باريس، عالماً تتم فيه شرعياً جرائم صامتة. وقصة **بييريت** هي نتاج رجل لا أوهام لديه حول قيمة الإنسان وطرائق حركة المجتمع في عصره. لكن في هذا العالم الذي تتذابح فيه أسماك القرش، تتفتح ثم تذبل تلك الزهرة العذبة للكآبة، الزهرة التي تحدث عنها بلزاك للسيدة هانسكا. فبييريت الكئيبة، والمؤثّرة بل والملائكيةهي الناحية الأكثر انغلاقاً في قلب بلزاك. فتلك الطفلة، وإن وشحت بغلالة المثالية تبقى، بطريقة ما، الأمل في **الملهاة الإنسانية**.

وهذا الأمل قد قُتِل.

جان لويس ترير

---

(١) الكونتة دي سغور (١٧٩٩-١٨٧٤) أديبة فرنسية اشتهرت بقصصها التربوية الموجهة لليافعين (ملاحظة المترجم).

الفهرس

ثلاثية العازبون

الرواية الأولى: بييريت

هذه هي الرواية الأولى من ثلاثية «العازبين»؛ وقد رأى بلزاك أن العزوبية حالة ضارّة بالمجتمع، انطلاقاً من مبدأ الكره لكل كائن غير منتج، للعازبين والعوانس.

الأخوان سيلفي ودنيس روغرون عانسة وعازب قضيا مطلع العمر في حالة أقرب إلى الوحشية، وبعد أن حقّقا ثروة بنيا بيتاً فخماً وجرّبا الانخراط مع النخبة الراقية في بلدتهما بروفنس فلم يتيسر لهما النجاح.

بييريت ابنة خالتهما اليتيمة قضت طفولة هنيئة في مقاطعة بريتانية، تلهو مع رفيق لها جاك بريغو صانع النجار، مثل پول وفرجيني، لكن إفلاس جديها دفعها إلى الالتحاق بنسيبها، وهي في الحادية عشرة من عمرها، ولحق بها رفيقها يبثها رسائل بريئة بخيط معلّق إلى نافذتها، وانتاب سيلفي العانس القاسية الغيظ فحطّمت معصم الفتاة الرقيقة، وأحالت حياتها جحيماً، أدّى بالمسكينة إلى الاحتضار.

أهي رواية تعبير عن مانوية تقابل بين بييريت رمز الجمال والخير وسيلفي رمز القبح والشر؟ أم أنها دراسة سيكولوجية لعانس رأت في صورة الفتاة الصغيرة، المثالية التي حرمت منها فأرادت الانتقام من قدرها. أو أنها صرخة في وجه العدالة التي لا تتحقق إلا مع القوة تتمثل في صرخة بريغو صانع النجار وهو يرفع إزميله قرب جثمان حبيبته: هل توجد عدالة؟ العدالة في هذه القبضة ويذهب ليلتحق بالجيش!

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر
١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٥٠ ل.س